

فلاديمير نابوكوف
دعوة إلى
الإعدام
رواية
ترجمة
إبراهيم استنبولي
دار سؤال
للنشر والتوزيع

فلاديمير نابوكوف

دعوة إلى الإعدام



مقدمة المترجم

«دعوة إلى الإعدام» (كُتبت عام 1934 ونشرت في عامي 1935 1936) هي سابع رواية باللغة الروسية لصاحب «لوليتا» فلاديمير نابوكوف، وتعتبر واحدة من قمم المرحلة «السيرينية» في إبداع الكاتب [والمقصود بالمرحلة «السيرينية» هي تلك الفترة التي كتب خلالها نابوكوف قصصه ورواياته باللغة الروسية أثناء وجوده في المهجر في أوروبا باسم مستعار «سيرين»].

في بلادٍ مُتخيّلة، مختلقة، وُضِع الشاب الذي يدعى سينسينات في سجن القلعة بانتظار تنفيذ حكم الإعدام الذي صدر في حقِّه بتهمة عدم الشفافية الذي أدّى إلى خرق الاستقرار الاجتماعي أو، كما جاء في قرار المحكمة، بسبب «الدناءة المعرفية gnoseological infamy».

وإذ راحت تزوره في زنزانته «أشباح هزيلة بائسة» للحراس والأقرباء، راح سينسينات يدرك بوضوح أكثر فأكثر التصنّع المسرحي والسخافة الغريبة إلى درجة مذهلة لذلك الواقع المحيط الذي يمكن لمدير السجن فيه أن يتحوّل إلى ناظر في السجن، في حين يتظاهر السفاح بأنه سجين ويقوم بتصرفات غريبة وبحركات بهلوانية.

بيدَ أنَّ ذلك العالم الصوري، المزيّف، سرعان ما يتهاوى وينهار في لحظة تنفيذ الإعدام، ما يجعل البطل ينتقل إلى جانب «الكائنات الشبيهة به» أي إلى الواقع العلوي الحقيقي.

هذه الرواية التي سوف يعتبرها المؤلف فيما بعد «القصيدة الطويلة الوحيدة في كتاباته النثرية»، تطرح تيمات هامة جدًّا من وجهة نظر نابوكوف الفلسفية ومفهومه عن الحياة الآخرة، وعن عالم ما بعد الموت، أي عن الجوهر الحقيقي للفن، وعن مغزى الحياة والكينونة البشرية.

مقدمة المؤلف
للطبعة الأمريكية من الرواية((1))

... قمت بتأليف [هذه الرواية] قبل ربع قرن بالضبط، بعد مرور حوالي خمسة عشر عامًا على فراري من النظام البلشفي، وقبل أن يشرع النظام النازي [في ألمانيا المترجم] في الدعاية الصاخبة إلى أقصى درجة لحسن الضيافة عنده. ولا ينبغي للسؤال عما إذا كان هذا الكتاب قد تأثر بحقيقة أن كلا النظامين يمثّلان بالنسبة لي نفس المهزلة الرمادية والمثيرة للاشمئزاز، أن يثير اهتمام القارئ الجيد والحصيف بنفس الدرجة القليلة التي يثيرني بها هذا السؤال أنا بالذات.

تمَّ نشر رواية «دعوة إلى الإعدام» في عدّة أعداد من مجلة المهاجرين الروس «سوفريمينّيي زابيسكي» التي كانت تصدر في باريس، ثم صدرت الرواية هناك في وقت لاحق في كتاب منفصل وذلك عام 1938 في دار نشر «House of Books».

شعر النقاد المهاجرون بالحيرة من أمرهم، ولكنهم أحبّوا العمل وأُعجبوا بالرواية، وتخيّلوا أنهم «اكتشفوا» فيها بعض عناصر «القص الكافكاوي»، دون أن ينتبهوا إلى أنني لا أعرف اللغة الألمانية وكنت أجهل الأدب الألماني الحديث، فضلاً عن أنني لم أكن في تلك الفترة أقرأ أي ترجمات فرنسية أو إنكليزية لمؤلفات كافكا.

مما لا شك فيه أنه توجد روابط معينة بين هذه الرواية، لنفترض، وبين القصص التي كتبتُها في فترة مبكرة (أو بين الرواية التي قمت بتأليفها في وقت متأخر أكثر لاحقًا بعنوان «مع علامة أبناء غير شرعيين»)، إلاّ أنه لا توجد بأي شكل من الأشكال أية صلة بين «دعوة إلى الإعدام» وبين كل من روايتي «المحاكمة» [أو «القضية»] و«القلعة» [لفرانز كافكا المترجم].

لا يوجد في مفهومي للنقد الأدبي ما يُعرف بالألفة الروحية، ولكن إذا ما وجدتُ نفسي مضطرًا، فسوف أختار ذلك المعلّم الكبير في فن النثر أورويل [جورج] وغيره من الكتّاب الآخرين الذين يقدّمون لنا أفكارًا مصوّرة ونثرًا أدبيًّا جماهيريًّا رائعًا.

وبالمناسبة، لم أستطع أن أفهم على الإطلاق، لماذا يخلق صدور أي كتاب لي رغبة محمومة عند النقاد من أجل البحث عن أسماء مشهورة بدرجة كبيرة أو قليلة، لكي ينغمسوا في شغف خاص بهم وهو المقارنة بين هذا وذاك. وقد وجهوا إليَّ خلال العقود الثلاثة الأخيرة إذا ما أحصينا تلك القذائف غير المؤذية على سبيل المثال لا الحصر قذائف من مثل غوغول، وتولستوي، وجويس، وفولتير، ودي ساد، وستاندال، وبلزاك، وبايرون، وبيربوم، وبروست، وكلايست، وماكار مارينسكي، وماري مكارثي، وميريديث(!)((2))، وسيرفانتس، وتشارلي شابلن، والبارونة موراساكي، وبوشكين، وراسكين، وحتى سيباستيان نايت. ولكن كاتبًا وحيدًا لم يسبق أن أتوا على ذكر اسمه بهذا الخصوص وهو الوحيد الذي يجب أن أعترف مع الامتنان بتأثيره عليَّ خلال كتابتي لتلك الرواية وأقصد ذلك الكاتب الحزين والسوداوي وغريب الأطوار، المعلّم البارع والذكي في فن النثر، والساحر بكل بساطة بيير ديلالاند الذي قمتُ أنا باختراعه.

قال كاتبي المفضّل((3)) (1768 1849) ذات يوم بشأن رواية كان النسيان قد طواها تمامًا ما يلي:

IL A TOUT POUR TOUS. IL FAIT RIRE L’ENFANT ET FRISSONNER LA FEMME. IL DONNE A) L’HOMME« DU MONDE UN VERTIGE SALUTAIRE ET FAIT REEVER CEUX QUI NE REEVENT JAMAIS»((4)).

لا يمكن لرواية «دعوة إلى الإعدام» أن تطمح لمثل هكذا عمل عظيم أبدًا. فهي أشبه بكمان يعزف في فضاء فارغ. سوف يعتقد الإنسان الواقعي، الملتصق بالأرض أن هذه مجرّد حيلة وتصرف أخرق من محتال. أما كبار السن فسوف يسارعون إلى ترك الكتاب والانتقال لقراءة روايات رومانسية من حياة الريف وإلى سيَر المشاهير. كما أنّ الرواية لن تنال إعجاب سيدة اعتادت أن تتردد على نادي للسيدات. أما الأشخاص ذوو النوايا الخبيثة والشريرة فسوف يكتشفون أن مارفينكا هي شقيقة دوللينكا [إحدى الشخصيات الرئيسة في رواية «لوليتا» للكاتب نفسه المترجم]، في حين أنَّ تلاميذ الطبيب المتخصص في السحر الأسود من فيينا فسوف يقهقهون ويسخرون من الرواية في إطار عالمهم الصغير من ذلك الشعور العام بالذنب والتعليم التقدمي. ولكن كما قال مؤلف «أطروحة حول الظلال»((5)) بخصوص مصباح آخر:

أنا أعرف (QUELQUES) عددًا (JE CONNAIS) من القرّاء الذين سوف يقفزون من مقاعدهم وهم يشعثون شعرهم.

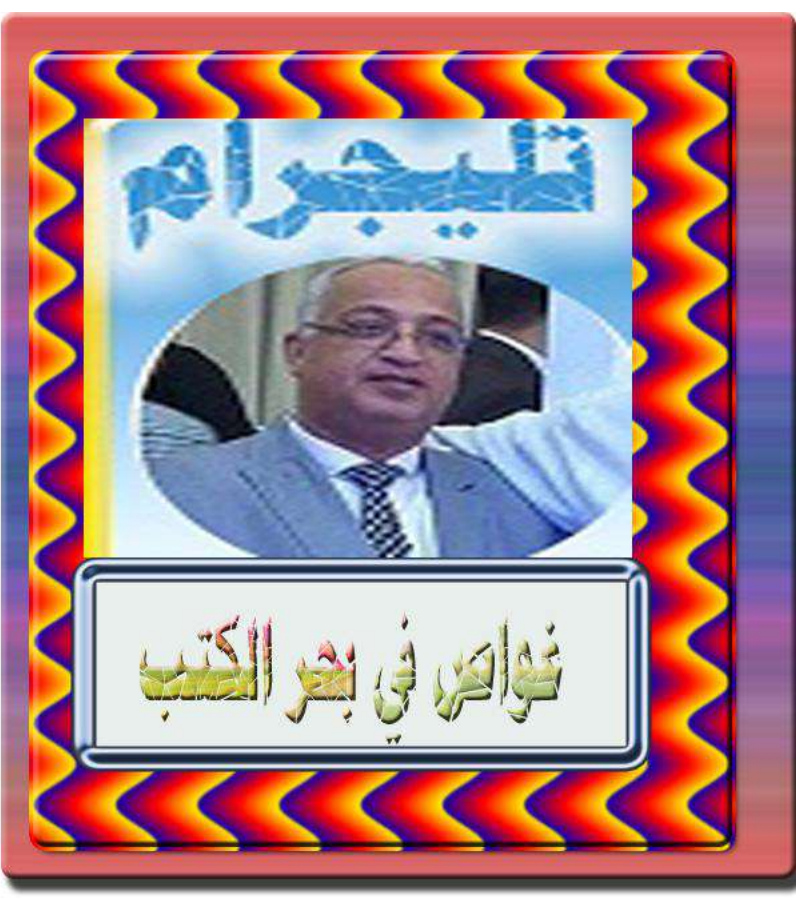
وادى اوك كريك، آريزونا

25 حزيران/ يونيو 1959

.((Comme un fou se croit Dieu nous nous croyons mortels((6

((Delalande, «Discours sur les ombres»((7





I

وفقًا للقانون، تم إعلام سينسينات تس. همسًا بشأن قرار الحكم بالإعدام الذي صدر في حقّه. نهض الجميع، تبادلوا الابتسامات. انكبَّ القاضي العجوز إلى أذنه، التقط أنفاسه وأعلن له قرار الحكم، ثم بدأ يتراجع ببطء كما لو أنه راح ينفصل. بعد ذلك أعادوا سينسينات إلى القلعة. كانت الطريق تتلوى من حول السفح الصخري للجبل لتستمر تحت البوابات: مثلما تغيب أفعى في جُحرٍ تمامًا.

كان هادئًا: لكنهم كانوا يسندونه أثناء انتقالهم عبر الممرات الطويلة، لأنه لم يكن يضع قدميه بشكل صحيح، كما لو أنه طفل راح للتو يتعلم المشي، أو كان يسقط مثل شخص كان يحلم بأنه يمشي على سطح الماء، وإذا به يرتاب فجأة: هل يمكن أن يكون ذلك؟

راح السجّان روديون يعالج مطوّلاً القفل في باب الزنزانة إذ لم يعثر فورًا على المفتاح المناسب نفس الجلبة يوميًا. وأخيرًا استسلم الباب. كان المحامي ينتظر هناك وقد جلس على السرير. كان يجلس مستغرقًا في التفكير بصورة كاملة، من دون الرداء الخاص بالمحامي (الذي تم نسيانه على كرسي نمساوي الصنع في قاعة المحكمة كان النهار حارًّا، مشمسًا بالكامل)، وقد انتفض واقفًا ببطء حين أدخلوا السجين. بيدَ أنَّ سينسينات لم يكن يرغب في أية أحاديث. لتكن الوحدة في زنزانة مع عين ساحرة، زنزانة أشبه بزورق يسمح بالتسرّب. بجميع الأحوال أعلن أنه يريد أن يبقى وحيدًا، فانحنى الجميع في التحية وانصرفوا.

وهكذا لنمضِ إلى الخاتمة. وإذ يبدو ذلك الجزء الصادق وغير الناقص من الرواية المكتملة الذي نجسّه بكل لطف أثناء قراءتنا الممتعة، لكي نتحقق بطريقة آلية عمّا إذا كان بقي الكثير (وكيف أنَّ تلك السماكة الأكيدة والهادئة للجزء المتبقي تبعث الفرح في الأصابع)، فجأة، من دون أي سبب، هزيلاً جدًّا: يكفي بضع دقائق من القراءة السريعة، القريبة من النهاية و... يا له من أمر رهيب! كومة من الكرز الأحمر وقد راح يسودّ ملتصقًا أمام أعيننا، تتحول فجأة إلى حبّات معزولة: فهذه واحدة مع شقٍّ، فسدت، وهذه واحدة تجعدت وانكمشت على النواة (أمّا آخر حبّة فلا بدَّ أن تكون ناضجة وصلبة). يا للفظاعة!

نزع سينسينات قميصه الحريري من دون أكمام، ارتدى الرداء وراح يتمشى في أرجاء الزنزانة وهو يخبط بقدميه لكي يتخلّص من الرجفة. كانت ثمة ورقة نظيفة بيضاء مستقرة على الطاولة، وعلى ذلك البياض كان يمكن تمييز وجود قلم رصاص مبريٌّ بشكل دقيق جدًّا، وطويل مثل حياة أي إنسان، باستثناء حياة سينسينات، وله لمعان خشب الأبنوس في كل ضلع من الأضلاع الستة. السليل المتنور للسبابة. كتب سينسينات: «ومع ذلك أنا بالمقارنة. إذ إني سبق أن تنبأت بمثل هذا النهاية». كان روديون واقفًا خلف الباب وقد راح يراقب من خلال العين السحرية بانتباه ربّان سفينة. أحسَّ سينسينات ببرودة في الناحية القفوية. قام بشطب ما كتبه ثم راح يظلّل المكان على الورقة ببطء، وقد حصل بالمناسبة على زخرفة بدئية تطورت بالتدريج إلى ما يشبه قرن خروف مفتول. يا للهول! راح روديون ينظر عبر العين السحرية الزرقاء إلى الأفق الذي راح يعلو ويهبط. مَن ذا الذي أحسَّ بالغثيان؟ سينسينات. تصبّب عرقًا، وأصبح كلُّ شيء مظلمًا، كما راح يحسُّ بجذرِ كلِّ شعرة عنده.

دقّت الساعة أربع أو خمس مرات، وكانت كل من إجازتها الزنزانية في سجن القلعة، وهمهمتها التي تشتد تارة وتضعف تارة أخرى وانتشاؤها المستمر على أفضل ما يرام. راح عنكبوت الضيف الرسمي بالنسبة للسجناء يهبط من السقف معلّقًا على خيط من خيوطه وهو يعمل بأرجله. ولكن لم يطرق أحد على الجدار، لأنَّ سينسينات كان السجين الوحيد حتى تلك اللحظة (في تلك القلعة الهائلة بأكملها!).

دخل السجّان روديون بعد مرور بعض الوقت واقترح على سينسينات جولة من رقصة الفالس. وافق سينسينات وراحا يدوران. كانت المفاتيح تقعقع معلّقة بحزام جلدي على خصر روديون، كما كانت تفوح منه رائحة الذكورة والتبغ والثوم، وهو يلهث عبر لحيته الشقراء، وكانت مفاصله الصدئة تطقطق (تبدّلت السنون، للأسف، وثمة زيادة في الوزن وصعوبة في التنفس). خرجا إلى الممر. كان سينسينات أقصر قامة من شريكه. كما كان سينسينات رشيقًا مثل ريشة. راح الهواء المنبعث من رقصة الفالس ينفخ في النهايات الشقراء لشاربيه الطويلين ولكن المبللين ويجعلهما وَبريَّين، بينما راحت عيناه الكبيرتان والصافيتان تنظران شزرًا مثلما يحدث عادة عند جميع الراقصين الخائفين. نعم، كان قصيرًا جدًّا بالنسبة لرجل ناضج. كانت مارفينكا تقول إن قبقابه((8)) ضيق على قدميها. كان ثمة حارس آخر يقف عند منعطف الممر، بلا اسم، مع سلاحه، في قناع كلب ومع فتحة من الشاش عليه. قاما بدورة حوله ثم عادا إلى الزنزانة، وهنا أحسَّ سينسينات بالأسف لأنَّ مصافحة الإغماء كانت قصيرة إلى هذه الدرجة.

من جديد دقّت الساعة بكآبة معتادة. راح الوقت ينصرم وفق متوالية عددية: إنها الساعة الثامنة. تبيّن أنَّ النافذة الصغيرة القبيحة مُتاحة للغروب؛ انتشر على الحائط الجانبي متوازي أضلاع مضيء وامتلأت الزنزانة حتى أعلاها بلون الغسق مع صبغة ساحرة. هكذا، يطرح نفسه سؤال: ما هذا الذي يوجد على يمين الباب لوحة رسمها فنان حاذق أم نافذة أخرى مزخرفة من تلك التي لم يعد موجودًا أمثالها؟ (في الحقيقة كان ذلك
عبارة عن قطعة من الرق تتضمن بالتفصيل، في قائمتين، «تعليمات للسجناء»؛ مع زاوية مثنية، وحروف كبيرة باللون الأحمر، بالإضافة إلى رسوم تزيينية وشعار المدينة العريق وبالتحديد: فرن عال مع أجنحة وهذا ما منح الانعكاس المسائي ما يلزم من عناصر). أما الأثاث في الزنزانة فكان عبارة عن طاولة وكرسي وسرير. كانت وجبة الغداء التي سبق أن تمَّ جلبها منذ مدة طويلة (كان المحكومون بالإعدام يحصلون على طعام من نفس طعام مدير السجن) قد بردت على صينية نحاسية. حلَّ الظلام. وفجأة انتشر في الزنزانة ضوء كهربائي، ذهبي اللون وساطع جدًّا.

أنزل سينسينات رجليه عن السرير. تدحرجت في رأسه، من الناحية القفوية باتجاه الصدغين، وفق مسار قِطْري، كرة البولينج ثم عادت أدراجها. في هذه الأثناء فتح باب الزنزانة ودخل مدير السجن.

كان يرتدي، كعادته، سترة رسمية، وكان مشدود القامة بشكل ممتاز، بارزًا صدره وقد دسَّ إحدى يديه تحت طرف السترة، بينما احتفظ باليد الأخرى خلف ظهره. كان شعره المستعار مثاليًّا، حالك السواد مع مفرق شمعي، يلتصق بالجمجمة بشكل محكم وأملس. أمّا وجهه الحليق جيّدًا والخالي من أي محبّة، مع وجنتَين صفراوَين دهنيتَين ومنظومة هرمة بعض الشيء من التجاعيد، فكان منتعشًا بشكل اصطلاحي بفضل زوج، نعم زوج واحد فقط من العيون. مرَّ بين الحائط والطاولة كما لو أنه يجرجر حرفيًّا رجليه في بنطلون مخطّط، وكان على وشك أن يبلغ السرير ولكنه تلاشى بكل هدوء وذاب في الهواء، وذلك على الرغم من الكثافة المطهرة. ولكن الباب فُتِح من جديد، بالمناسبة، بعد لحظة مع نفس ذلك الصرير المعروف وكما هي العادة دائمًا، دخل هو ذاته مرتديًا سترة ومُبرزًا صدره.

عرفت من مصدر موثوق أنّه تمّ البتُّ في مصيرك بدأ حديثه بصوت جهير ملطّف ولذلك وجدتُ أنه من واجبي، يا سيّدي...

قال سينسينات:

يا له من لطف. إنكم. جدًّا. (ومن الضروري إعادة ترتيب الكلمات هنا)

إنك لطيف جدًّا. قال سينسينات آخر إضافي بعد أن قام بتنظيف بلعومه.

عفوًا صاح المدير دون أن يلحظ عدم اللباقة في الكلمة اعذرني! إنه الواجب. أنا دومًا. ولكن هل يمكنني أن أتجرأ وأسألك لماذا لم تلمس الطعام؟

رفع المدير الغطاء وقرّب إلى أنفه شديد الحساسية قصعة من وجبة طعام مؤلفة من الخضار واللحم. التقط بإصبعين قطعة من البطاطس وراح يمضغها، ثمّ اختار بإشارة من حاجبه شيئًا ما آخر من طبق الطعام.

لا أعرف ما هي الأطعمة التي تشتهيها نطق بلهجة تنمُّ عن الضيق وعدم الرضا، ثم جلس إلى المائدة وهو يقرقع بالأصفاد وذلك لكي يتمكن من تناول البودِنغ((9)) بطريقة مريحة.

قال سينسينات:

ومع ذلك كان بودّي أن أعلم ما إذا كان الأمر سيطول الآن.

يا لها من زابليونية((10)) رائعة! أنت تريد أن تعرف ما إذا كان الأمر سيطول الآن. للأسف، أنا نفسي لا أعرف. فهم دومًا يحيطونني علمًا بالأمر في آخر لحظة فقط، ولطالما شكوتُ من ذلك، ويمكنني أن أعرض عليك كامل مراسلاتي بهذا الخصوص إذا كان ذلك يحظى باهتمام لديك.

لعلّ ذلك يحدث في أقرب صباح؟ سأل سينسينات

في حال كان ذلك يثير اهتمامك قال المدير نعم، إنها لذيذة جدًّا وتبعث على الشبع بكل بساطة، هذا ما أريد أن أعترفَ لك به. وأمّا الآن، pour la digestion((11))، اسمح لي أن أقترح عليك سيجارة. لا تخف، فهذه ستكون ما قبل الأخيرة كحدٍّ أقصى أردف بطريقة فطنة.

أنا أسأل قال سينسينات أنا أسأل لا من باب الفضول. علمًا أنَّ الجبناء دومًا فضوليون. ولكني أؤكد لك... ربما لا أتحمّل القشعريرة وغير ذلك أما هذا فأمر تافه. والفارس لا يتحمّل المسؤولية عن ارتجاف الحصان. أنا أريد أن أعرف متى وهاك السبب: يُعوَّض قرار الإعدام تمامًا عن طريق المعرفة الدقيقة لساعة التنفيذ. يا له من ترف كبير ولكنه يستحق. في حين أنهم يضعونني في جهل لا يستطيع تحمّله سوى أولئك الذين يعيشون طلقاء.
وأيضًا: ثمة في ذهني مجموعة من الأعمال التي كنت قد بدأتها ثمَّ توقفت عن متابعتها في أوقات مختلفة... وأنا لن أعكف على الانشغال بها بكل بساطة، ما لم تكن المدة المتبقية حتى ساعة تنفيذ الإعدام كافية من أجل إنجازها بشكل لائق. هذا هو السبب.

آه، لا داعي لأن تغمغم قال مدير السجن بنبرة عصبية فهذا، أولاً، مخالف للقواعد، وثانيًا لقد قلتُ لك بلغة روسية وأكرّر: لا أعرف. كل ما يمكنني أن أقوله لك هو أنَّنا ننتظر يومًا بيوم وصول الشخص الذي سيقوم بالتنفيذ. وهو، بعد أن يصل، سوف يرتاح بعض الوقت لكي يتأقلم مع الحالة، كما يجب عليه أن يختبر الجهاز ويتأكد من صلاحيته، هذا في حال لم يجلب معه جهازه الخاص، وهذا وارد ومحتمل جدًّا. لا أعتقد أنَّ التبغ ثقيل؟

لا أجاب سينسينات وهو ينظر شاردًا إلى سيجارته لكن يُخيّل لي أنَّ والي المدينة ملزم، وفقًا للقانون، ما لم تكن أنت...

لقد ثرثرنا وكفى قال المدير أنا، بالمناسبة، لم آتِ إلى هنا لكي أسمع شكاوى، وإنما من أجل... حشر يده في أحد جيوبه ثم في جيب آخر وهو يغمز؛ وأخيرًا أخرج من عبّه ورقة مخطّطة تم انتزاعها كما هو واضح من دفتر مدرسي.

لا يوجد منفضة سجائر هنا لاحظ وهو يشير بسيجارته حسنًا، هيا بنا نطفأ السيجارة في بقايا هذه الصلصة... هكذا. الضوء، بالمناسبة، مزعج بعض الشيء. ربما في حال... بيدَ أنه لا داعي، لا بأس.

بسَط الورقة ثم راح يقرأ بصوت واضح من دون أن يضع نظارته وإنما اكتفى بأنه ظلّ ممسكًا بها أمام وجهه:

«أيها السجين! في هذه اللحظة المهيبة حيث إنَّ الأنظار...» أرى أنه من الأفضل لنا أن ننهض واقفَين قاطع نفسه مغمومًا ثم قام عن الكرسي.

وقف سينسينات أيضًا.

«أيّها السجين! في هذه الساعة المهيبة حيث إن الأنظار كلّها موجّهة إليك، وحيث إنَّ القضاة الذين أصدروا الحكم بحقّك يبتهجون، وبينما تستعدّ أنت لتلك التقلصات البدنية غير الإرادية التي تلي عملية قطع الرأس فورًا، فإني أتوجّه إليك بكلمة وداعية. كان من نصيبي وهذا ما لن أنساه أبدًا أن أحيط عيشك في الزنزانة بجميع وسائل الراحة الكثيرة التي يسمح بها القانون. لذلك سوف يسعدني أن أعير كامل اهتمامي لأي رغبة منك من أجل التعبير عن الشكر، وحبّذا لو تفعل ذلك كتابةً وعلى وجه واحد من الورقة فقط».

هكذا، إذن قال المدير وهو يطوي نظارته هذا كل شيء. لن أحجزك عندي أكثر من ذلك. أرجو أن تعلمني في حال نشأت عندك حاجة لأي شيء.

ثم جلس إلى الطاولة وراح يكتب بسرعة معلنًا بذلك عن انتهاء المقابلة. خرج سينسينات.

كان ظلّ روديون النائم ينعكس على جدار الممر، وقد انكمش منحنيًا على نفسه فوق كرسي بلا مسند وبحيث إنَّ بضع شعيرات شقراء فقط لمعت خلسة، من جانب واحد. ومن ثمَّ، عند المنعطف التالي للجدار، كان ثمة حارس آخر وقد نزع سِدارته وراح يمسح وجهه بكمّه. هبط سينسينات الدرج. كانت الدرجات زلِقة وضيّقة، مع درابزين مُتخيل على شكل حلزون غير مجسوس. عندما بلغ أسفل السلّم، سار من جديد عبر الممرات. كان ثمة باب مع كتابة مقلوبة كما لو في مرآة: «الديوان» وكان الباب مفتوحًا؛ كان القمر ينعكس ساطعًا على دواة، وكانت ثمة سلّة مهملات تحت الطاولة وقد راحت تخشخش وتقرقر بشكل محموم: يفترَض أن فأرًا سقط فيها.

اجتاز سينسينات الكثير من الأبواب، وإذا به يتعثّر فجأة فقفز وإذا به يجد نفسه في باحة صغيرة مليئة بأجزاء مختلفة من قمر متنوع. في تلك الليلة كانت كلمة السر: الصمت فيردُّ الجندي عند البوابة على صمت سينسينات بالصمت، ثم يسمح له بالعبور، وهذا ما كان يتكرر عند جميع البوابات الأخرى. بعد أن ترك خلفه القلعة الهائلة المظلمة، انزلق نحو الأسفل عبر درب

معشوشبة نديّة وحادة، فوصل إلى ممر رمادي يمتد بين الصخور، فاجتاز مرتين، أو ثلاث مرات المنعطفات الرئيسية للطريق التي نفضت أخيرًا عن نفسها آخر ظلٍّ للقلعة، فأصبحت أكثر استقامة وأكثر حرّية ومن ثم عَبَرَ سينسينات جسرًا مزخرفًا فوق نهر بات جافًّا، ودخل إلى المدينة. صعد إلى أعلى تلٍّ ثم استدار نحو اليسار باتجاه الطريق الدائرية، سار بمحاذاة سياج من الشجيرات المزهرة الرقشاء. لاحت في مكان ما نافذة مضيئة؛ كما قعقع كلب مربوط إلى سلسلة في مكان ما ولكن دون أن ينبح. بذَلَ النسيمُ أقصى طاقته لكي ينعش الرقبة العارية للسجين الفار. من حين لآخر كان يتدفق تيارٌ لأريج يشي بالاقتراب من حدائق تامارا((12)). كم كان يهوى زيارة تلك الحدائق! هناك حين كانت مارفينكا خطيبته وكانت تخاف الضفادع والجعلان... هناك، حيث كان يحدث أن يصبح كل شيء لا يُحتَمَل، وحيث كان يمكن لأحدٍ ما، مع عصيدة في الفم من زهرة الليلك الممضوغ، ومع الدموع... ذلك «الهناك» الأخضر والذي تغطيه بثور سوداء، تلك التلال هناك وبرك الماء الواهنة، وذلك الصوت الرتيب لأوركسترا بعيدة... انعطف باتجاه زقاق ماتوخينسكي بالقرب من أطلال معمل قديم، فخر المدينة، بمحاذاة أشجار الزيزفون المتهامسة، ومن أمام البيوت الفاخرة للعاملين في مؤسسة البرق والهاتف، تلك الفيلات البيضاء والمضبوطة على أجواء الفرح والاحتفال والمنشغلة دومًا باحتفالات أعياد الميلاد لأشخاص ما، ومن ثم خرج بعد ذلك إلى شارع تلغرافنايا. من هناك كان ثمة شارع ضيّق يصعد نحو الجبل، حيث راحت أشجار الليلك تضج من جديد. كان ثمة رجلان يتحدّثان بصوت منخفض في الظلام على مقعد مزعوم في حديقة صغيرة. «للعلم، إنه يرتكب خطأً» قال أحدهما. فأجابه الثاني بكلام غير واضح، ومن ثم كما لو أنهما تنهّدا واندمجا بشكل طبيعي مع خشخشة الورق. خرج سينسينات راكضًا إلى الساحة الدائرية حيث كان القمر يحرس تمثالاً معروفًا للشاعر شبيهًا بالمرأة الثلجية برأس مكعب الشكل وبرجلين متلاصقتين وبعد أن تابع جريَه لبضع خطوات أخرى وجد نفسه في الشارع الذي يقطن فيه. من جهة اليمين، كانت الظلال القمرية للأغصان تتراقص بأشكال مختلفة على جدران البيوت المتشابهة، بحيث إنّ سينسينات استطاع أن يتعرّف على بيته لا من خلال شكل الظل وحسب، بل ومن خلال الثنيات الموجودة على الفواصل بين النوافذ. كانت النافذة

في غرفة مارفينكا في العلية مظلمة ولكنها مفتوحة. كان الأطفال، كما يُفتَرض، نائمين على البلكون المحدّب: كان ثمة شيء أبيض يلوح من هناك. دخل سينسينات راكضًا إلى المدخل، دفع الباب وولج إلى زنزانته المضاءة. استدار ولكنه اكتشف أن الباب أغلق خلفه. يا للهول! كان ثمة قلم رصاص يلمع على الطاولة. وكان العنكبوت يتصدّر الجدار الأصفر.

أطفئوا الضوء صاح سينسينات

أطفأ الحارس الذي كان يراقبه من خلال العين السحرية الضوء. بدأ الظلام يتّحد مع الصمت؛ ولكن ساعة الحائط تدخلت ودقّت مشيرة إلى الحادية عشرة، ثم فكّرت للحظة ودقّت مرة أخرى، فاستلقى سينسينات على ظهره وراح يحدّق في الظلمة، حيث راحت نقاط متلألئة تتناثر لتعود وتتلاشى بالتدريج. حصل اندماج كامل بين الظلمة والصمت. وعندئذ، عندئذ فقط (أي عندما كان سينسينات مستلقيًا على ظهره على سرير السجن، كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، بعد يوم رهيب ومرعب، وبحيث إنه لا يمكنني أن أشرح كم كان يومًا رهيبًا) أدرك سينسينات وضعه بشكل كامل تمامًا.

ظهر في البداية وجهُ مارفينكا، مثل ميدالية، على مخمل ناعم أسود أشبه بذاك الذي تكون الأجفان مطوّقة به من الأسفل في الليالي: خدّان حمراوان كما عند دمية وجبين لامع مع بروز طفلي، حاجبان علويان غير كثيفين يتوضعان عاليًا فوق عينين دائريتين عسليتَين. راحت تغمز بعينيها وهي تدير رأسها، وقد لاح على رقبتها الليّنة المُدهِنة مخمل ناعم أسود، بينما راح الصمت المخملي للفستان يزداد اتساعًا في الأسفل ويتّحد مع الظلام. هكذا رآها الآن وهي وسط الجمهور، حين قادوه إلى مقعد للمحكومين تمَّ طلاؤه حديثًا وقد تردّد في الجلوس عليه، فظلَّ واقفًا إلى جانبه، لكنه مع ذلك لطّخ يديه باللون الأخضر الزمرّدي، ما جعل الصحفيين يتعطشون لتصوير بصمات أصابعه التي بقيت على ظهر المقعد. رأى جباههم المتوترة، كما رأى السراويل ذات الألوان الفاقعة للرجال المتأنقين، ورأى المرايا اليدوية وشالات بهيجة بألوان قوس قزح لدى السيّدات المتأنقات بيدَ أنَّ الوجوه لم تكن واضحة وحدها مارفينكا بعينيها الدائريتين بقيت في ذاكرته من بين جميع الحاضرين. كان المحامي والقاضي اللذان تمَّ طلاء وجهيهما بالمساحيق لكي يكونا متشابهين جدًّا مع بعضهما (كان القانون يطلب بأن يكونا أخوَين غير شقيقين، لكن ذلك لم يكن متاحًا تأمينه بصورة دائمة، ولهذا السبب كانوا يضطرون لطلاء وجهيهما بحيث يصبحان متشابهين)، ينطقان بسرعة بارعة تلك الخمسة آلاف كلمة التي كانت تحق لكلٍّ واحد منهما. كانا يتحدثان بالتناوب، وبحيث إنَّ القاضي وهو يتتبع ردود الأفعال السريعة، راح يهزّ رأسه يمينًا وشمالاً، ومعه كانت تهتز رؤوس جميع الحاضرين بطريقة متناغمة وحدها مارفينكا كانت تجلس بلا حراك وقد انحرفت بعض الشيء إلى جانب مثل طفل أصيب بالدهشة، وهي تحدِّق في سينسينات الذي كان واقفًا إلى جانب المقعد المطلي باللون الأخضر فأصبح أشبه بمقعد في الحديقة. أما المحامي الذي كان من أنصار الطريقة التقليدية في قطع الرأس، فقد ربح بسهولة

كبيرة ضد المدّعي العام المرح والمتآمر، ما دفع بالقاضي إلى تدبير توليفة للقضية.

راحت مقتطفات من تلك الخطابات التي كانت بعض المفردات فيها مثل «شفافية» و«عدم النفاذ» أشبه بفقاعات ماء وهي تتدحرج وتنفجر، تتردد في أُذُني سينسينات، وقد تحوّل ضجيج الدم إلى تصفيق حار، في حين أنَّ وجه مارفينكا الشبيه بالميدالية ظلَّ ماثلاً في حقل نظره ولم يبهت إلاّ عندما قام القاضي، وقد اقترب منه إلى درجة كبيرة جدًّا بحيث إنه بات بمقدوره رؤية المسامات المتوسعة على أنفه الضخم، وحيث أطلق أحد تلك المسامات الموجود في مقدمة الأنف شعرة وحيدة ولكنها طويلة بالإعلان بهمس خام: «من بعد إذنكم اللطيف أيها الجمهور، سوف يتم إلباسه قبعة عالية أسطوانية حمراء» هذه عبارة صورية مستنبطة بقوة القانون كان يعرف المعنى الحقيقي لها كل تلميذ في المدرسة.

«أمّا أنا فإني مُصمَّمٌ بشكل رائع ودقيق راح سينسينات يقول في نفسه وهو ينتحب في الظلام انحناءة عمودي الفقري مدروسة بشكل حاذق وملغز. كما أنّي أحسُّ في ربلتيَّ بعدد هائل من الفراسخ المضغوطة بقوّة والتي كان يمكنني أن أجتازها جريًا أثناء حياتي. رأسي مناسب إلى أبعد حد...»

دقّت الساعة معلنة عن توقيت النصف من دون معرفة نصف أي ساعة من الوقت.

II

كانت الجرائد الصباحية التي أحضرها له روديون مع فنجان من الشوكولاتة الساخنة الصحيفة المحلية «صباح الخير» والجريدة الأكثر رصانة وجدّية «صوت الجمهور» تعجُّ بالصور الملوّنة، كما هي العادة. وقد وجد في الأولى صورة لواجهة بيته: كان الأطفال ينظرون من شرفة البلكون، بينما حموه ينظر من نافذة المطبخ، كما كان المصوِّر ينظر من نافذة مارفينكا؛ أما الجريدة الثانية فقد عثر فيها على: صورة لمنظر معروف له من تلك النافذة يطل على بستان التفاح، والبوابة مفتوحة وهيئة المصوِّر حين كان يصوِّر واجهة البيت. فضلاً عن ذلك، عثر على صورتين له نفسه ترسمانه في مرحلة يفاعته.

وُلِد سينسينات من رجل عابر غير معروف وأمضى طفولته في نزْل صغير خلف حي ستروب (وفي عقده الثالث فقط تعرّف وعن طريق الصدفة إلى تسي. سيسيليا الثرثارة والنحيلة التي كانت تبدو أصغر من عمرها، والتي حملت به ليلاً في منطقة البحيرات حين كانت ما تزال بنيّة فتيّة). وإذ فطن سينسينات منذ نعومة أظفاره بطريقة عجيبة إلى وجود خطر كامن، فقد راح يتفنن لكي يُخفي بعضًا من خصوصيته. لم يكن يسمح لأية أشعة غريبة باختراقه، ولذلك كان يبدو في حالة سكون تاركًا انطباعًا متوحشًا بأنه عائق وحيد مظلم وقاتم في ذلك العالم من الأرواح الشفافة بالنسبة لبعضها البعض، ومع ذلك اكتسب مهارة التظاهر بأنه منفتح لشتى أنواع الرياح، ولهذا الغرض لجأ إلى اعتماد منظومة معقدة من الخدع البصرية كما كانت تبدو، ولكن كان يكفي أن يسهو للحظة وأن يغفل ولو بعض الشيء عن حذره وعن مراقبته لنفسه، ولانعطافات المستويات التي جرت إنارتها بطريقة حاذقة من الروح، لكي يطلّ القلق برأسه لديه على الفور. كان أقرانه في حمى الألعاب المشتركة ينفضّون عنه بشكل مباغت، كما لو أنهم أحسّوا حرفيًّا بأن غموض نظرته علاوة عن زرقة الصدغين عنده عبارة عن اعتراض أو شذوذ ماكر وأنَّ سينسينات في حقيقة الأمر غير قابل للاختراق نهائيًّا. حدث أنَّ المدرّس وسطَ الصمت السائد، وقد جمع وجعّد كامل مخزون الجلد حول عينيه للتعبير عن ذهوله المثير للحنق والأسى، راح يحدّق إليه مطوّلاً ليسأله في نهاية المطاف:

ما الذي حصل لك، يا سينسينات؟

عندئذ كان سينسينات يلمُّ أذياله ويضغطها إلى صدره ليحملها إلى مكان آمن.

راحت الأماكن الآمنة تصبح مع مرور الوقت قليلة أكثر فأكثر، إذ راحت الشمس اللطيفة للاهتمامات الحاشدة تسود وتهيمن في كلِّ مكان، وقد كانت ثمة نافذة صغيرة في الباب بحيث لم تبقَ نقطة واحدة في الزنزانة بأكملها إلاّ وكان المراقب من خلف الباب قادرًا على الوصول إليها. لذلك لم يقم سينسينات بتجميع الجرائد الملونة في كرة ولم يرمِها بعيدًا كما كان يفعل ظلُّه (ذلك الظلُّ الذي يرافق كلَّ واحدٍ منا يرافقك ويرافقني ويرافقه هو أيضًا والذي يقوم في لحظة محددة بفعل ما كان واحدنا يتمنى أن يفعله ولكن لا يجوز فعله...). قام سينسينات بتنحية الجرائد جانبًا بهدوء ثم أكمل شرب الشوكولاتة الساخنة. تحوّلت الرغوة التي كانت تغطّي سطح الشوكولاتة إلى سقط متاع متغضن على الشفة. ثم قام سينسينات بارتداء المعطف الأسود الذي كان طويلاً جدًّا بالنسبة له، وارتدى حذاءً أسوَدَ مع كرات صوفية وقلنسوة سوداء ثم راح يتمشى في الزنزانة كما كان يفعل كلَّ صباح منذ اليوم الأول لدخوله السجن.

أمضى طفولته في المروج الخضراء في ضواحي المدينة. حيث كان يلعب الكرة، وألعاب «الخنزير»، ولعبة البعوض، ولعبة القفز، وأيضًا لعبة اللصوص وفي لعبة الدفع... كان سريعًا وحاذقًا، ولكن أقرانه لم يكونوا يحبّون اللعب معه. وفي الشتاء كان الثلج يغطي منحدرات المدينة فتصبح ملساء، لذلك كان الأولاد يشعرون بالبهجة وهم ينزلقون نحو الأسفل على زلاجات «زجاجية» من ماركة صابوروف... كم كان الظلام يحلُّ بسرعة حين كانوا يعودون من التزلج إلى البيوت... وأيّ نجوم كانت ففي الأعلى كان ثمة معنى وحزن، دون أن تعرف شيئًا عما في الأسفل. كانت النوافذ الصالحة للأكل تشتعل بالضوء الأصفر والأحمر في العتمة المعدنية الجليدية؛ كانت النساء في معاطف من فراء الثعلب فوق فساتين من الحرير يجْتزْنَ الشارع راكضات من بيتٍ إلى بيت؛ كما كانت القطارات الكهربائية الصغيرة تجري مسرعة على السكك الحديدية المغطاة بطبقة رقيقة من الثلج وهي تثير للحظةٍ زوبعةً ثلجية متألقة.

دوّى صوت: «أركادي إيلييتش، انتبه إلى سينسينات...»

لم يكن يحنق على الوشاة، ولكن أعداد هؤلاء بدأت تتضاعف وراحوا يصبحون مخيفين بعد أن قويت شوكتهم. كان سينسينات في حقيقة الأمر يبدو قاتمًا بالنسبة لهم أشبه بقطعة من ساجِن((13)) مكعب من الليل، وحيث إنه كان يلفّ ويدور هنا وهناك محاولاً التقاط الأشعة، وهو يسعى على عجل لكي يبدو

ناقلاً للضوء. كان المحيطون يفهمون بعضهم بعضهم من الإشارة لأنه لم تكن توجد لديهم مثل تلك الكلمات التي كان يمكن لها أن تنتهي بطريقة مفاجئة، كعقوبة((14))، ربما، تتحول إلى سوط أو إلى طير، مع عواقب مذهلة. وفي متحف صغير مليء بالغبار، يقع في البولفار الثاني، حيث قادوه ذات يوم في طفولته وحيث راح يقود أبناءه فيما بعد، كان قد تمَّ جمع أشياء نادرة وبديعة بيدَ أنَّ كلّ شيء
كان بالنسبة لجميع سكان المدينة، باستثنائه هو، محدودًا وشفافًا أيضًا مثلما كانوا هم أنفسهم بالنسبة لبعضهم البعض. فكل ما ليس له اسم لا وجود له. ولكن كلَّ شيءٍ، للأسف، كان يحمل اسمًا.

«الوجود بلا اسم، والجوهر غير مادي...» قرأ سينسينات على الحائط حيث كان الباب يحجب الجدار عندما يُفتَح.

«أيها السعداء دائمًا، كنت سأرسلكم...» كان مكتوبًا في مكان آخر.

وإلى اليسار قليلاً، كان مكتوبًا بخطٍّ متسرّع وأنيق، من دون أيّ سطر إضافي: «لاحظوا، أنهم عندما يتحدثون معكم...» بعد ذلك كان الكلام ممحوًّا، للأسف.

وبجانب تلك الكتابة بحروف طفلية عوجاء: «سوف يقومون بتغريم الكتّاب» والتوقيع: مدير السجن.

كما كان من الممكن تمييز وقراءة سطر واحد آخر قديم وملغّز: «موتوا قبل الموت وإلاّ فسوف يكون الوقت متأخرًا فيما بعد».

أمّا أنا فقد قاموا بقياسي، على أية حال قال سينسينات وانطلق في مسيره وهو ينقر بأصابع يده على الجدران بقوة خفيفة ولكني، بالمناسبة، كم أتمنى ألا أموت! لقد دفنت الروح نفسها في الوسادة. آه، كم لا أريد! سوف تشعر الروح بالبرد وهي تخرج من الجسد الدافئ. لا أريد، تريّثوا، دعوني أغفو لبعض الوقت.

كان عمر سينسينات اثنتي عشرة سنة، ثلاث عشرة، أربع عشرة سنة عندما بدأ يعمل في ورشة لصناعة الدمى، حيث تم قبوله للعمل بسبب قصر قامته. أما في الأماسي فَكان يستمتع بالكتب القديمة على وقع طبطبة كسولة آسرة لموجة صغيرة في المكتبة العائمة التي تحمل اسم الدكتور سينيوكوف الذي

كان قد غرق في ذلك المكان من نهر المدينة. دمدمة السلاسل ودفق الموج، وأغطية المصابيح الصفراء في البهو، ثم رذاذ الماء، وسطح الماء الذي يبدو لزجًا في ضوء القمر وتلك الأضواء المتلألئة هناك في البعيد، في شبكة العنكبوت السوداء للجسر العالي. بيدَ أنَّ تلك المجلدات الثمينة راحت تفسد بسبب الرطوبة، بحيث إنهم اضطروا فيما بعد إلى تجفيف النهر، عن طريق تحويل كامل مياه النهر إلى منطقة ستروب بواسطة قناة تمَّ شقّها خصيصًا من أجل ذلك.

حين كان يعمل في ورشة لصناعة الدمى، كان يمضي وقتًا طويلاً في العمل مع أشياء سخيفة معقّدة، كما كان يقوم بتصنيع دمى ليّنة من أجل تلميذات المدارس وكان من بين هذه الدمى دمية بوشكين ضئيل الحجم والمشعر في البقيش((15))، وأيضًا غوغول الذي يشبه الجرذ في صدريته اللامعة المزخرفة، والعجوز تولستوي ذو الأنف الغليظ، في قفطانه، والعديد غيرهم، مثل: دوبرولوبوف وقد زرَّ جميع الأزرار وفي نظارات من دون عدسات. وإذ شُغِف سينسينات بطريقة مصطنعة بذلك القرن التاسع عشر الأسطوري، فقد كان مستعدًّا لأن يتعمّق إلى حدٍّ بعيد في سديم ما هو قديم وأن يجد فيه مأواه المزيّف، بيدَ أنَّ أمرًا آخر لفتَ انتباهه.

وهناك أيضًا، في نفس ذلك المصنع، كانت تعمل مارفينكا كانت تسدِّد بطرف الخيط إلى ثقب الإبرة مبقية شفتيها نصف مفتوحتين: «مرحبا، سينسيناتيك((16))!» وهكذا انطلقت التسكعات المُسكِرة في رحابات حدائق تامارا الواسعة جدًّا جدًّا (لدرجة أنه حدث أنّ التلال البعيدة كانت تصبح مُدخَّنة بفعل الهناءة من بعدها)، حيث كانت أشجار الصفصاف تنتحب في ثلاثة جداول من دون سبب، وحيث كانت ثلاثة شلالات ومع قوس قزح فوق كلِّ واحد منها، تتساقط في البحيرة التي تسبح فيها البجعة يدًا بيد مع انعكاسها. مروج مستوية، أجمة من الردندرة((17))، أدغال من أشجار البلوط، جنائنيون مرحون في جزمات خضراء وهم يلعبون طوال النهار في لعبة الاستخباء؛ وربما خلدٌ ما، ومقعد شاعري((18)) كان قد ترك عليه ثلاثة أشخاص مهرّجين ثلاث كومات منتظمة (خدعة شيء مزيّف مصنوع من القصدير البني المطلي) وربما خشفٌ ما خرج راكضًا إلى الممشى وإذا به يتحول أمام عينيك إلى بقع راجفة لأشعة الشمس هذا ما كانت تبدو عليه تلك الحدائق! هناك، بالضبط هناك ثرثرة مارفينكا، وساقاها في جورَبَين أبيضَين وفي حذاء قصير من المخمل، صدرها البارد وقبلات وردية بطعم التوت البرّي. كم كان لطيفًا لو أنه كان بإمكاننا أن نرى من هنا قمم الأشجار على الأقل، أو حتى سلسة الهضاب البعيدة...

حزَمَ سينسينات المعطف بقوّة، ثم دفع الطاولة وشدّها وهو يصرخ من الحنق: كم إنه لا يريد، كم كانت تشنجات الطاولة قوية وهي تنزلق على الأرضية الحجرية، لتنتقل تشنجاتها إلى أصابع سينسينات، وإلى حنك سينسينات الذي تراجع نحو النافذة (أي نحو ذلك الجدار حيث كان يوجد عاليًا، عاليًا جدًّا تجويف النافذة خلف شبكة). سقطت ملعقة بصخب، وبدأ يتراقص فنجان، كما تدحرج قلم الرصاص، وانزلق كتاب فوق كتاب. قام سينسينات برفع الكرسي ووضعه على الطاولة. ثم تسلّق هو نفسه. ولكن لم يكن ممكنًا أن يرى أي شيءٍ بكل تأكيد سماء حارقة فقط في مناطق مسرّحة بشكل أنيق ودقيق خالية من السحب التي لم تستطع أن تتحمّل الزرقةَ. استطاع سينسينات بصعوبة أن يطال الشبك الذي كان يمتد خلفه صاعدًا بطريقة منحرفة نفق النافذة مع شبكة أخرى في نهايته ومع انعكاس ضوئي لها على الجدار المتقشر للوسادة الحجرية. هناك، على أحد الجوانب، وبنفس الخط الجميل والمليء بالازدراء، كتبت عبارة من تلك العبارات شبه الممحوة والتي سبق أن قرأها قبل
لحظات وحسب: «لا يمكن رؤية أي شيء، وقد حاولتُ أنا أيضًا». كان سينسينات واقفًا على رؤوس أصابعه وهو يمسك بيديه الصغيرتين اللتين أصبحتا بيضاوين تمامًا بسبب التوتر، بقضبان الحديد السوداء للنافذة، وقد أصبح نصف وجهه في الشبكة المشمسة للنافذة، ما جعل شاربه الأيسر يلمع بلون الذهب، وبحيث إنه كان ثمة خلية واحدة ذهبية في كل حدقة من عينيه العاكستين، بينما في الأسفل، في حين أنَّ عقبَي قدميه في الأسفل ومن الخلف كانا قد خرجا من الحذاء الواسع جدًّا بالنسبة له.

انتبه وإلاّ فقد تسقط قال روديون الذي كان قد مضى على وقوفه خلف سينسينات حوالي دقيقة وهو يقبض بقوّة على قائمة الكرسي التي راحت يهتز ولكن لا بأس، لا بأس، فأنا أمسك بالكرسي. يمكنك أن تنزل.

كانت عينا روديون زرقاوين بلون زهرة القرنفل، كما كانت لحيته شقراء فاتنة كالعادة. كان ذلك الوجه الروسي الجميل متجهًا إلى الأعلى، نحو سينسينات الذي داس عليه بقدم عارية، أي أن طيفه هو الذي داس عليه؛ أمّا سينسينات بالذات فكان قد نزل عن الكرسي إلى الطاولة. قام روديون باحتضانه مثل طفل وأنزله بكل تأنٍّ ثم دفع الطاولة بعد ذلك إلى مكانها السابق مع صوت شبيه بصوت الكمان، ومن ثم جلس على حافتها وراح يؤرجح قدمَه التي كانت مرتفعة في الهواء، بينما استند بالقدم الثانية على الأرض أي اتخذ وضعية زائفة متحررة لهواة الأوبرا في مشهد القبو((19))، في حين راح سينسينات يلعب بحزام الرداء وقد أخفض عينيه محاولاً ألا يبكي.

راح روديون يغنّي بصوت جهوري خفيض وهو يلعب بعينيه ويلوِّح بالكأس الفارغة. وهذه الأغنية بالتحديد كانت تردّدها مارفينكا فيما مضى. نفرت الدموع من عينَي سينسينات. وعند بلوغه نغمة معينة عالية جدًّا قام روديون برمي الكأس إلى الأرض بقوّة وقفز عن الطاولة. بعد ذلك راح يغنّي كما لو أنه جوقة بالرغم من كونه وحيدًا. فجأة رفع إلى الأعلى كلتا يديه وخرج من الزنزانة.

أما سينسينات فقد جلس على الأرض وراح ينظر من خلال الدموع نحو الأعلى حيث كان انعكاس الشبكة قد غيّر مكانه. جرّب أن يحرّك الطاولة للمرة المائة ولكن قوائمها كانت، للأسف، مثبتة منذ زمن طويل. التهَمَ ثمرة عنب ومن ثم راح يتمشى في الزنزانة من جديد.

تسع عشرة سنة، عشرون، واحدة وعشرون. في عمر اثنتين وعشرين سنة تمَّ نقله إلى روضة للأطفال كمعلّم من الدرجة F، وعندئذ تزوج من مارفينكا. وفي نفس اليوم تقريبًا الذي باشر فيه مهامه الجديدة (التي كانت تتلخّص بأن يهتمَّ بالمصابين بالعرج وبمن يعانون من حدبة في الظهر وحوَل في العينين) قامت شخصية بارزة بتقديم وشاية ضده من الدرجة الثانية. إذ طرحت فكرة بصورة حذرة، في صيغة افتراضية، تتعلق بالسمة غير العلنية لسينسينات. وبالتوازي مع تلك المذكّرة، قام المسؤولون في المدينة بمراجعة شكاوى قديمة سبق أن أرسلها لهم في أوقات متقطعة رفاقه الأكثر فطنة وحصافة ممن كانوا يعملون معه في مصنع الدمى. راح رئيس المجلس التربوي وبعض المسؤولين الآخرين يجتمعون به بالتناوب، حيث قاموا بإخضاعه لبعض الاختبارات المقررة وفقًا للقانون. لم يسمحوا له بالنوم على مدى بضعة أيام، وأرغموه على القيام بثرثرة سريعة لا تحمل أي معنى كادت تبلغ ذروة الهذيان، كما أجبروه على كتابة خطابات موجهة إلى مختلف المواد والظواهر الطبيعية، وأن يقوم بتمثيل مختلف المشاهد والأدوار الحياتية اليومية، وأن يقلِّد مختلف الحيوانات ويحاكي حِرفًا وأصحاب عاهات مختلفة. وقد قام بتنفيذ ما طلب منه واجتاز كل ذلك بنجاح لأنه كان فتيًّا وحاذقًا، كما كان مرنًا ومتعطشًا للحياة وأن يعيش بعض الوقت مع مارفينكا. أطلقوا سراحه على مضض منهم، وسمحوا له بمتابعة العمل مع الأطفال من الدفعة الأخيرة الذين لم يكونوا يشعرون بالأسف تجاههم لكي يروا ما الذي يمكن أن ينتج من ذلك. كان يقود الأطفال للتنزّه أزواجًا، وهو يعزف لهم على صندوق موسيقي صغير محمول أشبه بمطحنة القهوة وفي أيام الاحتفالات كان يتأرجح معهم في الأراجيح: كانت المجموعة بأكملها تتجمد من الدهشة وهي تطير عاليًا ومن ثم تصفّر في أثناء هبوطها. كما قام بتعليم بعضهم القراءة.

وللعلم، بدأت مارفينكا خياناتها منذ السنة الأولى لزواجهما: مع أي شخص كان وفي أي مكان كان. كانت في العادة، عندما يعود سينسينات إلى المنزل، تقول له بصوت خفيض أقرب إلى هديل الحمام، مع ابتسامة تتسم بالشبع تعلو وجهها وهي تضغط ذقنها السمين إلى عنقها، كما لو أنها توبّخ نفسها: «لقد فعلتْ مارفينكا ذلك مرة أخرى». كان ينظر إليها لبضع ثوانٍ وهو يضع راحة يده على خدِّه مثلما تفعل النساء، ومن ثم يغادر بلا أي صوت عابرًا جميع الغرف ليحبس نفسه في غرفة الحمّام حيث كان يضرب الأرض بقدميه ويضجُّ بالماء، يسعل ويتظاهر بأنه ينتحب. وفي بعض الأحيان كانت تشرح له كنوع من التبرير: «ولكنك تعرف كم أنا طيّبة: هذا أمر تافه، بينما يشعر الرجل بالراحة».

سرعان ما حبلت وليس منه. ولدت صبيًّا، ولكنها حبلت على الفور مرة أخرى ومن جديد ليس منه وولدت ابنة. كان الصبي مصابًا بالعرج وشريرًا؛ أما الابنة السمينة والبلهاء فكانت عمياء تقريبًا. وقد وجد الطفلان نفسيهما عنده في الروضة بسبب عيوبهما، فكان مثيرًا للدهشة أن يرى المرء مارفينكا الحاذقة والحسناء نوعًا ما ومع وجنتين متوردتين
وهي تقود إلى البيت ذلك الطفل المعاق، وتلك الطفلة الأشبه بخزنة مكتب صغيرة. راح سينسينات بالتدريج يمتنع عن الاهتمام بنفسه بصورة نهائية وفي أحد الأيام، خلال اجتماع مفتوح في حديقة المدينة، أحس فجأة بقلق مباغت، وصاح أحدهم بصوت عالٍ: «أيها المواطنون، يوجد بيننا...» ودوّت كلمة رهيبة كانت قد أصبحت شبه منسية وهبّت رياح على أشجار الأكاسيا ولم يجد سينسينات شيئًا أفضل من أن يقوم ويغادر، حيث راح يقطف بطريقة ساهية الأوراق عن الشجيرات على جانب الطريق. وبعد مرور عشرة أيام تم إلقاء القبض عليه.

«ربما، غدًا» قال سينسينات وهو يتحرك في الزنزانة بخطوات بطيئة. «على الأرجح، غدًا» قال سينسينات وجلس على السرير وبدأ يفرك جبينه بيده. راح شعاع الغروب يكرِّر مفاعيله المألوفة. «غالبًا، في يوم غد قال سينسينات مع زفرة كان الهدوء سيّد الموقف في هذا اليوم، وغدًا سوف يجري كلُّ شيء في وقت مبكر...»

ظلَّ الجميع صامتين لبعض الوقت: إبريق الماء المصنوع من الفخّار مع قليل من الماء في أسفله والذي قام بسقاية جميع سجناء العالم؛ الجدران وقد ألقت بأيديها على أكتاف بعضها البعض مثل أربعة أشخاص راحوا يناقشون

سرًّا مربّع الشكل بصوت خافت؛ والعنكبوت المخملي الذي يشبه مارفينكا في شيء ما؛ والكتب الكبيرة والسوداء على الطاولة...

«يا له من سوء تفاهم!» قال سينسينات ثم بدأ يقهقه فجأة. نهض ونزع الرداء والقبعة الأسطوانية والحذاء. نزع بنطلونه الكتاني وقميصه. نزع رأسه مثلما يُنزع الشعر المستعار، ونزع عظمي الترقوة مثلما يُنزع حزام، ثم نزع القفص الصدري كما لو أنه درع. نزع الفخذين والساقين، نزع يديه ورماهما كما لو أنهما كُمّان، في زاوية مهملة. راح ما تبقى منه يتلاشى بالتدريج، مُضفيًا على الهواء بعض التلوّن الطفيف. راح سينسينات يستمتع في البداية بالرطوبة المنعشة؛ ثم راح يشعر بالمرح وبالحرّية بعد أن غرِق في محيطه الغامض بالكامل.

وإذ بالمزلاج الحديدي يقعقع بصوت قوي، فقام سينسينات على الفور، بسرعة البرق بارتداء كل ما كان قد نزعه بما في ذلك القبعة الأسطوانية. أحضر السجّان روديون دزينة من الخوخ بلون القش في سلّة مستديرة مفروشة بأوراق العنب عبارة عن هدية من زوجة مدير السجن.

يا سينسينات، لقد أنعشك التمرين الإجرامي الذي قمتَ به.

III

استيقظ سينسينات بسبب دويٍّ مرعب لأصوات راح يتصاعد في الممر.

وعلى الرغم من أنه كان قد جهّز نفسه عشية ذلك اليوم لمثل هذا الاستيقاظ، فإنَّ الأمر لم يكن على ما يرام مع قلبه ومع تنفسه. قام بتغطية القلب بطرف الرداء لكيلا يرى هكذا سيكون أكثر هدوءًا، ولا بأس (هذا ما يقولونه للطفل في لحظة وقوع مصيبة غير معقولة) وإذ غطّى القلب ونهض قليلاً، بدأ سينسينات يصيخ السمع. كان ثمة صوتُ جرجرةٍ لأقدام كثيرة، وبمستويات مختلفة من القابلية للسمع؛ كما كانت هناك أصوات من درجات متعددة من الحِدّة؛ وقد انهمر أحدها متسائلاً، بينما كان صوت آخر، أكثر قربًا، يجيب بمسؤولية؛ ركض أحد الأشخاص قادمًا من عمق الممر وراح ينزلق على الأرضية الحجرية كما لو أنها من الجليد. سمع صوت مدير السجن الجهوري وهو يقول بضع كلمات وسط الضجيج لم تكن مفهومة، لكنها كانت ذات نبرة آمرة من دون أدنى شك. والأكثر رعبًا هو أنَّ صوتًا طفوليًّا اخترق ذلك الصخب كانت ثمة ابنة لمدير السجن. كما استطاع سينسينات أن يميّز الصوت الصادح لمحاميه وغمغمة روديون... ومن جديد، طرح أحدهم سؤالاً بصوت مرتفع جدًّا على عجل، وأعطى آخر إجابة مدوّية أيضًا. كان هناك تأوّه وفرقعة وضجيج ناتج عن طرْقٍ متواصل كما لو أن أحدًا راح يبحث عن شيء ما تحت أريكة طويلة بواسطة عصا. سأل مدير السجن بنبرة واضحة: «ألم تعثروا؟». انطلقت خطوات وراحت تعدو. ركضت، ثم عادت أدراجها. أنزل سينسينات رجليه على الأرض وهو يشعر بالوهن وبانهيار قواه: وهكذا لم يسمحوا بلقاء مع مارفينكا... هل يجب عليَّ أن أبدأ بارتداء اللباس المناسب، أم أنهم سوف يأتون ويقومون بإلباسي بأنفسهم؟ آه، كفى، هيا ادخلوا...

بيدَ أنهم استمروا في تعذيبه لدقيقتَين اضافيتين. فجأة فُتِح الباب، وإذا بالمحامي يدخل بسرعة كبيرة.

كان أشعث الشعر ويتصبب عرقًا. راح يعبث بالكمِّ الأيسر لقميصه، كما كانت عيناه تدوران...

لقد أضعتُ زرَّ الكمّ صاح على عجل وهو يلهث مثل كلب يبدو أني علِقتُ بشيءٍ ما... على الأرجح بالستائر... عندما كنت مع إمّوتشكا((20)) الرقيقة... فهي فتاة لعوِبٌ وعابثة كعادتها... ففي كلِّ مرّةٍ أزورها... سمعتُ، وهذا هو

المهم، كيف أنَّ شيئًا ما... ولكني لم أكترث... انظر، السلسلة على ما يبدو... لطالما كان الزرُّ عزيزًا عليَّ... ولكن ليس باليد حيلة... ربما، يمكن فيما بعد... لقد قطعتُ وعدًا لجميع الحرّاس... ولكن للأسف...

خطأ غبي ومثير للنعاس قال سينسينات بصوت خافت لقد أسأتُ تفسير الجلبة غير المبررة. وهذا أمر يضرُّ بالقلب.

شكرًا، إنها أشياء تافهة غمغم المحامي مشتت الذهن. وفي الوقت نفسه كان يجوب بعينيه زوايا الزنزانة. كان واضحًا أنه يشعر بالأسى لفقدانه شيئاً عزيزًا عليه. كان واضحًا ذلك. لقد كدّره فقدان ذلك الشيء. إذ كان الزرّ ثمينًا. كان محبطًا بسبب فقدانه هذا الشيء. قام سينسينات بالاستلقاء من جديد في السرير وهو يئنّ بصوت ضعيف. أما المحامي فجلس على حافة السرير عند قدميه.

لقد قصدتُك قال المحامي وأنا بحالة نشطة ومرحة... أما الآن فقد كدّرني ذلك الأمر التافه إذ إنّ هذا الأمر تافه في نهاية المطاف، ولا بد أن توافقني الرأي وهناك أشياء أكثر أهمية. بالمناسبة، كيف حالك، كيف تشعر بنفسك؟

ميّالاً للحديث المفتوح أجاب سينسينات وهو يغطّي عينيه أريد أن أشاطرك بعض استنتاجاتي العقلية. أنا محاط بأشباح بائسة وليس بالبشر. وهي تعذّبني بنفس الدرجة التي يمكن أن تعذّب بها الرؤى الحمقاء فقط، أو الأحلام المزعجة وقاذورات الهذيان، وأبشع الكوابيس وكل ما يحدث معنا في الحياة. من الناحية النظرية كنت أتمنى أن أصحو. ولكني لا أستطيع أن أصحو من دون مساعدة من قبل أحد ما آخر، وأنا أخاف من تلك المساعدة إلى أبعد حدٍّ ممكن، ثمَّ إنَّ روحي أصبحت كسولة وقد اعتادت على أقمطتها الضيّقة. ومن بين جميع الأشباح التي تحيط بي، تبقى أنت، يا رومان فيساريونوفيتش، الأكثر وضاعة وبؤسًا، ولكن من ناحية أخرى حسب حالتك المنطقية في واقعنا المتخيَّل تُعتبَر بطريقة ما مستشارًا ومنافحًا...

أنا في خدمتك قال المحامي مبتهجًا لأنَّ سينسينات أصبح طليق اللسان في نهاية الأمر.

وأنا أريد أن أسألك: على أي أساس يقوم الرفض بإعلامي بشكل دقيق عن يوم تنفيذ حكم الإعدام؟ انتظر، فأنا لم أُنهِ كلامي بعد. إنّ الشخص الذي

يُدعى مديرًا يتقاعس عن إعطاء جواب صريح، منطلقًا من أنه... هيا انتظر... أريد أن أعرف، أولاً: بمن يرتبط تحديد يوم التنفيذ. أريد أن أعرف، ثانيًا: كيف يمكنني أن أحصل على أي فائدة من هذه المؤسسة أو المسؤول أو مجموعة مسؤولين...

لكن المحامي الذي كان متحمسًا للكلام قبل لحظة، ظلَّ صامتًا. لم يكن وجهه المزيَّن بحاجبين أزرقَين وشفة مشقوقة طويلة يعبِّر عن أي حركة للفكر.

دعِ الكُمَّ قال سينسينات وحاوِل أن تركِّز.

قام رومان فيساريونوفيتش بتغيير وضعية جسمه بطريقة انفعالية حادة وشبك أصابع يديه المضطربتَين. ثم قال بصوت حزين:

بسبب هذه النبرة تحديدًا...

قرّروا إعدامي قال سينسينات أعرف. أكمِل!

هيا بنا نغيِّر موضوع الحديث، أرجوك صاح رومان فيساريونوفيتش لماذا لا يمكنك أن تبقى حتى ولو حاليًّا ضمن حدود المسموح والمتاح؟ حقًّا، إنَّ هذا لأمر رهيب، وهو يفوق طاقتي. لقد عرّجت عليك ببساطة كي أسألك عمّا إذا كانت لديك أية أمنيات قانونية... على سبيل المثال (وهنا انتعش وجهه) ألا تريد أن تحصل على المرافعات التي تمّت تلاوتها أثناء المحاكمة في شكل مطبوع؟ ففي حال كانت توجد لديك مثل هذه الرغبة، كان يجب عليك أن تتقدّم بطلب مناسب بالسرعة القصوى والذي يمكننا أن نصيغه الآن أنا وإياك مع إشارة معللة بالتفصيل إلى عدد النسخ التي أنت بحاجة إليها بالتحديد من الخطابات ولأي غاية. عندي الآن بعض الوقت الحر، فهيا بنا، هيا نقوم بذلك، أرجوك! حتى أنني أحضرتُ لأجل هذا الهدف مغلّفًا خاصًّا.

كرمى الإثارة... نطق سينسينات ولكن قبل ذلك... هل يعقَل أنه لا يمكن الحصول على جواب؟

مغلّف خاص كرّر المحامي بقصد الإغراء.

حسنًا، ناولني إياه قال سينسينات ثم قام بتمزيق المغلّف السميك مع ما فيه من حشوة إلى مِزق متطايرة.

عبثًا فعلت ذلك صرخ المحامي وهو يكاد يبكي هذا سدى تمامًا. حتى أنّك لا تعي ما الذي اقترفته. لعلّ أمرًا ملكيًّا بالعفو عنك كان موجودًا في المغلف. ومن المستحيل الحصول على عفو ثانٍ!

راح سينسينات يلتقط المِزق ويحاول تجميعها مع بعضها على أمل أن يشكِّل ولو جملة كاملة واحدة، لكن كان كلّ شيء مختلطًا ومشوّهًا وغير مترابط.

أنت دومًا هكذا راح يعوي المحامي وهو يضغط على صدغيه وانطلق يتمشى في الزنزانة ربما، كانت فرصة نجاتك بين يديك، ولكنك... يا للهول! ماذا يمكنني أن أفعل بك؟ فلتكتب الآن أنه فُقِد... وأما أنا فأشعر بالرضا... هكذا قمتُ بتهيئتك...

ممكن؟ سأل مدير السجن بصوت ممدود عريض وهو يفتح الباب ألن أشوِّش عليكما؟

تفضّل، يا رودريغ ايفانوفيتش ، تفضّل قال المحامي تفضّل، يا رودريغ إيفانوفيتش العزيز. بيدَ أنّ الحالة عندنا ليست مرحة كثيرًا...

حسنًا، كيف هي الآن حال صاحبنا اللطيف المحكوم عليه بالإعدام راح مدير السجن الأنيق والجليل يمزح وهو يقبض بيديه الغليظتين الضاربتين إلى اللون البنفسجي على اليد الصغيرة الباردة لسينسينات هل كلّ شيءٍ على ما يرام؟ هل تشكو من أي ألم كان؟ أمَا زلتَ تثرثر مع عزيزنا رومان فيساريونوفيتش الذي لا يكلّ ولا يملّ؟ بالمناسبة، أيها العزيز رومان فيساريونوفيتش... سوف أجعلك تبتهج لقد عثرت زوجتي المستهترة على السلّم على الزرّ الذي يعود لك. 21))Voilà)) إنه ذهب فرنسي، أليس كذلك؟ يا له من زرّ بديع جدًّا. أنا عادة لا أحب المجاملات، ولكن يجب عليَّ أن أقول...

تنحّى الاثنان نحو الزاوية متظاهرَين بأنهما يتفحصان ذلك الزرَّ البديع، وأنهما يناقشان قصته وثمنه وهما بحالة إثارة واندهاش. استغلّ سينسينات ذلك لكي

يلتقط شيئًا من تحت السرير ومن ثم قال بصوت دقيق كذلك الذي يصدر عن الخرز، ومع زلات في نهايته...

نعم، إنه ذوق رفيع، ذوق رفيع راح المدير يكرر وهو يعود من الزاوية متأبطًا ذراع المحامي. إذن، أنت بخير وبصحة جيدة، أيها الشاب قال من دون أي مغزى متوجهًا إلى سينسينات الذي عاد ليستلقي بسرعة في السرير بيدَ أنه لا يجب عليك أن تتشاقى. الجمهور وجميعنا، باعتبارنا نمثّل الجمهور، يريد الخير لك، وهذا واضح كما أعتقد. حتى أننا مستعدون لملاقاتك لناحية تخفيف وحدتك. ففي الأيام القليلة القادمة سوف ينزل سجين جديد في واحدة من الزنازين المميزة عندنا. تعرّف عليه، فهذا سوف يواسيك بعض الشيء.

خلال أيام؟ كرر سينسينات السؤال هذا يعني أنه ثمة بضعة أيام أخرى؟

لا، باللّه انظروا إليه قال مدير السجن ضاحكًا يريد أن يعرف كلَّ شيء. أرأيت يا رومان فيساريونوفيتش؟

أوه، يا صديقي، لا داعي لتذكيري قال المحامي وهو يتنهّد.

نعم قال روديون وهو يهز بالمفاتيح يجب عليك أن تكون أكثر مرونةً، يا سيّد. وإلاّ دومًا: كبرياء وغضب وازدراء. يوم أمس حملت له القشدة وماذا فعل برأيك؟ رفض تناول الطعام، راح يتعفف ويعبّر عن اشمئزازه. نعم. كنت قد بدأت الحديث معك عن السجين الجديد. حاوِلْ أن تتواصل معه، فما مِن داعٍ لأن تظلَّ شامخًا أنفك. هل ثمة عيب فيما أقوله، يا رومان فيساريونوفيتش؟

بل هو كذلك، يا روديون، نعم الأمر كذلك وافق المحامي مصدّقًا مع ابتسامة.

مسح روديون لحيته وتابع:

لقد شعرت بشفقة قوية تجاهه دخلتُ ونظرتُ، وإذ بي أرى الكرسي موضوعًا على
الطاولة، بينما كان هو يمدّ يديه الصغيرتين ويرفع رِجلَيه ممسكًا بشبك النافذة، كما لو أنه قرد ضعيف مثير للشفقة تمامًا. كانت السماء زرقاء، وطيور السنونو تحلّق، ومن جديد تظهر غيمة أمر مجيد، فرح حقيقي. قمتُ

بانتزاعه عن الطاولة مثل طفل صغير ثم رحت أبكي بقوة هذه هي الكلمة المناسبة بالضبط أشهق... أريد أنْ أقول إنَّ تلك الشفقة نالت مني بحق.

أنرفعه، يا تُرى، إلى الأعلى هناك؟ اقترح المحامي بنبرة مترددة.

هذا ممكن، حقًّا أجاب روديون بتثاقل موافقًا بطيبة خاطر رصينة هذا دائمًا ممكن.

أَلبِسْه الرداء صاح رومان فيساريونوفيتش.

قال سينسينات:

أنا أطيعكم، أيها الأشباح، والمستئذبون والهزليون. ولكني برغم ذلك أطالب هل تسمعون، إني أطالب (وقد راح سينسينات آخر يضرب الأرض بطريقة هستيرية لدرجة أنه أضاع حذاءه) بأن تقولوا لي كم من الوقت بقي لي لأن أبقى حيًّا... وهل سيسمحون لي بلقاء زوجتي.

على الأرجح، سوف يسمحون لك أجاب رومان فيساريونوفيتش وراح يتبادل النظرات مع روديون فقط كفَّ عن الثرثرة الزائدة. حسنًا، هيا بنا.

تفضلوا قال روديون ودفع الباب المفتوح بكتفه.

خرج الثلاثة: روديون في المقدمة، كسيح وأعرج، في سروال واسع قديم بهت لونه وقد انزلق من الخلف؛ يتبعه المحامي في فراك رسمي مع ظلٍّ غير نظيف على ياقته البلاستيكية وشريط من الكتان وردي اللون في الناحية القفوية هناك حيث ينتهي الشعر المستعار الأسود؛ وخلفهما أخيرًا، سينسينات الذي أضاع حذاءه وهو يلف طرفي الرداء.

عند منعطف الممر قدّم حارسٌ آخر، مجهول الاسم، التحية لهم بطريقة ودّية. راح الضوء الشاحب الحجري يتناوب مع مقطع من الظلام. ساروا وساروا منعطفًا بعد منعطف وبحيث إنهم عبروا عدّة مرات بمحاذاة نفس النقش الناتج عن الرطوبة على الحائط والذي يشبه فرسًا مرعبةً وغير متناسقة. تطلّب الأمر إشعال ضوء الكهرباء في بعض الأماكن. اشتعلت لمبة مغبرّة

بضوء أصفر، مرير، من الأعلى أو من أحد الجوانب. وحدث، بالمناسبة، أنَّ اللمبة كانت معطّلة، ما اضطرهم لأن يخوضوا في ظلمات قاتمة. وفي أحد الأمكنة، حيث كان يسقط بغتة ومن دون توقّع شعاع ضوءٍ من السماء، ضوء دخانيٌّ وبهيٌّ راح يتشظّى على البلاط الخشن، كانت ابنة مدير السجن، إمّوتشكا، وهي في فستان أنيق برسوم مربعة وفي جوارب منقوشة أيضًا برسوم مربّعة طفلة، ولكن مع ربلتَين رخاميتين كما عند الراقصات الصغيرات تلعب الكرة بحيث إنها كانت تسدّد الكرة بضربات متناغمة إلى الحائط. استدارت وأبعدت بإصبعيها الرابع والخامس خصلة الشعر الأشقر عن خدِّها، ثم شيّعت بعينيها الموكب الصغير. كان روديون وهو يمر بجانبها يقعقع بالمفاتيح؛ أما المحامي فقد مسح بلطف على شعرها المتلألئ؛ لكنها راحت تتملّى سينسينات الذي ابتسم لها خائفًا. وعندما وصلوا إلى المنعطف التالي في الممر استدار الثلاثة فلاحظوا أنّ إموتشكا ما زالت تشيّعهم بنظراتها، وهي تواصل اللعب بالكرة التي كانت تتلألأ بلون أحمر وأزرق.

ومن جديد راحوا يسيرون مطوّلاً في الظلام إلى أن وجدوا أنفسهم في مأزق، حيث كانت تضيء لمبة حمراء فوق خرطوم لمضخة إطفاء. قام روديون بفتح الباب المنخفض والثقيل؛ حيث كانت تصعد خلفه درجات سلّم حجري ملتفّة بشكل حاد. هنا حصل تغيّر في النظام: راح روديون يطبطب بقدميه على إيقاع معين مُفسحًا الطريق لكي يتقدم في البداية المحامي وبعده سينسينات، ثم اجتاز هو بخفة خاتمًا الموكب. لم يكن سهلاً صعود السلّم الحاد الذي راح يرتفع بالتدريج اطرادًا مع تراجع كثافة الضباب الذي كان السلّم ينمو فيه، وبما أنه كان ينبغي عليهم أن يصعدوا لمدة طويلة فقد راح سينسينات يعدُّ الدرجات لعدم وجود شيء آخر يشغل باله به. وعندما بلغ عددًا مؤلفًا من ثلاثة أرقام، اختلط عليه الحساب فتعثّر. بدأ الهواء يصبح شاحبًا خلسةً. كان سينسينات يشعر بالإعياء، ولكنه راح يتسلق السلّم مثل طفل، مبتدئًا خطوته بنفس الرِّجْل دائمًا. وبعد التفاف آخر هبّت فجأة ريح ثقيلة، وانكشفت سماء صيفية ساطعة، ودوّت أصوات حادة لطيور السنونو.

وجد أصدقاؤنا الرحالة أنفسهم فجأة على شرفة فسيحة لبرج تطلُّ على مشهد بعيد أخّاذ وساحر، ذلك أنَّ البرج لم يكن ضخمًا وحسب، بل إنَّ القلعة بأكملها كانت هائلة جدًّا وتجثم على جرف صخري عملاق كان يبدو كما لو أنه وليد قوّة فظيعة وغير طبيعية. بعيدًا في الأسفل كانت تُرى كروم عنب معلّقة تقريبًا، وطريق بيضاء بلون الجسم تتلوى لتهبط نحو مجرى النهر الذي كان قد جفَّ، كان ثمة شخص ضئيل في لباس أحمر يجتاز الجسر المقوّس، وأما النقطة التي كانت تجري أمامه فكانت على الأرجح عبارة عن كلب.

بعد ذلك كانت المدينة تنبسط تحت الشمس المحرقة على شكل نصف دائرة كبيرة: كانت البيوت بألوانها المختلفة تظهر تارة ضمن صفوف منتظمة مرفقة بأشجار دائرية، وتارة كانت تنزلق على المنحدرات لتتقدم على ظلالها الخاصة بحيث إنه كان يمكن تمييز الحركة على البولفار الأول مع إلماعة خاصة في نهايته حيث تتراقص النافورة المعروفة. وعلى مسافة أبعد قليلاً، باتجاه الانثناءات الضبابية للتلال التي ينتهي الأفق عندها، كانت تمتد موجة معتمة من أحراج السنديان، كما كانت تلمع بحيرة هنا وهناك مثل مرآة يدوية في حين أنّ الأشكال البيضاوية الأخرى الساطعة للماء تجمّعت لتتلألأ في الضباب
الشفيف، هناك في الجهة الغربية حيث كانت حياة إقليم ستروب المشمس قد انطلقت. راح سينسينات، وقد وضع راحة يده على خدّه وهو بوضعية جمود، وبحالة غائمة خالية من التعبير، وغالبًا، أقرب إلى اليأس السعيد المفعم بالغبطة، يتطلع إلى البريق والضباب في حدائق تامارا، وإلى التلال الزرقاء المتلاشية خلف تلك الحدائق آه، كم بقي يحدِّق طويلاً دون أن يشيح بصره عنها...

على بُعد بضع خطوات منه، وعلى سور حجري عريض اكتسى سطحه بنوع من الطحالب عالية الهمّة، وقف المحامي مستندًا بمرفقيه وكان ظهره متسخًا بالكلس. كان ينظر في الفضاء شاردًا وقد وضع قدميه في حذائه اللماع اليسرى على اليمنى وهو يشد وجنتيه بأصابعه لدرجة أن الجفنين السفليين يصبحان مقلوبين. عثر روديون في مكان ما على مكنسة وراح يكنس بلاطات الشرفة بصمت.

كم إنَّ هذا المنظر بديع وخلاب قال سينسينات متوجهًا إلى الجنائن والتلال (كان لكلمة «بديع» هذه وقعٌ جميل ولطيف على نحو خاص وهي تُلفظ في الهواء تمامًا مثلما يفعل الأطفال حين يقومون بسدِّ آذانهم بالضغط عليها بأياديهم ومن ثم رفعها عنها مستمتعين بتجدد العالم المسموع). كم إنّ هذا ساحر! وأنا لم أرَ في حياتي هذه التلال بالتحديد على هذا النحو من الجمال والبهاء. هل يُعقَل أنَّ ذلك لم يكن متاحًا لي في طياتها، في وهادها المظللة بل كلا، فمن الأفضل عدم التفكير في ذلك.

طاف في أنحاء الشرفة في خطٍّ دائري. كان يمتد في الجهة الشمالية سهلٌ راحت تركض فيه ظلال الغيوم؛ وكانت ثمة مزارع تفصل بين المروج؛ وخلف منعطف منطقة ستروب يمكن رؤية نصف محيط المطار الذي اكتسى بالأدغال والمبنى الذي يُحتفَظ فيه بالطائرة المرموقة والمترهلة، مع أجنحة صدئة ذات رقع مبرقشة، تلك الطائرة التي كانت تحلّق أحيانًا بمناسبة الأعياد

بشكل رئيسي من أجل تسلية المعاقين. كانت الهيولى قد أحسّت بالتعب وبالإرهاق. وكان الزمن ينام هانئًا. كان ثمة إنسان واحد في المدينة، إنه الصيدلي، الذي كان جدّ جدِّه كما يقال قد ترك كتابًا يروي كيف كان التجار يطيرون إلى الصين.

وإذ جال سينسينات في أرجاء الشرفة، عاد من جديد إلى السور الجنوبي. راحت عيناه تقومان بمشاوير مخالفة جدًّا للقوانين. راح يتخيّل أنه يميّز ذلك الدغل المزهر وذلك الطير وتلك الدرب التي تمرُّ تحت اللبلاب الشجري.

كفاكما قال المدير بطيبة قلب وهو يلقي بالمكنسة في الزاوية ليرتدي القفطان من جديد هيا إلى المنازل.

نعم، لقد حان الوقت قال المحامي وهو ينظر إلى ساعته.

وهكذا انطلق ذلك الموكب الصغير في طريق العودة. في المقدمة المدير رودريغ ايفانوفيتش، يتبعه المحامي رومان فيساريونوفيتش، ومن بعده السجين سينسينات الذي راح يتثاءب بطريقة عصبية بعد أن تنشق هواءً طريًّا منعشًا. كانت سترة المدير ملوّثة من الخلف بالكلس.

IV

دخلتْ مستغلة الظهور الصباحي لروديون فانزلقت تحت يديه اللتين كانتا تحملان طبق الطعام.

تو تو تو أعلن محذّرًا وهو يلعن عاصفة الشكولاتة. أغلق الباب خلفه بحركة خفيفة من قدمه وهو يدمدم لنفسه: يا لها من شقيّة...

لكن إمّوتشكا اختبأت خلف الطاولة حيث جلست القرفصاء.

تقرأ كتابًا؟ لاحظ روديون وهو يشع بالطيبة هذا عمل حسن.

أصدر سينسينات غمغمة على شكل يامب((22)) تأكيدي دون أن يرفع عينيه عن الصفحة ولكن عينيه لم تعودا تميزان السطور.

غادر روديون بعد أن أنجز مهامه البسيطة وغير المتطلبة قام بمسح الغبار الذي كان منتشرًا في الشعاع وأطعم العنكبوت.

أمّا إمّوتشكا التي كانت ما تزال تجلس القرفصاء، ولكنها أصبحت أكثر حريّة، فقد راحت تتأرجح كما لو أنها على نوابض كانت تنظر من فوق الطاولة باتجاه الباب مصالبة يديها الناعمتين، وفاتحة فمها الورديَّ بعض الشيء وهي تغمز برموشها الطويلة والشاحبة حتى أنها بدت شائبة. وها هي حركة مألوفة: أبعدت خصلات شعرها كتّاني اللون عن صدغيها بحركة سريعة وكيفما كان، ثم ألقت نظرة خاطفة خلسةً على سينسينات الذي وضع الكتابَ جانبًا وراح ينتظر تطور الأحداث.

لقد غادر قال سينسينات.

نهضت من وضعية القرفصاء، ولكنها استمرت نصف منحنية تحدّق في الباب. كانت مرتبكة، ولا تعرف ما الذي يجب عليها أن تفعله. فجأة، كزّت على

أسنانها ولمعت بربلتَيها الشبيهتين بربلتي راقصة باليه، واندفعت نحو الباب الذي كان بالطبع مغلقًا. انتعش الهواء في الزنزانة من جرّاء وشاحها المتموج.

طرح سينسينات عليها سؤالين عاديين. ذكرت اسمها بدماثة وأجابت أنّ عمرها اثنتا عشرة سنة.

وهل تشعرين بالشفقة نحوي؟ سألها سينسينات.

لكنها لم تجب عن هذا السؤال. رفعت إبريقًا فخاريًّا كان يقف في الزاوية إلى وجهها. كان فارغًا وله صدى رنان. راحت تنفخ فيه مصدرة صوتًا في داخله، وبعد لحظة أعادت الكرّة ثانية وها هي الآن تقف مستندة إلى الحائط ومتكئة عليه بلوحَي الكتفين مع المرفقين فقط، ثم راحت تنزلق نحو الأمام بعقبيها المتوترين في حذاء مسطّح لتعود وتنهض واقفة من جديد. ابتسمت لنفسها ومن ثم نظرت إلى سينسينات عابسةً كما لو أنها تنظر إلى شمس منخفضة، ثم راحت تنزلق من جديد. كان واضحًا تمامًا أنها طفلة متوحشة ومضطربة.

هل يُعْقَل أنك لا تشعرين بالشفقة والعطف نحوي؟ قال سينسينات هذا مستحيل ولا يمكنني أن أصدّق ذلك. هيا، تعالي إليَّ، أيتها الأيّل الآدمية الحمقاء، وأخبريني في أي يوم سوف أموت.

بيدَ أنّ إموتشكا لم تقل شيئًا، وإنما انزلقت على الأرض واستقرت هناك بهدوء ضاغطة ذقنها إلى ركبتيها المثنيتَين والمتلاصقتين اللتين شدّت عليهما طرف ثوبها لتكشف في الأسفل عن فخذَين مكوَّرَين أملسين.

قولي لي، يا إموتشكا فأنا أرجوك جدًّا... إنك تعرفين فأنا أحدس كما لو أنك تعرفين... ربما الوالد تحدّث حول مائدة الطعام، أو الوالدة تحدّثت في المطبخ... فالكل، الكل يتحدّث عن ذلك... ففي مساء يوم أمس كان ثمة إعلان صريح في الصحيفة هذا يعني أنهم يتناولون ذلك ويتكلمون عن ذلك، وأنا وحدي...

قفزت عن الأرض كما لو أنّ عاصفة رفعتها واندفعت نحو الباب من جديد، ثم راحت تطرقه ليس براحتَي يديها، بل على الأرجح بقبضتَيها. كان شعرها المنفلت الأصهب الحريري ينتهي بجدائل طويلة.

«لو أنك كنت ناضجة راح سينسينات يفكّر ولو كانت روحك قريبة ولو بعض الشيء من الرقّة عندي، لكنتِ رحتِ، كما في الشعر القديم، تسقين الحراس بعد أن تختاري ليلةً مظلمة أكثر...»

إمّوتشكا! صاح سينسينات أرجوكِ، قولي لي، وأنا لن أكفَّ، قولي لي متى سأموت؟

اقتربت من الطاولة حيث كانت توجد كومة من الكتب وهي تقضم إصبعها. فتحت أحد الكتب وراحت تتصفّحه مع خشخشة كما لو أنها تنتزع الصفحات منه، ثم أغلقته بقوّة وتناولت كتابًا آخر. كان ثمة ارتعاش يجري على وجهها باستمرار تارة ينكمش أنفها المنمش، وتارة كان لسانها يدفع وجنتها.

قعقع الباب. دخل روديون الذي كان بالتأكيد ينظر من خلال العين السحرية، وعليه أمارات غضب شديد.

هيا اخرجي((23)) من هنا، أيتها الآنسة! إذ سوف أعاقِبك على ذلك بقسوة.

راحت تقهقه زاعقةً، ثم فرّت هاربة من بين يديه الشبيهتين بملقطي سرطان، واندفعت نحو الباب المفتوح. وهناك، عند حافة الباب توقفت فجأة بطريقة فاتنة أشبه بوقفة راقصة
باليه ثم، وكما لو أنها أرسلت قبلة عبر الهواء، أو أنها عقدت اتحادًا صامتًا، راحت تنظر من فوق كتفها إلى سينسينات: بعد ذلك وبنفس تلك المباغتة الإيقاعية انطلقت هاربة بقفزات كبيرة وعالية أشبه بتلك التي تسبق التحليق.

تبعها روديون بصعوبة وهو يدمدم متذمّرًا ويخشخش.

انتظر! صاح به سينسينات لقد انتهيت من قراءة جميع الكتب. أَحضِر لي قائمة بعناوين الكتب مرة أخرى.

كُتُب... صاح روديون بغضب ساخرًا ثم أغلق الباب خلفه بجلبة مقصودة ومعبّرة.

يا للكرَب. يا له من غمٍّ يا سينسينات! إنه كربٌ ثقيل، يا سينسينات وذلك النقر عديم الشفقة لعقارب الساعة، والعنكبوت السمين، وتلك الجدران الصفراء، وخشونة هذا اللحاف الصوفي الأسود. وذلك الزبد على سطح مشروب الشوكولاتة. إذا ما التقطتَه في منتصفه بإصبعين اثنين وانتزعته عن السطح لن يعود ثمة غطاء مستحلب، بل ستتشكل تنورة بنيّة اللون ومجعّدة. يكاد لا يكون دافئًا ما هو تحتها لكنه حلو المذاق قليلاً وفاسد. ثلاثة أرغفة مشوية شبيهة بلون السلاحف. كأس كبيرة من الزيت مع الأحرف الأولى من اسم مدير السجن منقوشة عليها بواسطة ختم. يا له من غمّ، يا سينسينات، كم كثيرة نثرات الخبز في الفراش.

بعد أن تحسّر بعض الوقت، وبعد أن تأوّه وطقطق بجميع مفاصله، نهض عن السرير، ارتدى الرداء الكريه وبدأ يتمشّى. ومن جديد راح يقرأ جميع الكتابات المدونة على الحائط على أمل أن يعثر في مكان ما على عبارة جديدة. وقف مشدوهًا على الكرسي مثل غراب يقف على جذمور، وراح يحدّق نحو الأعلى إلى تلك القطعة البائسة من السماء. راح يتمشى من جديد. ومن جديد راح يقرأ القواعد الثماني المخصصة للسجناء والتي حفظها عن ظهر قلب.

1. يحظر مغادرة مبنى السجن بشكل قاطع.

2. إنَّ وداعة السجين هي زينة وزخرفة للسجن.

3. نرجو بقوّة أن تلتزموا بالهدوء التام بين الساعة الواحدة ظهرًا والثالثة بعد الظهر من كلِّ يوم.

4. يحظر إدخال النساء.

5. يُمنع الغناء والرقص والمزاح مع الحراس إلاّ في حال الاتفاق المتبادل وفي أيام محدّدة فقط.

6. يفضّل ألاّ يحلم السجين نهائيًّا وفي حال حدث العكس، يجب عليه العمل فورًا من أجل التوقف عن رؤية أية أحلام ليلية يمكنها أن تكون من حيث مضمونها متناقضة مع وضع السجين وصفته، من مثل: مناظر طبيعية خلابة، نزهات مع معارف وأصدقاء، تناول وجبات الغداء مع العائلة، وأيضًا العلاقة الحميمية مع أشخاص، لا يسمحون بذلك للشخص المعني في الواقع وفي

حالة اليقظة، وبالتالي سوف يتم النظر إلى سلوكه على أنه مرتكب لفعل الاغتصاب.

7. يجب على المسجون، وبينما هو يستخدم حسن الضيافة في السجن، ألاّ يتهرّب بدوره من المشاركة في أعمال التنظيف وغير ذلك من الأعمال التي يقوم بها العاملون في السجن نظرًا لأن مثل هذه المشاركة سوف تُطلَب منه.

8. لا تتحمّل إدارة السجن أية مسؤولية عن فقدان الأغراض الشخصية للسجين ولا السجين ذاته.

كرب، كرب يا سينسينات. امشِ مرّة أخرى، يا سينسينات، وأنت تلمس بطرف ردائك تارة الحائط وتارة الكرسي. يا للكآبة!

تمّت قراءة جميع الكتب المرمية على الطاولة. ومع أنه كان يعرف أنه قرأها جميعها، راح سينسينات يبحث ويفتّش، وقام بتقليب مجلّد سميك... قلّب وهو واقف صفحاته التي سبق أن قرأها. كان عبارة عن مجلّد لمجلّة كانت تصدر ذات زمن في قرن لا يمكن تخيّله إلاّ بصعوبة. فقد كانت مكتبة السجن التي تعتبر الثانية من حيث عدد الكتب وندرة الكتب فيها، تحتوي على عدد من مثل هذه العجائب. كان الحديث يدور عن عالم قديم وبعيد جدًّا، حيث كانت أكثر الأشياء بساطة تتلألأ بالفتوّة وبالشجاعة الفطرية التي يعود مصدرها إلى ذلك التقديس الذي كان يحاط به العمل الذي يبذل من أجل صنعها. تلك كانت أيام السلاسة الشاملة؛ حين كان المعدن المدهون بالزيت يقوم بحركات بهلوانية صامتة؛ وحين كانت الخطوط المنتظمة للثياب الرسمية تفرضها المرونة غير المسبوقة للأجساد الممتلئة بالعضلات؛ وحيث كان الزجاج المتبدّل للنوافذ الكبيرة ينحني بشكل دائري عند زوايا البيوت؛ وحيث كانت الفتاة تطير في ثوب الرقص مثل سنونو عاليًا جدًّا فوق المسبح الساطع الذي لم يكن يبدو أكبر من صحن؛ وحين كان لاعب القوى يستلقي في قفزته في الهواء ووجهه متّجه نحو الأعلى ليبلغ مثل ذلك التوتر الأقصى بحيث إنه لولا تلك الرايات الصغيرة على السروال القصير مع أشرطة تمييزية، لكان أقرب إلى هدوء خامل كسول؛ وكان الماء ينساب بلا توقف وينزلق إلى ما لا نهاية؛ وتلك الرشاقة للماء المتساقط، والتفاصيل الساطعة لغرف الحمامات، وذلك التموج الأطلس الناعم للمحيط مع ظل مزدوج فوقه. كان كلُّ شيءٍ مصقولاً ومتقزّحًا، وبحيث إنّ كلّ شيء كان يتوق نحو اكتمال ما، يتمُّ تحديده بغياب الاحتكاك حصرًا. كانت الحياة، وهي تتلذذ بجميع إغراءات الدائرة،

تدور لتبلغ مثل ذلك الدوار الذي يجعل الأرض تميد من تحت الأقدام، وإذ تنزلق تهوي وقد أصيبت بالوهن بسبب الغثيان والفتور... إذا صحَّ القول؟.. وقد وجدت نفسها كما لو في بُعدٍ آخر بلى، لقد ترهلت المادة وأحسّت بالإعياء، ولم ينجُ سوى القليل من تلك الحقبة المجيدة سيارتان ثلاث سيارات، ونافورتان ثلاث نوافير دون أن يشعر أحدٌ ما بالتأسف على ذلك الماضي، كما أن مفهوم «الماضي» بالذات كان قد بات مختلفًا.

«وربما، أنا أقوم راح يقول سينسينات في نفسه بتأويل تلك المشاهد بشكل غير صحيح. لعلّني أضفي على الحقبة مواصفات صورتها. إنه ثراء الظلال، وشلالات الضوء، ولمعة الكتف الملوحة بالشمس، وذلك الانعكاس النادر والانتقالات السلسة من سجيّة إلى أخرى كلُّ هذا، ربما، يتعلق بالصورة فقط، بتسجيل ضوئي خاص، وبأشكال خاصة من هذا الفن، وأنّ العالم في حقيقة الأمر لم يكن نهائيًّا على تلك الدرجة من التعرّج والرطوبة والسرعة بنفس الدرجة تمامًا، مثلما هي أجهزتنا غير الحاذقة تصوِّر على طريقتها عالمنا الحالي الذي تمَّ تركيبه وتشكيله وتلوينه على عجل».

«وربما (راح سينسينات يكتب بسرعة على ورقة مربّعة) أنا أفسّر الأمر بطريقة غير صحيحة... أضفي على الحقبة... هذه الثروة... والتيارات... والانتقالات السلسة... والعالم لم يكن بتاتًا... تمامًا مثلما هو... ولكن هل يمكن، يا تُرى، لهذه التخمينات والظنون أن تساعدني في كربي وفي كآبتي؟ آه، يا كربي ماذا يجب عليّ أن أفعل معك، ومع نفسي؟ كيف يجرؤون على إخفاء الأمر عني... عني أنا الذي يفترَض بي أن أجتاز تجربة مؤلمة تفوق الوصف، أنا الذي يجب عليَّ أن أمتلك كامل قدراتي الذاتية، أثناء تلك التجربة، وذلك في سبيل المحافظة على الكرامة حتى ولو كانت شكلية وخارجية (لن أذهب أبعد من الشحوب الصامت في جميع الأحوال فأنا لست بطلاً على أيّة حال...)، أنا، أنا... أترهل وأصاب بالوهن ببطء... فالغموض أمر فظيع فهيا قولوا لي في نهاية المطاف... ولكن لا، بل لِتمُتْ كلّ صباح... علمًا، أنه لو كنت أعرف كم بقي لي من الوقت، لكنت ربما أنجزت عملاً ما... عملاً غير ذي شأن... كنتُ قمت بتدوين الأفكار الموثوقة والتي تأكدتُ منها... التي سوف يقرأها ذات يوم أحد ما وسوف يصبح مثل ذاك الذي يستقبل أول صباح في بلاد يجهلها. أريد أن أقول أني كنت سأرغمه أن يذرف فجأة دموعًا غزيرة من فرط السعادة، ولكانت عيناه ذابتا غبطةً وعندما سيجتاز ذلك، سوف يصبح العالم نقيًّا أكثر وطاهرًا ومتجدّدًا. ولكن كيف يمكنني أن أشرع بالكتابة، طالما أنني لا أعرف ما إذا كان لديّ ما يكفي من الوقت، وهذا هو مصدر عذابي إذ إني أقول لنفسي: لو بدأت يوم أمس ربما كنت انتهيت ومن جديد أقول لنفسي: لو كان الأمر ابتدأ يوم أمس... وبدلاً من القيام بعمل لازم

ودقيق وواضح، بدلاً من تهيئة الروح بصورة مناسبة من أجل النهوض الصباحي، عندما... يا له من سطل من الدموع، حين يقدمونه لك، أيتها الروح، لتغتسلي... هكذا، بدلاً من ذلك، تقع لاإراديًا أسيرَ حلمٍ جنوني ومبتذلٍ بالهروب للأسف، بالفرار... عندما جاءت اليوم راكضةً وهي تضرب الأرض بقدميها وتقهقه أي أنا أقصد.:.. بلى، من الضروري مع ذلك أن أترك أثرًا ما. فأنا لست شخصًا عاديًّا... أنا ذاك الذي أحيا بينكم... ليست عيناي وحسب هما المختلفتَين، بل وحاستا السمع والذوق أيضًا وليس حاسة الشم فقط كما عند الغزال، بل وحاسة اللمس كما عند الخفاش وإنما ما هو أساسي: موهبة جمع كل ذلك في نقطة واحدة... كلا، لم يتم الكشف عن السرِّ حتى الآن حتى هذا مجرّد زناد وحسب.. وأنا لم أنبس ببنت شفة حتى الآن بشأن ولادة النار، وعمّا يتعلق بها بالذات. حياتي. ذات طفولة، في تلك الرحلة المدرسية البعيدة، وبعد أن صمدتُ بوجه الآخرين وربما حلمتُ بذلك وحسب وجدتُ نفسي في وقت الظهيرة الحارق في مدينة خاملة، خاملة إلى درجة أنّ المرء الذي كان يغفو على مصطبة بقرب جدار أبيض ساطع، لم يتبعه ظلّه الأزرق المنعكس على الجدار فورًا عندما نهض أخيرًا لكي يقودني إلى خارج سور القرية... ايه، أعرف، أعرف أنني لم أكن دقيقًا في ملاحظتي، وأنني كنتُ مخطئًا في ظنّي لأنَّ الظلَّ لم يتوانَ ولم يتباطأ، وإنما بكلِّ بساطة، لنقل إنه تعثّر بخشونة الجدار... ولكن إليكم ما أردت التعبير عنه: بين حركته وحركة الظل المتباطئ هذه الثانية، هذا التأخير في النبر هو ذلك الصنف النادر من الزمن الذي أحيا فيه فاصل، توقّف حين يكون القلب مثل زغب... كما كنت سأكتب بخصوص الخفقان الدائم... وكيف أنَّ أجزاءً من أفكاري تزدحم على الدوام من حول حبل السرّة غير المرئي الذي يربط العالم مع أمر ما لن أقول مع ماذا بعد... ولكن كيف يمكنني أن أكتب عن ذلك، طالما أنني أخشى ألا يكون لدي ما يكفي من الوقت لأنجز ذلك وبالتالي فقد أنكأ الجراح سدى.... عندما جاءت اليوم وهي تعدو ما زالت طفلة هذا ما أريد أن أقوله ما زالت طفلة تمامًا، مع منافذ لأفكاري فقد رحتُ أفكّر بمفردات الشعراء الإغريق القدامى كنتِ ستسقين الحراس حتى يثملوا... ولكنتِ أنقذتِني. وبما أنها ظلّت طفلة على ذلك النحو، بدلاً من أن تكبر وتنضج، فقد أدركت وكان الأمر سينجح: وجنتان ملتهبتان، ليل مظلم عاصف، ونجاة، نجاة... وعبثًا أنا أكرِّر أنه ما من مأوى لي في هذا العالم... بل ثمة مثل هذا المأوى! سوف أجده! ففي الصحراء ثمة وهدة مزهرة! قليل من الثلج في ظل جرف صخري! للعلم، هذا مؤذ ما أفعله فأنا واهن أساسًا، ومع ذلك أقوم بإحراق نفسي، أدمِّر وأبدِّد آخر ما تبقّى لديَّ من طاقة. يا لها من كآبة، إيه، كم إنه غمّ شديد... كما أنه من الواضح بالنسبة لي أنني لم أنزع آخر غطاء عن خوفي».

استغرقه التفكير. ألقى بقلم الرصاص جانبًا ثم نهض وراح يمشي. كانت تُسمَع دقات الساعة. راحت خطوات ما تصعد إلى السطح، مستخدمةً دقات

الساعة كقاعدة لانطلاقها؛ انداحت القاعدة مبتعدة ولكن الخطوات استمرت، وها هي تدخل إلى الزنزانة: روديون يحمل شوربة ومعه السيد أمين المكتبة في السجن مع قائمة بأسماء الكتب.

كان رجلاً ذا قامة ضخمة، ولكنه ذو مظهر مريض، شاحب مع ظلال حول العينين، له صلعة محاطة بطوق من الشعر الأسود، مع خصر طويل في معطف قصير وسميك بهت لونه في بعض الأماكن ومع رقع نيلية اللون على المرفقين. كان يضع يديه في جيبَي سروال ضيّق كالموت، وقد ضغط تحت إبطه كتابًا كبيرًا بغلاف أسود. سبق لسينسينات أن استمتع برؤية هذا الكتاب من قبل.

الكتالوج أعلن أمين المكتبة الذي كان كلامه يتميز بالاختصار المستفز.

حسنًا، اتركه لي قال سينسينات وأنا سوف أختار لاحقًا. وفي حال كنت تريد الانتظار لبعض الوقت فلتجلس من فضلك. وإذا شئت بإمكانك أن تذهب...

سوف أذهب قال أمين المكتبة.

حسنًا. في هذه الحال سوف أسلّم الكتالوج فيما بعد إلى روديون. تفضل، يمكنك أن تأخذ... هذه المجلات التاريخية القديمة رائعة ومثيرة للحزن والكرب... لقد سافرتُ مع هذا المجلّد السميك، تخيّل، إلى أعماق الزمن كما لو أني أحمل ثقلاً. يا له من إحساس آسر.

كلا قال أمين المكتبة.

اجلب لي أكثر، سوف أطلب أعدادًا من سنوات أخرى. ورواية ما أيضًا. حديثة نوعًا ما. أتغادر؟ هل أخذت الكلَّ؟

بعد أن بقي سينسينات بمفرده راح يتناول الشوربة وهو يتصفّح الكتالوج في الوقت نفسه. كان الجزء الأساسي فيه مطبوعًا بشكل أنيق وجميل؛ وكانت هناك وسط النص المطبوع جملة من العناوين المكتوبة يدويًا بالحبر الأحمر بخطٍّ ناعم ودقيق ولكنه واضح. كان من الصعب على مَن ليس خبيرًا أن يعرف استعمال الكتالوج بسبب توزع أسماء الكتب لا وفق الأحرف الأبجدية،

وإنما حسب عدد الصفحات في كل كتاب، وبحيث كان يتم التنويه فورًا كم هو عدد الصفحات التي جرى إضافتها لصقًا في هذا الكتاب أو ذاك (وذلك بقصد تحاشي التطابق في عدد الصفحات). لذلك راح سينسينات يبحث من دون هدف واضح ومحدد، وإنما بقصد الاطلاع والمعرفة لا أكثر. كان الكتالوج محافظًا على نظافة نموذجية؛ وما كان أكثر مدعاة للدهشة هو أن يدًا طفلية قامت برسم بضعة رسوم بقلم الرصاص على الوجه الأبيض لإحدى الصفحات الأولى، رسوم لم يتمكن سينسينات من فكِّ لغزها على الفور.

V

اسمح لي أن أهنّئك من أعماق قلبي أعلن مدير السجن بصوت جهير صاف وهو يدخل في صباح اليوم التالي إلى زنزانة سينسينات.

كان رودريغ ايفانوفيتش متأنقًا بشكل أكبر مما هو في العادة: كانت سترته الرسمية المخصصة للمناسبات الاحتفالية محشوة بالقطن كما هي الحال عند الحوذيين، وعريضة، سميكة وملساء، وكان الشعر المستعار يلمع كما لو أنه جديد، كما كانت عجينة الذقن مطلية بالبودرة بكثرة بحيث إنَّ الذقن صار أسود اللون، وأما في عروة السترة فكانت تبرز زهرة وردية اللون من الشمع بشدق أبقع. من خلف قامته الممشوقة وقد وقف عند مدخل الزنزانة بطريقة مهيبة لاحت وجوه العاملين الإداريين في السجن مطلية بالمساحيق ومع علامات الفضول والاحتفاء عليها. حتى أنَّ روديون قام بتعليق وشاح وسام ما.

أنا جاهز. سوف أرتدي ثيابي في الحال. كنت أعرف أنّ الموعد هو اليوم.

أهنئك كرر المدير دون أن يعير اهتمامًا لحركات سينسينات المهتاجة يشرّفني أن أعلن لك أنه بات لديك جارٌ من اليوم فصاعدًا نعم، نعم، لقد وصل للتو. لا بد أنّك مللت من الانتظار؟ لا بأس الآن، ومع صديق حميم، مع رفيق في الألعاب والأشغال، لن تشعر بالضجر. عدا عن ذلك ولكن هذا يجب أن يبقى سرًّا بيننا بالطبع، يمكنني أن أخبرك أننا استلمنا قرارًا يسمح لك باللقاء مع زوجتك: 24))demain matin)).

من جديد ارتمى سينسينات جالسًا على السرير وقال:

نعم، هذا أمر حسن. أشكرك أيتها الدمية، الحوذي، الحقير المطلي((25))... اعذرني، فأنا مرتبك بعض الشيء...

هنا بدأت جدران الزنزانة تتحدب وتنثني مثل انعكاس في مياه متقلقلة؛ بدا المدير مضطربًا ومتقلقلاً وأما السرير فقد تحوّل إلى قارب. أمسك سينسينات بحافة السرير لكيلا يسقط، ولكن مقبض المجداف بقي في يده فراح يسبح مغمورًا حتى عنقه وسط آلاف الأزهار المبقعة، ثم بدأ يفقد سيطرته على نفسه وراحِ يغرق. شمّروا عن أذرعهم وبدأوا يغزّونه بعصي

الوثب وبحربات لطعن الأسماك، كما راحوا يحاولون الإمساك به وسحبه نحو الشاطئ. وأخيرًا نجحوا في سحبه.

نحن متوترون مثل امرأة تافهة قال طبيب السجن وهو يبتسم، وهو ذاته رودريغ إيفانوفيتش. هيا تنفّسْ ملءَ صدرك وبحريّة. يمكنك أن تأكل كل ما تشتهي. هل تشكو من فرط تعرّق أثناء الليل؟ تابع على نفس المنوال، وفي حال كنت مطيعًا، فربما، ربما نسمح لك بالنظر خلسة، بعين واحدة إلى جارك الجديد... ولكن، لكي نغضَّ الطرف عن ذلك، بعين واحدة فقط...

كم امتد طويلاً... هذا اللقاء... كم سيمنحونني... نطق سينسينات بصعوبة بالغة.

حالاً، حالاً. لا تكن لجوجًا إلى هذا الحد، لا تقلق. طالما أني وعدتُك بأن أعرض عليك فهذا يعني أني سوف أعرض عليك. البس الحذاء وسرّح شعرك. إني أعتقد أنه... ألقى المدير نظرة متسائلة على روديون، فأومأ ذاك ولكن فقط، رجاءً، احرص على هدوء كامل راح يخاطب سينسينات من جديد ولا تلتقط شيئًا بيديك. هيا، انهض، انهض. أنت لا تستحق ذلك، إنك، يا عزيزي، تتصرف بشكل سيّئ، ومع ذلك سوف يُسمَح لك... أما الآن فلا تنبس بأي حرف، والزم الهدوء...

خرج رودريغ إيفانوفيتش على رؤوس أصابعه وهو يحاول الحفاظ على توازنه، وخرج معه سينسينات وهو ينتعل حذاءه الذي يُصدر صوتًا أشبه باللعثمة. كان روديون يقف منحنيًا في عمق الممر عند الباب وهو يحمل مشابك كبيرة، ومن ثم أزاح الغالق وراح ينظر عبر العين السحرية. قام دون أن يرفع عينه بحركة بيده تطلب التزام الهدوء الكامل ومن ثم استبدلها بحركة أخرى حركة تدعو للاقتراب. ارتفع المدير على رؤوس أصابع قدميه أكثر، ثمَّ استدار وراح يصعِّر وجهه علامة التهديد، لكن سينسينات لم يتمكن من ضبط نفسه وألا يخشخش بعض الشيء. راح موظفو السجن بهيئاتهم الضبابية يحتشدون وهم ينحنون هنا وهناك، في الانعطافات المظلمة ويحدِّقون واضعين أكفَّهم على جباههم كما لو أنهم يسعون لرؤية شيءٍ ما في البعيد. قام المخبري روديون بإفساح الطريق لرودريغ إيفانوفيتش بالوصول إلى العدسة الإرشادية. التصق رودريغ إيفانوفيتش بالعين السحرية مُصدرًا صريرًا بظهره... أثناء ذلك كان الموظفون في هيئاتهم الضبابية وفي الظلمات الرمادية يعْدون هنا وهناك بصمت وبصمت كانوا ينادون بعضهم بعضًا، ثم انتظموا في صفّ واحد، لتنطلق بعد ذلك أرجلهم في الحركة مراوحة في مكانها كما لو أنهم مكابس،

وهم يستعدون للدخول. تنحّى المدير أخيرًا ببطء إلى جانب وشدَّ بهدوء سينسينات من كمّه داعيًا إياه، كما لو أنه بروفسور الغرّ الزائر، لأن يلقي نظرةً من خلال الجهاز. التصق سينسينات بالدائرة المضيئة بلطف. لم يرَ في البداية سوى فقاعات أشعة الشمس، على شكل شرائط ومن ثمّ: السرير الذي يشبه السرير عنده في زنزانته، وإلى جانبه كانت تقف حقيبتان كبيرتان مع أزرار لامعة وعلبة مستطيلة ضخمة أشبه بعلبة آلة الترومبون((26))...

هيا إذن، هل ترى شيئًا؟ سأل المدير هامسًا وقد أحنى رأسه مقتربًا وهو يعبق مثل
زنبقة في تابوت مفتوح...

ردّ سينسينات بإيماءة علامة الإيجاب بالرغم من أنه لم يكن قد رأى ما هو أهم؛ نقل نظره إلى الناحية اليسرى فرأى عندئذ ما يجب أن يرى في الواقع.

كان ثمة رجل بدين بوجه حليق يجلس بلا حراك، كما لو أنه تمثال من سكّر، على كرسي مجانبًا الطاولة، في الثلاثين من العمر، يرتدي بدلة خاصة بالسجناء، قديمة الطراز ولكنها نظيفة وقد تمَّ كيّها حديثًا كان النزيل مخطّطًا بالكامل وفي جوارب مخطّطة، ينتعل حذاء جلديًّا من السختيان كان يضع رِجلاً قصيرة فوق أخرى ويمسك ساقه بيدين منتفختين، كاشفًا عن باطن قدم رقيقة وبيضاء، كان يشع في خنصر يده خاتم من الزبرجد، وعلى رأسه المستدير بشكل مذهل ثمة شعر أشقر فاتح مفروق في منتصفه، أما رموشه الطويلة فكانت تلقي ظلاًّ لها على وجنته الملائكية، ومن بين شفتيه القرمزيتين كان يمكن رؤية صفَّين من الأسنان المنتظمة والبيضاء الجميلة. كان يبدو بمجمله مغطّى بلمعان شفيف، وقد راح يتلاشى بعض الشيء في حزمة الأشعة الشمسية التي كانت تسقط عليه من أعلى. لم يكن يوجد على الطاولة أي شيء باستثناء ساعة يد ثمينة وأنيقة في إطار جلدي.

سوف يكون همس المدير وهو يبتسم أنا أيضًا أريد((27)) وانكب إلى العدسة من جديد.

أشار روديون لسينسينات بما يعني أنه حان وقت العودة من حيث أتى. راحت هيئات العاملين الضبابية تقترب بوقار الواحدة تلو الأخرى: نشأ خلفَ ظهر المدير صفٌّ طويلٌ من الراغبين بإلقاء نظرة، حتى أنّ بعضهم جلب أولاده الكبار معه.

ندلّلكم أكثر مما يلزم غمغم روديون في الختام وبقي لمدة طويلة عاجزًا عن فتح باب زنزانة سينسينات. حتى أنه كافأ الباب فشتمه بكلمة روسية بذيئة جدًّا، وهذا ما كان له فعله على الفور.

فجأة هدأ كلُّ شيء. أصبح كل شيء كما كان دومًا.

كلا، لم ينته كلّ شيء، بل سوف تأتي في يوم غد قال سينسينات بصوت مسموع وأنت ترتجف بعد هذه الحماقة الأخيرة.

«ماذا يمكنني أن أقول لك؟ استمر في تفكيره وهو يدمدم ويتشنج وماذا ستقولين لي؟ أني أحببتك على الرغم من كلِّ شيء، وأني سأبقى أحبّك وأنا ساجد على ركبتي بينما كتفاي مشدودتان للخلف وراسمًا بعقبيَّ كاتا((28)) وموتِّرًا رقبتي الأشبه برقبة إوزة في جميع الأحوال، وحتى في تلك المرّة. وفيما بعد أيضًا ربما، بدرجة أكبر بعد تلك المرة على وجه التحديد سوف أبقى أحبُّك وسوف يقوم بيننا في يوم من الأيام توضيح حقيقي ووافٍ وعندئذ لا بد أن ننسجم مع بعضنا، وسوف يلتصق واحدنا بالآخر، وسوف نحلّ المعضلة: أن نرسم من نقطة ما إلى نقطة أخرى... لكي لا يحدث أبدًا... أو ومن دون أن نرفع قلم الرصاص... أو شيئًا آخر من هذا القبيل... نوصل بين النقطتين، وحينئذ سوف تنتج مني ومنك تلك الزخرفة الوحيدة التي أحنُّ وأتوق إليها. ففي حال راحوا يكررون في كل صباح ما فعلوه اليوم، سوف يدرّبونني، فإني سوف أصبح خشبيًّا بشكل نهائي...»

تثاءب سينسينات بقوّة راحت الدموع تسيل على خدّيه، ومن جديد، من جديد أحسّ كما لو أنّ جبلاً تشكل في حلقه. كان متوترًا ولا رغبة عنده في النوم. كان لا بد من إيجاد ما يشغل نفسه به حتى صباح يوم غد لم يكونوا قد جلبوا له كتبًا جديدة، كما أنه لم يُعِد الكتالوج... نعم، هيا إلى الرسومات! ولكن الآن، وفي ضوء لقاء يوم غد... لا شك أنَّ تلك اليد الطفولية، يد إموتشكا، رسمت مجموعة من الرسوم التي تشكل بعضها مع بعض (كما خُيِّل لسينسينات يوم أمس) حكاية مترابطة، وعدًا أو صورة لحلم ما. ففي البداية: خط أفقي، أي إشارة إلى طاولة حجرية، وعليها كرسي عادي على شكل حشرة طائرة، وفي الأعلى شبكة مؤلفة من ست خلايا. ذات الشيء ولكن بمشاركة من قمر مكتمل، وقد أرخى خلف الشبكة زاويتي فمه بطريقة محزنة. ثم: ثلاثة خطوط ترمز إلى كرسي بلا مسند (تابوريت) يجلس عليه سجين بلا عينين، هذا يعني أنه نائم، وعلى الأرض حلقة معدنية مع ستة مفاتيح. ونفس تلك الحلقة مع

مفاتيح، ولكنها هذه المرة أكبر من حيث الحجم، تمتد إليها يدٌ واضحٌ أنّ لها خمسة أصابع في كمٍ قصير. ثم يبدأ ما هو مثير: الباب نصف مفتوح، ومن خلفه كما لو أنه رِجلُ طائرٍ: هذا كل ما يظهر من السجين الهارب. أما هو، ومع فواصل على الرأس بدلاً من الشعر المجعد، فقد كان في مئزر داكن تمَّ تصويره على شكل مثلث غير متساوي الأضلاع؛ تقوده فتاة صغيرة: ساقاها على شكل مذراة، ترتدي تنورة متموجة، وعليها خطوط متوازية في إشارة إلى الشعر. ذات الشيء ولكن في هيئة واجهة، وبالتحديد: زنزانة على شكل مربّع، والممر على شكل منحنٍ مع خط منقّط يرمز لمسار الطريق، ثم السلّم على شكل هارمونيكا في نهاية المخطط. وأخيرًا الخاتمة: برج مظلم وفوقه قمر سعيد زاويتا الفم مرتفعتان نحو الأعلى.

كلا إنه خداع الذات، هراء. الطفلة ببساطة كانت تتسلى بالرسم كيفما كان، من دون أدنى قصد أو تفكير... لنسجِّل عناوين الكتب ومن ثم ننحي الكتالوج جانبًا. نعم، طفلة... وهي تمد لسانها في الزاوية اليمنى من الفم، وممسكة بقلم الرصاص المزين بالرسوم بقوّةٍ وضاغطة عليه بإصبع بات يؤلمها بفعل الضغط عليه... ومن ثمَّ في نهاية خطٍّ تمّ إغلاقه بنجاح تتراجع للخلف وهي تهز رأسها يمنةً ويسرةً، ومدوِّرةً بكتفيها، تنكبُّ على الورقة من جديد وتنقل لسانها إلى زاوية الفم اليسرى... ثم بكل دأب وتأنٍّ... يا له من هراء، لن نعود إلى ذلك بعد الآن...

قرر سينسينات بحثًا عن شيء يشغل نفسه به ويبعث فيه الحيوية أثناء الوقت الخامل، أن ينعش مظهره الخارجي لأجل لقاء الغد مع مارفينكا. فقد وافق روديون أن يجلب مرّة أخرى طشتًا للغسيل شبيهًا بذلك الذي اغتسل فيه عشية المحاكمة. وبانتظار وصول الماء جلس سينسينات إلى الطاولة، فاكتشف أنّ الطاولة اليوم تتأرجح.

«الموعد، الموعد كتب سينسينات يعني، بكل تأكيد، أنَّ صباحي الرهيب بات قريبًا. في يوم بعد غد، في مثل هذا الوقت، سوف تصبح زنزانتي فارغة. لكني سعيد لأني سوف أراك. لطالما صعدنا إلى الورشات عبر سلّمين مختلفين، الرجال عبر واحد، والنساء عبر سلّم آخر لكننا كنا نلتقي على فسحة الدرج قبل الأخيرة. لم أعد قادرًا على تجميع مارفينكا على النحو الذي كانت عليه عندما التقيتها لأول مرّة، إلاّ أنني أذكر أنَّني لاحظتُ على الفور أنها تبادر إلى فتح فمها قبل أن تنطلق بالضحك بثانية واحدة، وأذكر عينيها المستديرتين العسليتين والقرطين المرجانيين إيه، كم أتمنى لو أقوم الآن بإعادة صياغتها وتشكيلها لكي تكون جديدة تمامًا وفوق ذلك صلبة ومن ثم يحدث تليين تدريجي بحيث إنّ الثنية بين الخدِّ والعنق تكون دافئة حين تستدير للنظر

نحوي، تصبح منتعشة وحيّة تقريبًا. وعالمها. عالمها يتآلف من جزيئات بسيطة متصلة ببعضها بكل بساطة؛ لدرجة أن أبسط وصفة في كتاب لتعليم الطهي أكثر صعوبة وتعقيدًا بكثير، بالمناسبة، من ذلك العالم الذي تمجِّده وتعتني به في كلِّ يوم لنفسها، ولأجلي ولأجل الجميع... يا لها من لطيفة، ومستهترة، ودافئة، وفجأة... في البداية كنتُ أعتقد أنها تفعل ذلك عن سابق قصد وتصميم: كما لو أنها تشرح كيف أنّ واحدة أخرى غيرها لو كانت في مكانها كانت احتدمت غيظًا وأصبحت أكثر قسوة وعنادًا. كم دُهِشتُ عندما تبين أنّها هنا إنما هي بالذات تمامًا! ولسبب ما تافه عزيزتي الحمقاء، وكم إنَّ رأسها صغير، بحيث إنك إذا ما جسسته من خلال ذلك الشعر الكثيف والأصهب الذي تتقن إضفاء لمسة ناعمة وبريئة عليه، مع تظليل عذري في منطقة اليافوخ. «زوجتك هادئة ورقيقة، ولكنها تعض» هذا ما قاله لي أول عشيق لها لا يمكن نسيانه، مع العلم أنَّ السفالة إنما تكمن في أنّ الشهية وليس بالمعنى المجازي... فهي كانت بالفعل في لحظة ما... واحدة من تلك الذكريات التي يجب طردها والتخلص منها على الفور، وإلاّ فإنها سوف تتغلب عليك وسوف تهدّك. «مارفينكا اليوم من جديد...» وفي أحد الأيام رأيتُ، نعم أنا رأيت، لقد رأيتُ من الشرفة رأيتُ ومنذ ذلك الحين لم أدخل إلى غرفة من غرف البيت من دون أن أعطي إشارة من بعيد تدلُّ على اقترابي من خلال السعال، أو بواسطة صرخة ما لا معنى لها. كم كان فظيعًا التقاط ذلك الانحناء، وذلك الاستعجال الفاشل كل ما كان يعود لي في الخبايا الظليلة لحدائق تامارا ومن ثم تمَّ فقدانه من قبلي. أن أحصي كم كان عددهم لديها... يا له من شقاء أبدي: التحدث أثناء الغداء مع هذا العشيق أو ذاك، والتظاهر بأني سعيد وأفرقع بثمار الجوز، وأن أكرر الكلام مع خوف قاتل من الانحناء لكيلا أرى عن طريق الصدفة تحت الطاولة الجزء السفلي من الجسد، الذي يبدو الجزء العلوي منه فوق الطاولة مقبولاً من حيث الشكل إلى درجة جيدة، يمثِّل امرأة شابّة ورجلاً ناضجًا، وهما يبدوان حتى مستوى الخصر حول المائدة وهما يتناولان الطعام ويثرثران بمنتهى الهدوء والحشمة في حين أنّ الجزء السفلي ذلك الشيء رباعي الأرجل، الذي يلتف بطريقة مسعورة... لقد هويتُ إلى الجحيم وراء محرمة سقطت على الأرض. فيما بعد راحت مارفينكا تتحدث عن نفسها (بصيغة الجمع تلك بالتحديد): «نشعر بخجل كبير لأنّهم شاهدونا» ثم راحت تتجهم. وبالرغم من ذلك: أنا أحبُّك. أنا أحبُّك بشكل ميؤوس منه، إلى درجة قاتلة وغير قابلة للعلاج... طالما أنّ أشجار السنديان تقف في تلك الحدائق، سوف أبقى مغرمًا بك... عندما راحوا يؤكدون لك أنهم لا يرغبون بي وأنهم يتحاشونني شعرتِ آنذاك بالدهشة وبالذهول، وأنك نفسك لم تلمسي أيَّ شيءٍ من هذا القبيل علمًا أنه كان من السهل عليَّ جدًّا أن أخفي عنك ذلك! أذكر كيف رحتِ تتوسلين إليَّ لكي أصحح ذاتي، دون أن تعرفي نهائيًّا، من حيث الجوهر، ما الذي يجب تصحيحه بالتحديد عندي وكيف يجب القيام بذلك على وجه الخصوص، وحتى الآن ما زلت لا تفهمين ولا تعرفين شيئًا،

دون أن تحاولي معرفة إن كنت تفهمين أم لا، وحين تندهشين، فإنك تندهشين على نحو مريح تقريبًا. ولكن عندما راح المأمور القضائي يجول على الجمهور في المحكمة وهو يحمل بيده القبعة، فقد قمتِ مع ذلك بإلقاء ورقتك فيها».

ارتفع فوق الحوض الصغير الذي كان يتأرجح بالقرب من المرسى بخار غير مذنب في شيء، بخار مرح ومثير للإغواء. زفر سينسينات بشكل متقطع ومتهور على دفعتين سريعتين ثم نحّى جانبًا الصفحات التي كان قد كتبها. أخرج بعد ذلك منشفة نظيفة من صندوق ثيابه المتواضع. كان سينسينات صغير الحجم وضئيل الجسم بحيث إنَّ الحوض استوعبه بنجاح. جلس فيه كما لو في غرفة إعدام بواسطة الغاز ورح يسبح بمنتهى الهدوء. كان شعاع الغروب البرتقالي وقد امتزج مع البخار، يبعث نوعًا من الاضطراب مختلف الألوان في ذلك العالم الصغير للزنزانة الحجرية. عندما بلغ سينسينات الشاطئ نهض وخرج إلى اليابسة. راح ينشف جسمه وهو يصارع الدوار والكسل القلبي. كان نحيلاً
جدًّا لدرجة أنَّ القفص الصدري بدا الآن، في ضوء الغروب الذي ميّز أضلاعه بوضوح كبير، وكأنه محاكاة ناجحة تمامًا لفكرة التنكّر والتمويه، لأنه كان يعبِّر عن الجوهر الشبكي للوسط الموجود فيه، لغياهب سجنه. يا عزيزي سينسينات البائس. بينما كان ينشف جسمه ويحاول أن يسلّي نفسه بنفسه، راح يعاين مختلف العروق فيه، وإذ به يفكِّر لاشعوريًّا بأنهم عمّا قريب سوف يقطعون رأسه وبالتالي سوف يندلق هذا كله. كانت عظامه خفيفة ورقيقة: راحت أظافر قدميه الوديعة تنظر إليه بترقّب، باهتمام طفولي، من تحت إلى فوق (يا لها من أظافر لطيفة، يا أيتها الأظافر البريئة) وبينما كان جالسًا على السرير على هذا النحو، عاريًا، بحيث إنه كان يعرض كامل ظهره النحيل بدءًا بالعصعص وانتهاء بالفقرات الرقبية للمراقبين خلف باب الزنزانة (سُمِع همسٌ هناك، كما راحوا يناقشون أمرًا ما، وهم يخشخشون ولكن لا بأس، ليكن ذلك)، كان بإمكان سينسينات أن يمثِّل دور فتى مريض حتى أنَّ الناحية القفوية عنده مع حفرة متطاولة وجديلة من الشعر المبلل، كانت أقرب إلى الصبيانية وكان سهل الانقياد إلى حدٍّ استثنائي وغير مسبوق. كما أخرج سينسينات من نفس ذلك الصندوق مرآة صغيرة وعلبة فيها محلول عابق لطالما كان يذكِّره بذلك الفأر سميك الوبر الذي كان معلّقًا على جانب مارفينكا باستمرار. فرَكَ وجنتيه الشائكتين وهو يتحاشى الشاربين بمهارة وتأنٍّ.

الآن بات رائعًا ونظيفًا. تنفس الصعداء وارتدى قميص النوم المنعش الذي كان ما يزال يفوح برائحة الغسيل المنزلي.

هبط الظلام. كان مستلقيًا وقد راح يتابع سباحته. قام روديون في الوقت المعتاد بإشعال الضوء وبحمل الدلوَ المخصص للأوساخ. نزل العنكبوت إليه على خيط صغير وجلس على الإصبع الذي مدّه روديون للحيوان الأشعث وهو يتحدث معه كما لو أنه يتحدّث مع كناري. في هذه الأثناء كان الباب الذي يفضي إلى الممر مفتوحًا بعض الشيء وهناك لاح شيء كما... للحظة تدلّت نهايات مجدولة لخصلات شعر أشقر ثم اختفت عندما تحرّك روديون وهو ينظر نحو الأعلى، إلى البهلوان الصغير جدًّا الذي ارتفع إلى ما تحت قبّة السيرك. بقي الباب مفتوحًا بمقدار ربع المسافة. راح روديون البدين بلحيته الحمراء المجعّدة وفي مئزر من الجلد، يتحرّك في الزنزانة ببطء بحيث إنه حين شخرت قبيل المعركة ساعة الحائط (التي أصبحت قريبة الآن بفضل الاتصال العابر للجدران)، أخرج من مكان ما في عبّه ساعة جيب قديمة وقام بضبطها. بعد ذلك، وإذ كان يعتقد أنَّ سينسينات نائم، راح يتأمله مطوّلاً وهو يستند إلى المكنسة كما لو أنها مِطْرَد((29)). ثم تململ من جديد بعد أن بلغ به التفكير شأوًا غير معروف... دخلتْ عبر الباب أثناء ذلك من دون صوت وعلى مهل كرة مطاطية حمراء وزرقاء، تدحرجت بمحاذاة أحد ضلوع الغرفة إلى تحت السرير مباشرة حيث اختفت ورنّت هناك للحظة، لتعود وتتدحرج خارجة على طول ضلع آخر، أي باتجاه روديون الذي قام بركلها برجله مصادفة ومن دون أن ينتبه لوجودها، ثم مرَّ من فوقها وعندئذ قفزت الكرة على طول الوتر عائدة من نفس فتحة الباب التي جاءت منها. حمل روديون المكنسة على كتفه وغادر الزنزانة. انطفأ الضوء.

لم يكن سينسينات نائمًا، لم يكن نائمًا، لم يكن نائمًا كلا، بل كان نائمًا ولكنه خرج من حالة الوسن وهو يئنّ وها هو غير نائم من جديد، كان بين الصحو والنوم بحيث إنَّ كلَّ شيء اختلط عليه تمامًا، مارفينكا، مقصلة، ومخمل ناعم وكيف سيكون ذلك بالتحديد؟ إعدام أم موعد؟ حدث انصهار كامل ونهائي، ولكنه عصر عينيه للحظة أخرى بحيث إنَّ الضوء اشتعل ودخل روديون على رؤوس قدميه، التقط الكتالوج الأسود عن الطاولة وخرج لينطفئ الضوء من جديد.

VI

ما هذا الذي كان عبر كل ما هو رهيب وفظيع، ما هو ليلي وأخرق غير بارع ما هذا الذي كان؟ كان هو آخر مَن غيّر مكانه، وقد راح يتنازل على مضض ومرغمًا لأثقال النوم القاهرة والقوية، وها هو يندفع الآن خارجًا في المقام الأول: شيء ما لذيذ، لطيف، مُتنامٍ ويزداد وضوحًا ويغمر القلب بدفءٍ كبير: سوف تأتي مارفينكا عمّا قريب!

في هذه اللحظة جلب روديون رسالة بنفسجية اللون على طبق كما يحدث في المسرح. جلس سينسينات على حافة السرير وقرأ فيها ما يلي: «مليون عفوًا! وقعتْ هفوة لا تغتفَر! تبيّن، بعد الرجوع إلى روح القانون، أنه لا يُسمَح بإجراء اللقاء إلاّ بعد مرور أسبوع على صدور الحكم. ولذلك سوف يؤجَّل اللقاء حتى يوم غد. أرجو أن تكون بخير، مع تحياتي، وللعلم ما زال لدينا الكثير من المشاغل، ذلك أن الطلاء الذي تم إرساله من أجل الأكشاك لم يكن صالحًا مرة أخرى، وهذا ما سبق وكتبت عنه ولكن من دون فائدة».

راح روديون يجمع عن الطاولة أدوات الطعام التي بقيت من يوم أمس وهو يحاول ألاّ ينظر نحو سينسينات. كان الطقس غائمًا بكل تأكيد: إذ إنَّ الضوء المتسرّب من الأعلى كان رماديًّا، بحيث إنَّ الملابس الجلدية القاتمة التي كان يرتديها روديون صاحب القلب الرقيق كانت تبدو رمادية وباهتة.

قال سينسينات:

ليكن، حسنًا، حسنًا... بجميع الأحوال أنا عاجز ولا حول لي ولا قوة. (كان سينسينات آخر، الأقل حجمًا، ينتحب وقد انكمش على نفسه). غدًا، ليكن غدًا. بيدَ أنّي سأطلب منك أن تبعث في طلب...

حالاً أعلن روديون على الفور بحماس كما لو أنه كان ينتظر مثل ذلك الطلب ثم خرج راكضًا، لكن المدير الذي كان ينتظر خلف الباب على مضض، جاء مبكرًا بعض الشيء ما جعلهما يصطدمان ببعضهما.

كان رودريغ إيفانوفيتش يمسك روزنامة حائطية، ولم يكن يعرف أين يمكنه أن يضعها.

مليون عفوًا صاح يا لها من هفوة لا تغتفَر! بعد الرجوع إلى روح القانون... كرّر رودريغ إيفانوفيتش ما كتبه نفسه حرفيًّا، ثم جلس على مقربة من سينسينات وأضاف بسرعة: على أية حال يمكنك أن تتقدّم بشكوى، ولكني أرى أنَّ من واجبي تنبيهك إلى أنَّ أقرب مؤتمر سوف ينعقد في الخريف، وأنه حتى ذلك التاريخ سوف تحدث أشياء كثيرة. هل هذا واضح؟

لا أنوي التقدّم بشكوى قال سينسينات بيدَ أنني أريد أن أسأل: هل توجد في الطبيعة المتخيلة أشياء صورية ومُتخيلة تم تركيب هذا العالم المتخيل منها، هل يوجد ولو شيء واحد يمكنه أن يقوم بدور ضمانة على أنك سوف تلتزم بوعدك؟

وعد؟ سأل المدير باندهاش وقد توقّف عن التهوية لنفسه بالقسم الكرتوني من الروزنامة (وعليه لوحة ملونة تظهر فيها القلعة عند الغروب) عن أي وعد تتحدّث؟

بخصوص مجيء زوجتي يومَ غد. لنفترض أنك لا توافق على إعطائي ضمانة في هذه الحالة بالتحديد وعندئذ أصيغ السؤال بصورة أكثر شمولية: هل يوجد بشكل عام، وهل يمكن أن يوجد في هذا العالم ولو أي نوع من أنواع الضمانات، ولو كفالة ما أم أنَّ حتى مجرّد فكرة الضمان هنا غير معروفة؟

فترة صمت.

يا له من حظ عاثر عند صديقنا رومان فيساريونوفيتش قال المدير هل سمعت؟ لقد أصيب بوعكة صحية ما اضطره لأن يستلقي، ويبدو أنّ حالته خطيرة جدًّا...

لديّ إحساس بأنك لن تجيب عن سؤالي بأي طريقة كانت، وذلك لأنّ انعدام المسؤولية بدوره يقود إلى إنتاج منطق خاص به في نهاية المطاف. لقد عشتُ ثلاثين سنة وسط الأشباح الصلبة من حيث الملمس، وأنا أخفي كوني حيًّا وحقيقيًّا، أما الآن وبعد أن وقعتُ في الفخ، لا يوجد ما يسبب الحرج لي

في التعامل معك. على الأقل، سوف أتحقق بالتجربة من لاواقعية هذا العالم القائم ومن صوريته.

سعَل المدير ثم تابع كلامه كما لو أن شيئًا لم يحدث:

إنَّ وضعه جدّي وخطير لدرجة أنني لا أستطيع أن أجزم، كطبيب، ما إذا كان سيحضر أقصد ما إذا كان سيتعافى حتى ذلك الحين ، هل سيتمكن((bref(30)) Bénéfice(31))يا تُرى من حضور حفلتك التقديرية)) ...

اخرج صاح سينسينات بكل ما لديه من قوة.

لا تقنط تابع المدير غدًا، غدًا سوف يتحقق ما تحلم به... يا لها من روزنامة جميلة، أليس كذلك؟ عمل فني. لا، لستُ أنا مَن أحضرها لك.

أغمض سينسينات عينيه. وعندما فتحهما من جديد، كان المدير واقفًا وسط الزنزانة وقد أدار له ظهره. كان المئزر الجلدي واللحية الشقراء ما زالا مرميين على الكرسي بعد أن نسيهما روديون..

أصبح من الضروري الآن أن يتم تنظيف مسكنك بشكل جيد قال دون أن يستدير للخلف يجب ترتيب كل شيء بمناسبة لقاء يوم غد... وبينما سنقوم بشطف الأرضية، سوف أطلب منك... أرجوك...

غضّن سينسينات جبينه وأغمض عينيه من جديد، فأكمل الصوت الضعيف والخافت:

... أرجو أن تخرج إلى الممر. لن يستمر الأمر طويلاً. سوف نبذل قصارى جهدنا لكي يتم اللقاء غدًا في ظروف نظيفة وأنيقة واحتفالية...

اخرج من هنا صاح سينسينات وقد نهض وراح يرتجف بأكمله.

لا نستطيع تلبية طلبك بأي شكل أعلن روديون برصانة وهو يعبث بأحزمة المئزر الجلدي لا بدَّ لنا من القيام ببعض الأعمال هنا. ألا ترى كم إنّ الغبار

كثير... سوف تشكرنا بنفسك على ذلك.

ثم تأمل وجهه في مرآة جيب صغيرة وقام بتشعيث لحيته على الخدين، ليقترب بعد ذلك من السرير ويناول الثياب لسينسينات كي يرتديها. كانوا قد حشروا بعض الورق المجعّد في الحذاء مسبقًا وعن قصد، كما قاموا بطي أطراف المريول وتثبيتها بواسطة ملاقط. راح سينسينات يلبس ثيابه وهو يترنح ثم خرج إلى الممر متكئًا بعض الشيء على يدِ روديون. هناك جلس على خزنة خشبية صغيرة وأدخل يديه في كمّيه مثل المريض. أما روديون فقد ترك باب الزنزانة مفتوحًا على مصراعيه وباشر عملية تنظيفها. قام بوضع الكرسي على الطاولة؛ انتزع الشرشف عن السرير؛ قرقعت مسكة السطل؛ قلّب تيار الهواء أوراقًا موجودة على الطاولة فاستقرت واحدة منها على الأرض.

ما بالك تبدو محبطًا؟ صاح روديون رافعًا صوته أقوى من ضجيج الماء وطبطبته وقرقعة السطل اذهب وتنزّه قليلاً في الممرات... ولا تخفْ سوف أكون حاضرًا هنا على الفور إذا ما حصل شيء ما، يكفي أن تناديني.

نهض سينسينات عن الخزنة صاغرًا ولكنه بمجرّد أن تحرّك على طول الحائط البارد الذي يجب أن يكون قريبًا من التل الصخري في المكان الذي انبثقت القلعة فيه؛ بمجرّد أنه ابتعد لبضع خطوات وعن أية خطوات يمكن الحديث! خطوات واهنة وعديمة الوزن ومنضبطة؛ بمجرّد أنه نقل موقع وجود روديون والباب المفتوح على مصراعيه والسطول إلى منظور راح يعود القهقرى وإذ بسينسينات يشعر بنفحة من الحرية. ثمَّ أصبحت أقوى وأكبر بعد أن انعطف خلف الزاوية. لم تكن الجدران العارية باستثناء أماكن الوصلات المعرّقة والشقوق، تنطوي على أي علامة من علامات الحياة؛ في مكان واحد فقط قام أحد الأشخاص بالتوقيع بطلاء المُغرَة، وبحركة سريعة من فرشاة الطلاء: «حركة اختبار للفرشاة، اختبار للحزن» وإذ به انتفاخ شنيع. ولأن سينسينات لم يألف السير بمفرده، فقد أحسّ بالتعب في عضلاته كما شعر بوخز في خاصرته.

وعندئذ توقف سينسينات وراح يحدِّق فيما حوله كما لو أنه وقع في مكان صخري ناء، فاستجمع كامل قوّته وإرادته وبدأ يستعيد في مخيلته حياته كاملة وهو يحاول أن يتبيّن وضعه بمنتهى الدقّة. وإذ كان مُتهمًا بارتكاب أفظع أنواع الجرائم، جريمة الشناعة المعرفية النادرة إلى أقصى درجة ممكنة ولا يمكن تصديقها بحيث إنه يضطر لاستخدام إشارات وتلميحات من نوع: الكتامة

وعدم القابلية للنفاذ، عدم الشفافية ويشكّل عائقًا؛ وإذ تم الحكم عليه بالإعدام بسبب تلك الجريمة؛ وتمّ وضعه في سجن القلعة بانتظار ما هو مجهول ولكنه قريب، موعد وشيك لا مفرّ منه لهذا الإعدام (الذي كان محسوسًا من قبله بكل وضوح مثل حركة غريبة في الرقص، وقفزة وخشخشة لضرس فظيع، وبحيث إنَّ جسمه بالكامل كان أشبه بلثة ملتهبة، وأنّ الرأس كان هو ذلك الضرس)؛ كان واقفًا في الممر من ذلك السجن بقلب واجف وهو حي بعد، لم يُلمَس بعد، وهو ما زال سينسيناتيًّا بعد أحسّ سينسينات تس. بنزوع غير طبيعي نحو الحرية، الحرية في أبسط أشكالها، حرية ملموسة، محسوسة وقابلة للتحقق، وقد تخيل بسرعة البرق بوضوح مفرط في حساسيته، كما لو أنَّ كلَّ ذلك كان إشعاعًا متدفقًا وإكليلي الشكل لكينونته تخيّلَ مدينةً خلف النهر الضحل، مدينة يمكن من أية نقطة فيها رؤية القلعة العالية التي يوجد في داخلها الآن تارة على هذا النحو، وتارة من هذا الجانب، تارة واضحة جدًّا، وتارة زرقاء أكثر. وقد كانت نفحة الحرية تلك قوية ولذيذة إلى درجة أنَّ كلَّ شيء بات معها أفضل مما هو في الواقع: سجّانيه الذين بدوا له جميعًا في حقيقة الأمر أكثر لينًا وتسامحًا... وقد كشف العقل في رؤاه الصارمة للحياة عن قُطبة محتملة... كما راح حلم ما يتلاعب أمام عينيه... كما لو أنّ ثمة ألف إبرة قزحية من حول شعاع الشمس الساطع المنعكس على كرة مطلية بالنيكل... وبينما كان واقفًا في ممرٍّ في السجن وقد راح يسمع الدقات القوية لساعة الحائط التي بدأت في هذه اللحظة بالضبط عدَّها غير المتسرّع للزمن، راح يتخيل لنفسه حياة المدينة على النحو الذي كانت عليه عادة في مثل هذه الساعة المبكرة من الصباح: ها هي مارفينكا تحمل سلّة وتخرج من البيت خافضة عينيها فتسلك طريق الرصيف سماوي اللون، ويمشي خلفها على مسافة ثلاث خطوات ذلك الشاب الحاذق وذو الشاربين الأسودين؛ تجري وتجري في المنتزه عربات كهربائية تمَّ تصميمها على شكل بجعات أو قوارب، حيث يجلس المرء فيها كما لو أنه يجلس في مرجوحة للأطفال؛ يحملون من مستودعات الأثاث المنزلي أرائك وكراسي من أجل تهويتها، فيجلس عليها تلامذة المدارس العابرون للحظة كي يرتاحوا، أما ذلك المناوب الصغير الذي يجرُّ عربة يدوية مليئة بالدفاتر وبالكتب، فكان يمسح جبينه على غرار حِرَفيّ ماهر كبير السن؛ تقرقع على الرصيف المضاء والمبلل للجسر عربات ذات مقعدين ويمكن تعبئتها ويطلقون عليها

في الريف اسم «الساعة» (وهي عبارة عن سلالة منقرضة لسيارات الماضي، تلك المحارات الجميلة والمطلية بالورنيش... ولماذا تذكرتها؟ لأنه ثمة صور لها في المجلة)؛ تقوم مارفينكا بانتقاء الفواكه؛ ثمة أحصنة مترهلة وفظيعة كفّت منذ زمن بعيد عن الشعور بالدهشة لمعالم الجحيم، راحت تنقل بضائع من المصانع وتوزّعها حسب العنوان المطلوب في المدينة؛ بائعو الخبز في الشارع ذوو الوجوه المشعة بلون ذهبي وفي سراويلهم البيضاء يصرخون

وهم يقومون بحركات بهلوانية وحركات رشاقة مع الكعك: يرمونه عاليًا ثم يلتقطونه ويفتلونه من جديد؛ وهناك أربعة عمال مرحون في مديرية البرق بالقرب من نافذة تعرّش عليها نبات الوستارية((32)) يغنّون ويدقّون كؤوسهم ويشربون الأنخاب بصحة الناس العابرين؛ لاعب تورية وجناس شهير، وهو عجوز بخيل مع خصلة شعر في أعلى رأسه ويرتدي بنطلونًا أحمر من الحرير، راح يلتهم، وهو يحترق، أولئك المتأنقين والكسالى المتعطلين المشويين في جناح المعرض في «ماليي برودي»؛ ها هي السحب تتفرّق والشمس المبقّعة تعدو على وقع موسيقى الفرقة النحاسية عبر شوارع غير شديدة الانحدار، وتلقي نظرة على الأزقة؛ الناس العابرون يسيرون مسرعين؛ تفوح رائحة الزيزفون والبنزين، والغبار الرطب؛ ثمة نافورة خالدة قرب ضريح الكابتن «الناعس» تسقي وهي ساقطة الكابتن الحجري، والنقش بالقرب من قدميه الشبيهتين بقدمي فيل بالإضافة إلى تلك الورود المهتزّة هناك أيضًا؛ تخفض مارفينكا عينيها وتعود إلى البيت مع سلّة ممتلئة، ويمشي خلفها على مسافة ثلاث خطوات المتأنق أبيض البشرة... هكذا راح سينسينات يرى ويسمع من خلال الجدران طالما أن الساعة كانت تدقّ، وعلى الرغم من أنّ كلَّ شيء في هذه المدينة كان منجزًا في حقيقة الأمر بطريقة ميتة ورهيبة بالمقارنة مع الحياة السرية لسينسينات ومع شعلته الإجرامية، مع أنه كان يدرك بشكل أكيد أنه ليس ثمة مِن أمل، ولكنه مع ذلك كان يتمنى في تلك اللحظة أن يُمنَح فرصة الخروج إلى الشوارع الرقطاء... لكن ها هي ذي الساعة تنهي رنينها، وها هي السماء المتخيلة تتلبد بالغيوم، وها هي الزنزانة تدخل حيز الفعل من جديد.

حبس سينسينات أنفاسه، وتحرّك ثم توقف من جديد وراح يصيخ السمع: دوّى صوت في مكان ما بعيدًا، هناك في الأمام غير المرئي.

كان ذلك صوت رتيب وناعم على شكل ضرْبات أو طرْق، وقد شعر سينسينات الذي راحت كل أوراقه ترتجف، أن الصوت يحمل دعوة له. واصل سيره وكان شديد الانتباه، متلألئًا ورشيقًا؛ بعد أن اجتاز المنعطف خلف الزاوية عددًا كبيرًا من المرات. توقف الطرْق، ولكنه أصبح أقرب كما لو أنه طار على جناح السرعة، مثل طائر نقار الخشب. توك، توك، توك. سرّع سينسينات من خطواته، وإذ بالممر المظلم ينعطف مرة أخرى. فجأة أصبح المكان مضاءً أكثر ولو ليس بدرجة ضوء النهار وإذ بالنقْر يصبح محدّدًا وراضيًا عن نفسه. كانت إمّا التي يضيئها نور شاحب ترمي الكرة على الحائط في المقدمة.

كان الممر في هذا المكان واسعًا، ما جعل سينسينات يعتقد بادئ الأمر أنه توجد نافذة عميقة وكبيرة في الجدار الأيسر، وأنّ ذلك النور الإضافي والغريب إنما يأتي من خلالها. نظرت إموتشكا بخبث وبحياء وهي تنحني لكي تلتقط الكرة، وبنفس الوقت لكي تشد جوربها. انتصبت واقفة الشعرات الصغيرة الشقراء على ذراعيها العاريَين وعلى طول ساقيها. كما لمعت عيناها من خلال رموشها البيضاء. ها هي تستقيم، ترفع عن وجهها خصلات الشعر كتانية اللون بنفس اليد التي كانت تمسك بالكرة.

ممنوع المرور من هنا قالت وقد كان ثمة شيء ما في فمها، بحيث إنه فرقع خلف خدّها مرتطمًا بالأسنان.

ما هذا الذي تمصّينه؟ سألها سينسينات.

مدّت إمّوتشكا لسانها؛ كانت ثمة حبّة مصّ من البرباريس((33)) الفاقع اللون على نهاية لسانها تمامًا.

قالت:

لدي المزيد منه هل تريد؟

هزّ سينسينات رأسه علامة النفي.

لا يجوز المرور من هنا كررت قائلة.

لماذا؟ سألها سينسينات.

رفعت كتفيها وحسب، أثنت يدها مع الكرة وهي تتصنّع وشدّت من ربلتيها، ثم اقتربت من المكان الذي ظنّ سينسينات أنه نافذة، أو فجوة في الجدار وهناك بدأت تتململ لتبدو بساقين أكثر طولاً، ثم جلست على بروز حجري شبيه بحافة النافذة.

كلا، كان ذلك مجرد تجويف، شكل لنافذة؛ غالبًا خزنة زجاجية، وخلفها أجل، وكيف يمكن ألا يكون معروفًا إنها إطلالة على حدائق تامارا.

لم يكن المشهد الطبيعي الذي تم رسمه في عدّة مخططات ومن زوايا مختلفة، وقد أضفيت عليه ألوان خضراء باهتة مع إنارة صادرة عن لمبات مخفية، يشبه إلى درجة معينة المأرضة((34)) أو تصميمًا مسرحيًّا، بقدر ما كان يشبه تلك الخلفية التي تنفخ أوداجها معها فرقة آلات نحاسية. كان كلُّ شيءٍ مجسّدًا بدقة كبيرة من حيث التجمعات والآفاق ولو أنَّ الألوان لم تكن باهتة، ومعها غياب أية حركة في رؤوس الأشجار، وفوق
ذلك الإنارة غير البارعة، كان يمكن في حال زرَّ المرء عينيه، أن يتخيّل لنفسه كما لو أنه ينظر من خلال نافذة في برج، ومن هذا السجن بالتحديد إلى تلك الحدائق. كانت العين الشفوقة ستتعرّف على هذه الدروب وعلى النباتات الشعثاء للخميلة، حيث يوجد مرفأ إلى اليمين، وأشجار سرو قليلة، بل وحتى مسحة شاحبة في منتصف الزرقة غير المقنعة للبحيرة لعلّها بجعة. وأما في العمق من الضباب النسبي والمفترَض، فكانت التلال ترتسم مستديرة، وفوقها، على تلك السماء الرمادية الغامقة، حيث يعيش ويموت المخادعون تحتها، كانت تقف بلا حراك سحب مكفهرّة وركامية الشكل. كلُّ ذلك كان يبدو بطريقة ما غير طازج وقديمًا ومغطّى بالغبار، وكان الزجاج الذي راح ينظر سينسينات من خلاله مليئًا بالبقع كان يمكن للبعض منها أن يستعيد شكل الأصابع الخمسة ليدٍ طفلية.

ومع ذلك، هيا أَخرجيني إلى هناك قال سينسينات هامسًا إني أتوسّل إليك.

كان يجلس إلى جانب إمّوتشكا على البروز الحجري وقد راح كلاهما يحدّق في المدى المتخيل والاصطناعي ما وراء الخزنة الزجاجية، في حين أنها كانت تمرِّر إصبعها بطريقة ملغزة على الدروب المتعرّجة، ففاح شَعرُها برائحة الفانيليا.

ها هو أبي قادم قالت فجأة بصوت أجش وبطريقة مستعجلة وهي تتلفت من حولها: ثم قفزت إلى الأرضية وغابت عن الأنظار.

بالفعل، كان روديون يقترب وهو يقرقع بالمفاتيح من تلك الجهة المعاكسة للجهة التي جاء منها سينسينات (حتى أنه ظنَّ في بداية الأمر كما لو أنّ الأمر يجري في مرآة عاكسة).

قال ممازحًا:

تفضل إلى البيت.

انطفأ الضوء في الواجهة الزجاجية وخطا سينسينات خطوة وهو ينوي أن يسلك نفس الطريق الذي جاء منه إلى هنا.

إلى أين، إلى أين أنت ذاهب! صاح به روديون بل اذهب في طريق مباشر، لأنَّ المسافة أقرب.

وعندئذ فقط أدرك سينسينات أن منعطفات الممر لم تقدْه إلى أي مكان، وإنما شكّلت مضلّعًا متعدد الزوايا وعريضًا. لأنه وإذ انعطف الآن في الزاوية فقد رأى باب زنزانته في العمق، ثم تجاوزها ومرّ بمحاذاة الزنزانة التي يوجد فيها السجين الجديد. كان باب هذه الزنزانة مفتوحًا على مصراعيه، وقد وقف الرجل قصير القامة الذي سبق أن شاهده، على كرسي وراح يدقُّ مسمارًا في الحائط لكي يعلق فيه روزنامة: توك، توك، مثل نقار الخشب.

قال روديون بنبرة متسامحة:

لا تتطلعي من حولك، أيتها العذراء الخجولة بل اذهبي إلى البيت، إلى البيت. إنّ البيت نظيف جدًّا عندك. لدرجة أنك لن تشعر بأي حرج إذا ما رغبت باستقبال الضيوف.

وقد تبين أنه فخور على وجه الخصوص لأن العنكبوت كان مستقرًّا في شبكة نظيفة ومصممة بشكل صحيح تمامًا لا غبار عليها، بحيث بدت وكأنها نسجت للتو.

VII

الصباح ساحر! مفعم بالحرية، ومن دون الاحتكاك السابق، ما جعله يتسلل من خلال الزجاج الشبكي الذي قام روديون بغسله مساء أمس. كانت الجدران الصفراء واللزجة تفوح برائحة مسكن جديد. وكانت المائدة مغطاة بمشمع نظيف وطري، مع فقاعات من الهواء لأنه لم يكن يلتصق بالطاولة بإحكام. كما أنَّ الأرضية التي تمَّ تثبيتها بالمسامير بشكل جيد ومتين، راحت تتنفس ببرودة أشبه ببرودة نافورة.

ارتدى سينسينات أفضل ما لديه من ثياب في الزنزانة وبينما كان يشد جواربه الحريرية البيضاء التي كان يملك الحق بارتدائها كمعلّم أثناء العروض الاحتفالية الكبيرة كان روديون يدخل حاملاً مزهرية مبللة بالماء من الكريستال وفيها أزهار فاونيا مع بتلات عريضة جاء بها من حديقة المدير، ثم وضع المزهرية على الطاولة، في وسطها بل ليس في الوسط تمامًا؛ ثم خرج وهو يرجع للوراء، ليعود بعد دقيقة وهو يحمل مقعدًا بلا مسند وكرسيًّا إضافيًّا، حيث قام بترتيب هذه الأشياء بطريقة أنيقة وليس خبط عشواء. وقد خرج ودخل أكثر من مرة، دون أن يجرؤ تسيسنيات على سؤاله «عمّا إذا كان سينتهي قريبًا» وكما يحدث عادة في مثل وقتٍ خالٍ من الأشغال كهذا، حين تنتظر وأنت في كامل أناقتك قدوم الضيوف دون أن تجد ما تشغل نفسك به فتتسكع، تارة تجلس في أماكن غير مألوفة، وتارة تعيد ترتيب الأزهار في المزهرية بحيث إنَّ روديون في نهاية المطاف أحسَّ بالشفقة وقال إنه بات على وشك أن يغادر بسرعة.

جاء رودريك إيفانوفيتش في الساعة العاشرة تمامًا، وهو يرتدي قفطانه التذكاري الكبير والأفضل لديه، ما جعله يبدو باذخًا وذا شأن، ومتحمسًا جدًّا مع صرامة ووقار؛ وضع منفضة سجائر ضخمة وثقيلة ثم راح يتأمل كلَّ شيء من حوله (باستثناء سينسينات فقط، بحيث إنه كان يتصرف مثل مدير قصر غارق في أشغاله بالكامل، لذلك لم يكن يثير اهتمامه سوى نظافة الأثاث والأغراض الجامدة، تاركًا ما هو حي لكي يتأنق من تلقاء نفسه). عاد وهو يحمل قارورة صغيرة مزوّدة بمضخة مطاطية، ثم راح ينثر بصخب رائحة الحُلمة وهو يدفع سينسينات الذي تعثّر به بطريقة غير لائقة. وقد قام رودريغ إيفانوفيتش بوضع الكراسي بطريقة مختلفة عن الترتيب الذي وضعها روديون عليه، ثم راح ينظر مطوّلاً بعينيه الجاحظتين إلى مساند الكراسي: كانت غير متجانسة ومن نوعية مختلفة كان أحدها مزخرفًا على شكل سمسمية((35))، في حين أنّ

الثاني كان منقوشًا عليه حرف « Π » . وأخيرًا نفخ أوداجه وزفر بقوة ثم استدار إلى سينسينات وسأله:

هل أنت جاهز؟ هل كلّ شيء موجود لديك؟ وهل الأبازيم صالحة؟ لماذا كلُّ شيء لديك هنا مجعّد؟ آهْ منك... هيا دعني أرى راحتي يديك. Bon((36)). يجب عليك من الآن وصاعدًا أن تسعى لكيلا تتسخا. أعتقد أنّ الأمر لن يتأخر كثيرًا بعد الآن.

خرج وراح صوته الجهير يهدر في الممر بنبرة آمرة. فتح روديون باب الزنزانة وقام بتثبيته في هذه الوضعية ومن ثم فرَدَ عند العتبة ممسحة مخططة بالعرض.

إنهم قادمون قال هامسًا وهو يغمز ثم غاب.

سُمِعت في مكان ما ثلاث «طقات» لمفتاح في قفل ما ثم انطلقت أصوات متداخلة مع بعضها، وهبّت نسيمة جعلت الشعر على رأس سينسينات يهتز.

كان يشعر باضطراب كبير، ولذلك راحت شفتاه ترتجفان بشدة متزايدة بحيث إنَّهما اتخذتا شكل ابتسامة.

تفضلوا إلى هنا، ها نحن قد جئنا وصل إلى مسامعه الصوت العميق للمدير، ليظهر بعد لحظةٍ وهو يقود بطريقة مهذّبة وشجاعة، سجينًا بدينًا في بدلة مخططة ممسكًا به من مرفقه؛ توقف السجين قبل أن يدخل على الممسحة للحظة حيث ضمَّ بلا أي صوت كلتا قدميه في حذاء من جلد [السختيان] ثم انحنى بمهارة.

توجه المدير إلى سينسينات بصوت بهيج قائلاً:

اسمح لي أن أقدِّم لك السيد بيير. تفضل، تفضل يا سيد بيير، لا يمكنك أن تتخيل كم انتظروك هنا على مضض... تعرّفا على بعضكما أيها السيدان... إنه

اللقاء الذي طال انتظاره... يا له من مشهد ذي مغزى كبير... لا تأنف يا سيد بيير، أرجو عدم المؤاخذة.

لم يكن هو نفسه يدرك ما يتفوّه به راح يختنق ويرقص في مكانه بطريقة خرقاء وهو يفرك يديه بحيث إنه كاد ينفجر من شعوره بالارتباك اللذيذ.

كان السيد بيير شخصًا هادئًا ورزينًا، فاقترب ثم انحنى من جديد فما كان من سينسينات إلاّ أن قام بمصافحته بشكل لاإرادي، مع العلم أنَّ بيير ظلَّ قابضًا لمدة أطول من المعتاد لا تزيد عن أجزاء من الثانية، على أصابع سينسينات الهاربة في راحة يده الصغيرة والطرية، مثلما يطيل المصافحة الطبيب اللطيف والطاعن في السن بطريقة
لطيفة وبشهية كبيرة ومن ثم أفلتها.

قال السيد بيير بصوت ناعم صادر من الحلق:

وأنا أيضًا في غاية السعادة لأن أتعرّف عليك في نهاية المطاف. باختصار شديد، لديّ أمل كبير بأننا سوف نتفق.

بكل تأكيد، بكل تأكيد قال المدير وهو يضحك بصوت مرتفع آه، تفضل واجلس... وتصرّف كما لو أنك في بيتك... السعادة تغمر زميلك لرؤيتك ولقائك بحيث إنه لا يجد الكلمات المناسبة للتعبير عن هذا الشعور.

جلس السيد بيير ليتبيَّن أن رِجلَيه لا تصلان إلى الأرض تمامًا: لكن هذا الأمر لم يحرمه على الإطلاق من تلك الرصانة ولا من تلك الوجاهة المميزة التي تهبها الطبيعة لبعض الأشخاص السمان المختارين. بل راح يتأمل سينسينات بعينيه الرائقتَين واللامعتين بطريقة مؤدبة وراقية، في حين أنَّ رودريغ إيفانوفيتش جلس بدوره إلى الطاولة وهو يبتسم ويشجِّع وينتشي من فرط الجذل، ثم راح ينقِّل نظراته بين هذا وذاك، مراقبًا بطريقة نهمة ذلك الانطباع الذي ينشأ عند سينسينات بعد كلِّ كلمة يقولها الضيف.

قال السيد بيير:

إنك شديد الشبه بوالدتك. ومع أنني شخصيًّا لم يسبق لي أن التقيتُ بها أو رأيتها، ولكن رودريغ إيفانوفيتش وعدني بمنتهى اللطافة أن يعرض عليَّ صورتها.

سمعًا وطاعة قال المدير سوف نتدبّر الأمر.

واصل السيد بيير كلامه:

على العموم، وبغضّ النظر عن ذلك، لديّ شغف كبير منذ الطفولة بالصور، وقد أصبح الآن عمري ثلاثين عامًا، وأنت، كم عمرك؟

قال المدير:

عمره ثلاثون عامًا بالتمام والكمال.

هذا يعني أنني خمّنتُ بشكل صحيح، كما ترى. وبما أنك أنت أيضًا تهتم بذلك فسوف أعرض عليك بعض الصور...

ثم تناول برشاقته المعهودة من جيب موجود على صدر سترة البيجاما محفظةً منتفخة، وأخرج منها رزمة ثخينة من صور الهواة من الحجم الصغير جدًّا. قام بتقليبها كما لو أنها أوراق شدّة لعب صغيرة جدًّا، ثم بدأ يضعها واحدة تلو الأخرى على الطاولة، في حين أنَّ رودريغ إيفانوفيتش راح يلتقطها وهو يصيح من فرط إعجابه ويتأملها مطوّلاً فكان يسلّم الصورة بعد أن يمتّع نظره بها أو يتناول صورة تالية ويتابع نفس الفعل وذلك على الرغم من أنَّ كلَّ شيء فيما بعد كان يجري بهدوء وبصمت. كان السيد بيير هو الموجود على كافة الصور، وفي أوضاع مختلفة جدًّا تارة في الحديقة وهو يحمل في يديه طماطم حازت على جوائز، وتارة وهو يجلس على أحد ردفيه على درابزين ما (صورة جانبية مع غليون في فمه)، وتارة وهو يقرأ في كرسيٍّ هزّار، وإلى جانبه كأس فيها قشة للشرب...

راح رودريغ إيفانوفيتش يهز رأسه كاشفًا عن بعض التردد والخجل، يحدِّق في كلِّ صورة بل وحتى أنه كان يمسك باثنتين دفعة واحدة وهو ينقّل نظره من واحدة إلى أخرى ويقول:

مذهل، رائع. ياه، لديك عضلات مفتولة! مَن كان بإمكانه أن يظن ذلك مع بنيتك الرشيقة. يا له من أمر مدهش! كم أنت جميل ولطيف بينما تتحدث مع الطائر!..

إنه طائر مُدرَّب علّق السيد بيير قائلاً.

هذا ممتع حقًّا! إنه مثير... وما هذا لا بدَّ أنك تأكل البطيخ الأحمر!

هكذا بالضبط قال السيد بيير أما الصور تلك فقد سبق أن شاهدتها. انظر إلى هذه.

يجب أن أقول لك إنها ساحرة. هيا ناولني هذه الدفعة من الصور، فهو لم يشاهدها بعد...

أنا هنا أمارس ألعاب الخفة مع ثلاث تفاحات قال السيد بيير.

رائع! حتى أنّ المدير طقطق بلسانه.

بينما كنت أتناول الشاي صباحًا قال السيد بيير هذا أنا، وأما هذا فهو أبي المرحوم.

إني أعرفه، بلى، بلى... يا لها من تجاعيد في غاية النبل على وجهه...

كنا على شاطئ نهر ستروب قال السيد بيير هل سبق أن كنت هناك؟ توجّه بسؤاله إلى سينسينات.

يبدو لي أنه لم يكن هناك أجاب رودريغ إيفانوفيتش وهذه الصورة أين بالضبط؟ يا له من معطف أنيق! للعلم، إنك تبدو هناك أكبر سنًّا. مهلاً، أريد أن ألقي نظرة مرة أخرى على تلك الصورة مع دلوٍ لصبّ الماء.

هكذا يكون ذلك كل ما أحمله معي... قال السيد بيير ومن ثم توجّه بالحديث إلى سينسينات مرة أخرى: لو أنني كنت أعرف أنك تهتم بالصور، كنت حملت معي ألبومات أخرى، لأنه يوجد لدي حوالي عشرة ألبومات.

أمر رائع ومذهل حقًّا كرر رودريغ إيفانوفيتش وهو يمسح بمنديل أرجواني اللون عينيه اللتين امتلأتا بالدموع بسبب لحظات الضحك السعيد والتأوهات والانفعالات.

طوى السيد بيير محفظته. وإذا بمجموعة من أوراق اللعب تظهر فجأة في يده.

ليتفضل كل واحد منكما ويضمر ورقة واحدة، أي ورقة تريد؟ طلب وهو يوزّع الأوراق على الطاولة؛ دافعًا منفضة السجائر بمرفقه. ثم تابع توزيع الأوراق.

لقد ضمرنا ورقة قال المدير بحيوية.

قام السيد بيير وهو يعبث ويهرّج بوضع إصبعه مع الخاتم على جبينه؛ ثم جمع أوراق اللعب بسرعة وراح يخلطها بطريقة حاذقة ويتمتم فوقها، ليخرج منها فجأة ورقة ثلاثة إسباتي.

هتف المدير:

هذا مدهش! مذهل بكل بساطة.

ثم اختفت مجموعة أوراق اللعب بنفس السرعة والخفة التي ظهرت بها وبعد أن رسم على وجهه علامات السكينة ورباطة الجأش، قال السيد بيير:

ذهبت امرأة عجوز إلى الطبيب وقالت: لدي مرض خطير، يا حضرة الطبيب، وأنا خائفة بشدّة من أنني سوف أموت بسببه... فسألها الطبيب: وأية أعراض لديك؟ قالت: إنَّ رأسي يهتز، يا حضرة الطبيب ثم راح السيد بيير يقلِّد العجوز وهو يغمغم ويهتز.

راح رودريغ إيفانوفيتش يقهقه بطريقة متوحشة وهو يضرب الطاولة بقبضة يده، لدرجة أنه كاد يسقط عن الكرسي، كما راح يسعل ويئنّ، ولم يهدأ إلاّ بصعوبة.

إنك يا سيد بيير روح المجتمع حقًّا دمدم مع عينين دامعتين روح حقيقية وحيّة! لم يسبق لي طوال حياتي أن سمعت مثل هكذا نكتة مضحكة إلى هذه الدرجة!

كم أنت حزين وكم أنت رقيق قال السيد بيير مخاطبًا سينسينات، وهو يمطُّ شفتيه كما لو أنه ينوي إضحاك طفل عابس فأنت صامت باستمرار، في حين أنّ شاربَيك يهتزان، كما أن الشرايين على رقبتك تنبض وعينيك غائمتان...

هذا كلّه من فرط السعادة سارع المدير ليتدخل ويقول N'y faites pas ((attention((37

عقّب السيد بيير قائلاً:

نعم، إنه يوم سعيد بالفعل، يوم مشرق. وإن روحي أنا بالذات مبتهجة جدًّا... لا أريد أن أتبجّح، ولكنك، يا زميلي، سوف تكتشف لديّ مزيجًا نادرًا من القدرة الخارجية للتواصل والأنس مع الكياسة الداخلية، ميلاً للثرثرة وقدرة على ضبط النفس والتزام الصمت، وأيضًا حب المرح والجديّة... مَن ذا الذي يواسي طفلاً رضيعًا ينتحب، ويقوم بإصلاح دميته؟ إنه السيد بيير. ومَن ذا الذي سيدافع عن أرملة؟ السيد بيير. مَن ذا الذي سوف يسدي نصيحةً رصينة، ومن سينصح بالعلاج المناسب، ومَن ذا الذي سيحمل خبرًا مفرحًا؟ مَن؟ مَن؟ إنه السيد بيير. السيّد بيير هو كلّ شيء.

رائع! يا لها من موهبة! هتف المدير كما لو أنه كان يسمع قصيدة شعرية وفي الوقت نفسه كان يغضّن جبينه ويمسح شاربيه وهو يختلس النظر إلى سينسينات باستمرار.

واصل السيد بيير حديثه قائلاً:

وهكذا، يُخيل إليّ ثم قاطع نفسه وقال: بالمناسبة: هل أنت راض عن الغرفة؟ أليس الجو باردًا أثناء الليل؟ وهل يقدمون لك كمية كافية من الطعام؟

إنه يحصل على ما أحصل عليه أنا بالذات أجاب رودريغ إيفانوفيتش إنَّ المائدة هنا رائعة.

طاولة((38)) رائعة من خشب الجوز قال السيد بيير ممازحًا.

كان المدير يريد أن يضرب الطاولة مرّة أخرى بقبضة يدِه، ولكن الباب فُتِح فجأة ودخل أمين مكتبة السجن ذو القامة الطويلة بوجهه المتجّهم وهو يحمل رزمة من الكتب تحت إبطه. كان عنقه ملفوفًا بوشاح صوفي. رمى الكتب على السرير دون أن يلقي التحية على أحد فظهرت فوق الكتب للحظة قصيرة أخيلة هندسية مجسّمة مكوّنة من الغبار لتلك الكتب حلّقت الأخيلة لبرهة ثم اهتزت وتلاشت.

قال رودريغ إيفانوفيتش:

مهلاً، يبدو أنكما لا تعرفان بعضكما بعضًا.

أومأ أمين المكتبة برأسه موافقًا دون أن ينظر إلى السيد بيير، في حين أنَّ السيد بيير المؤدّب قام قليلاً عن الكرسي.

هيا، يا سيد بيير، من فضلك اعرض عليه خدعتك قال المدير متوسّلاً وهو يضع راحة يدِه على مريلة قميصه.

آ، ولكن هل الأمر يستحق حقًّا... إنه أمر تافه... قال السيد بيير يريد التواضع، لكن المدير لم يستسلم:

بل إنها أعجوبة، سحر أحمر! نرجوك! هيا، تكرّم علينا بذلك... ثم صاح مخاطبًا أمين المكتبة الذي خطا باتجاه الباب: مهلاً، مهلاً، تريّث قليلاً. سوف يعرض عليك السيد بيير حيلته. نحن نرجوك ونتوسل إليك. ابقَ، ولا تذهب أنت...

هيا اضمر واحدة من أوراق اللعب هذه قال السيد بيير بنبرة هزلية ثم خلط الأوراق مع بعضها ليُخرِجَ منها ورقة خمسة البستوني.

كلا، ليست هذه الورقة قال أمين المكتبة ثم خرج.

هزّ السيد بيير كتفه المدوّرة والصغيرة.

قال المدير: سوف أعود حالاً.

ثم خرج.

بقي سينسينات وحيدًا مع ضيفه. فتح سينسينات أحد الكتب وراح يقرأ فيه بتركيز كبير، أي أنه ظلَّ يعيد قراءة العبارة الأولى فيه. راح السيد بيير يتأمله مع ابتسامة لطيفة وسمحة على وجهه، واضعًا يده براحة مقلوبة نحو الأعلى على الطاولة، كما لو أنه يريد أن يقترح السلام على سينسينات. عاد المدير. كان يقبض على الوشاح الصوفي بقوة.

لعلّك ستحتاج إليه، يا سيد بيير قال المدير وهو يناوله الوشاح، ثم جلس بطريقة صاخبة مثل حصان، وهو يتنفس مع شخير وراح يتأمل إبهامه الذي كان يبرز في نهايته ظفر ممزق جزئيًّا على شكل منجل.

عمَّ كنّا نتحدّث، يا تُرى؟ هتف السيد بيير بلباقة ساحرة كما لو أنه لم يحصل أي شيء يستحق الاهتمام آه، نعم، كنا نتحدّث عن الصور الشخصية. سوف أجلب ذات يوم آلة التصوير الخاصة بي وسألتقط صورًا لك. سوف يكون هذا مسلّيًا. ما هذا الذي تقرأه، ألا يمكنني أن ألقي نظرة؟

يتعين عليك أن تضع الكتاب جانبًا أشار المدير بصوت مبحوح ذلك لأنَّ ضيفًا يجلس عندك.

دعه وشأنه قال السيد بيير وهو يبتسم.

سادت لحظة صمت.

نظر المدير إلى الساعة وقال بصوت مكتوم:

أصبح الوقتُ متأخرًا.

بلى، سوف نذهب بعد قليل... أفّ، يا له من بعبع((39))... انظر، انظر الشفاه ترتجف... يُخيّل أن الشمس سوف تطلُّ عمّا قريب... أيها البعبع، أيها البعبع!..

هيا بنا نذهب قال المدير وهو ينهض.

حالاً... أنا أشعر بالراحة هنا لدرجة أنني لا أرغب بالرحيل... على أية حال، أيها الجار اللطيف، سوف أستغلّ الإذن الممنوح لي وسوف أزورك كثيرًا، كثيرًا في حال أعطيتني الموافقة على ذلك بالطبع. وأنت تمنحني مثل هذا الإذن، أليس كذلك؟.. وهكذا، إلى اللقاء. وداعًا! إلى اللقاء!

راح السيد بيير يرجع نحو الوراء وهو ينحني بطريقة مثيرة للضحك ويقلِّد أحدًا ما؛ فأمسك به المدير من مرفقه مرة أخرى وهو يطلق صوتًا أجشَّ ومبهجًا جدًّا. غادرا، ولكن في آخر لحظة سُمِع صوت يقول: «أنا آسف، لقد نسيتُ أمرًا ما، سوف ألحق بك فورًا» ثم عاد المدير ودخل بسرعة إلى الزنزانة فاقترب من سينسينات وقال له وقد تلاشت الابتسامة عن وجهه للحظة:

أشعر بالحرج وبالعار قال بصوت أشبه بالصفير وهو يكزُّ على أسنانه أشعر بالعار بسببك. لقد كان تصرفك أقرب إلى... أنا قادم، قادم صاح وهو يبتسم من جديد التقط المزهرية مع أزهار عود الصليب ورشَّ الماء منها ثم خرج.

ظلَّ سينسينات محدِّقًا في الكتاب. سقطت قطرة ماء على الصفحة. تحوّلت بضعة حروف بسبب قطرة الماء من الحجم الطباعي الصغير إلى خط طباعي من نوع شيشرون، وراحت تلمع كما لو أنها تحت عدسة مكبّرة.

VIII

(هناك مَن يبرون قلم الرصاص باتجاه أنفسهم كما لو أنهم يقشّرون البطاطا، وهناك من ينظفونه بعيدًا عنهم مثل العصا... وروديون من هذا الصنف الثاني. كانت توجد معه سكين قابلة للطي قديمة ومع عدّة شفرات ومفتاح للفلّين. كان مفتاح الفلّين موجودًا من الجهة الخارجية).

«اليوم هو اليوم الثامن (كتب سينسينات بقلم رصاص أصبح أقصر بمقدار يزيد عن الثلث)، وأنا لم أزل لا حيًّا فحسب، أي إنني مُحدَّد ومحجوب ببدانتي، بل وإنني مثل أي إنسانٍ فانٍ، لا أعرف زمن فنائي ويمكنني أن أستخدم بحق نفسي معادلة صالحة للجميع: تتناقص احتمالية المستقبل ضمن علاقة عكسية مع نهايته التخمينية. لكن الحقيقة هي أنَّ الحذر يفرض في حالتي أنا بالتحديد أن أستخدم أرقامًا صغيرة جدًّا، ولكن مع ذلك لا بأس، لا بأس، فأنا ما زلتُ حيًّا. وفي هذه الليلة بالذات وهذا لم يحدث لأول مرّة أصبتُ بحالة خاصة مميزة: رحت أنزع عن نفسي الأغلفة واحدًا تِلو الآخر، وأخيرًا... لا أعرف كيف أصف ذلك بيد أنني أعرف التالي: أصل عن طريق الإفشاء التدريجي إلى النقطة الأخيرة، غير القابلة للقسمة، والصلبة والمشرقة، وأنّ هذه النقطة تقول: أنا موجود! مثل خاتم مع لؤلؤة في الشحم الدامي لسمكة قرش إنها لؤلؤتي الوفية، الخالدة... وأنا أكتفي بهذه النقطة ولا أحتاج إلى ما هو أكثر من ذلك. من المحتمل، أن مواطن القرن القادم، الضيف المستعجل والعابر (لم تستيقظ صاحبة البيت بعد)، ربما سيكون، ببساطة، مجرّد غول للعرض في هذا العالم اللامع والبرّاق إلى درجة احتفالية يائسة لقد عشتُ حياة قاسية ومؤلمة، وأريد أن أوضِّح وأن أشرح هذا الألم وهذا العذاب ولكني ما زلت أخاف من أنَّ الوقت قد لا يسعفني للقيام بذلك. فأنا، ومنذ وعيت لنفسي وأذكر نفسي مع حذر يتعدى حدود القانون مجرّد عميل خاص يعرف كثيرًا جدًّا عن ذاته، ولذلك هو خطير، ولذلك... وأنا أنطلق من مثل تلك الظلمة الحالكة التي أعوي فيها مثل ذئب، مع قوة دافعة، ومع حماس لدرجة أنني ما زلت أشعر (تارة في الحلم أثناء النوم، وتارة وأنا أغوص في ماء ساخن جدًّا) بذلك الارتجاف الدائم عندي، وبأول حرق، وبنابض الأنا عندي. كيف قفزتُ خارجًا وأنا زلقٌ وعارٍ. نعم، من المنطقة التي قام آخَرُ بحجزها وهي غير متاحة، بلى، إني أعرف شيئًا ما، بلى... ولكن حتى الآن، عندما انتهى كلّ شيء بكافة الأحوال، إلى الآن... هل أخشى أن أقوم بإغواء أحد؟ أما أنني لن أنجح في تحقيق ما أصبو إليه من خلال ما أودّ قوله، وإنما ستبقى مجرّد جثث سوداء لمفردات مخنوقة، كما لو أنها أوغاد ومجرمون يستحقون الإعدام شنقًا... أو مقالات مسائية قصيرة لأفعال، مجرّد غربان... يُخيّل إليّ أنني كنت سأفضّل

حبل المشنقة، وذلك لأنني أعرف بشكل مؤكد ومن دون أدنى تردد أنَّه سوف يكون ثمة فأس؛ إنه كسبٌ للوقت الذي أكثر ما يكون ثمينًا الآن بالنسبة لي، لدرجة أنني أقدِّر كثيرًا كل لحظة التقط فيها أنفاسي، وكلّ لحظة تأجيل للتنفيذ... وأنا أقصد زمن الفكرة تلك النقاهة أو الاستراحة التي أمنحها لفكرتي كي تقوم برحلة مجانية من الحقيقة نحو الخيال ومن ثمّ العودة... كما أنني أقصد أشياء أخرى كثيرة، لكن عدم امتلاكي لِمَلَكَة الكتابة، والعجلة والاضطراب، ومن ثم الوهن... أنا أعرف بعض الأمور. إني أعرف شيئًا ما. لكن هذا الشيء يصعب التعبير والإفصاح عنه! كلا، لا أستطيع... أتمنى أن أتخلّى في الوقت نفسه عن ذلك الشعور كما لو أنك تصعد وأنت تغلي مثل الحليب، بحيث إنك ستفقد عقلك من جرّاء الدغدغة، في حال أنك لم تقم بالتعبير ولو بطريقة ما. أواه، كلا أنا لا أقبل بأن ألعق شخصيتي، ولا أضمرُ أيَّ جلبة صاخبة مع روحي في غرفة مظلمة؛ لا يوجد لديَّ أي رغبات على الإطلاق، باستثناء الرغبة بأن أفصح عمّا يجول في خاطري لكافة الخرس العالمي على سبيل النكاية. إني أشعر برعب شديد. كما أني أشعر بالقرف إلى أقصى حد. بيدَ أنه ما مِن أحد قادرٍ على أن ينتزعني من نفسي. أشعر بالخوف وها أنا ذا أفقد خيطًا ما كنتُ أُمسك بطرفه بشكل ملموس للتوِّ فقط. أين هو؟ لا بدَّ أنه أُفلِتَ وسقط! أرتجف فوق الورقة، وأقضم حتى أصل إلى الغرافيت، أسعى لأن أتكوَّر فأخفي نفسي عن الباب الذي تغزّني من خلاله نظرة خارقة في قفا رأسي ويُخيَّل إليَّ أنني على وشك أن أقوم بتجعيد كلّ شيء، ومن ثم أمزقه... لقد جئتُ إلى هذا المكان عن طريق الخطأ وليس إلى الزنزانة بالتحديد وإنما بصورة عامة إلى هذا العالم الفظيع والمُخطَّط: مثال أنموذجي ومناسب للفنون اليدوية، لكنه في واقع الأمر كارثة، ورعب، جنون وخطأ وها هو دبٌّ خشبي هائل ينهال عليَّ بمطرقته الخشبية. مع العلم أنني كنت أرى أحلامًا منذ طفولتي الباكرة... وقد كان العالم في أحلامي موسومًا بالنبل كما أضفيت عليه سمات روحانية؛ كان الناس الذين كنت أخاف منهم في اليقظة إلى درجة كبيرة، يظهرون في الحلم وهم في حالة انكسار مرتعش، كما لو أنهم مشبعون ومحاطون تمامًا بلعبة الهواء تلك، التي تمنح الحياة في وقت القيظ لظلال الأشياء بالذات؛ كما كانت أصواتهم وخطواتهم وتعبير عيونهم، بل وحتى تعبير ملابسهم، تكتسب أهمية مثيرة للاضطراب؛ ويمكن القول بعبارة أبسط: كان العالم ينتعش في أحلامي، ويصبح مهمًّا وحرًّا وشفيفًا بطريقة ساحرة، بحيث إنني كنت أشعر فيما بعد بصعوبة استنشاق هباء الحياة المرسومة. فضلاً عن أنني اعتدتُ ومنذ زمن بعيد على فكرة أنَّ ما ندعوه أحلامًا ليس سوى شبه حقيقة ووعد بما هو واقع، ما هو مقدمة للواقع ونفحة له، أي إنها تنطوي في ذاتها، في حالة غائمة جدًّا، في حالة مخففة على حقيقة فعلية تزيد ما

يتضمنه واقعنا الذي نمدحه ونبجله ونحن في حالة اليقظة والصحو، والذي يشكل بدوره حالة أشبه بالنوم، أو هجوع كريه، حيث تتسلل من الخارج

أصوات وصور العالم الحقيقي وهي تتبدّل بطريقة غريبة وشاذة، ذلك العالم الذي يتدفق إلى خارج محيط الوعي بحيث إنه يحدث أن تسمع في حلمك قصة ماكرة وخطيرة، لأن غصنًا يخشخش على الزجاج، أو لأنك ترى نفسك وقد سقطت في الثلج لأن البطانية انزلقت عنك. ولكن كم أخشى أن أستيقظ! كم أخشى تلك اللحظة، والأدق: نصف اللحظة التي تم اقتطاعها مسبقًا، حين أصدرتُ طبطبةً أقرب إلى صوت تكسّر الحطب... وما الذي أخاف منه؟ إذ إنَّ ذلك سيكون بالنسبة لي مجرّد ظلّ لفأس، وبحيث إنني لن أسمع من خلال ذلك الصوت «هيا» المندفعة نحو الأسفل. ومع ذلك أخاف! ولا يمكنك رفض الاشتراك ببساطة. كما أنه ليس بالأمر الحسن أن يقوم الثقب الموجود في المستقبل بامتصاص فكرتي بصورة دائمة فأنا أريد أمرًا آخر، أريد توضيح شيء آخر... لكني أكتب بطريقة غامضة وكسولة، كما هي الحال مع المشاركة في مبارزة شعرية عند بوشكين. يبدو لي أنها ستظهر عندي عين ثالثة من الخلف عمّا قريب، على الرقبة، بين فقراتي الهشّة: عين طائشة مسعورة، فتحة واسعة مع حدقة تتنفس وتلافيف وردية اللون على تفاحة لامعة. لا تلمسها! بل حتى بقوة أكبر، مع صوتٍ أجش: لا تلمسها! فأنا أتنبأ بكلّ شيء! وكثيرًا ما يتردد في أذنيَّ نعيبي المستقبلي وسعالي المحتدم والرهيب الذي يصدره شخص قُطِع رأسه حديثًا. بيدَ أنَّ هذا كلّه ليس هو المقصود، ولذلك فإنَّ نقاشي عن الأحلام وعن اليقظة أيضًا ليس هو المطلوب... مهلاً! ها أنا ذا أشعر من جديد بأنني سوف أفصح وسأعبّر بشكل حقيقي، أنني سوف أصطاد الكلمة. وا أسفاه، لم يعلّمني أحد هذه الحيلة في الصيد، وأما فن الكتابة الفطري القديم الذي نسيتُه منذ زمن طويل عندما لم تكن ثمة حاجة له في المدرسة، فقد راح يشتعل وينتشر مثل النار في الهشيم وها هو الآخر يبدو لي الآن مستحيلاً أيضًا، مثل الموسيقى التي كانت تُستخرّج ذات يوم من قلب البيانو الضخم، ذلك البيانو الذي كان يخرخر أو يحطِّم العالم بصورة مفاجئة إلى قطع كبيرة متلألئة ومتكاملة أنا تحديدًا أتصوَّر لنفسي كلّ ذلك بوضوح تام، أما أنتم فلستم أنا، وفي هذا تكمن التعاسة غير القابلة للإصلاح. دون أن أتقن فن الكتابة، ولكني قادر أن أخمِّن من خلال الغريزة الإجرامية كيف يمكن ترتيب المفردات، وماذا يجب أن أعمل لكي تنتعش وتحيا الكلمة العادية، بحيث إنها تستعير من جارتها لمعانها وإشراقها، حرارتها وظلّها، ومن ثم تنعكس هي ذاتها فيها فتجدّدها من خلال هذا الانعكاس بحيث إن السطر بأكمله يتحول إلى تدفق حي؛ وإذ أخمِّن مثل هذا التجاور بين الكلمات، أجد نفسي في الوقت نفسه عاجزًا عن تحقيقه، علمًا أنني بأمسِّ الحاجة إلى ذلك على وجه التحديد من أجل القيام بمهمتي غير الآنية وغير المحلية والحالية. ليس هنا! إن «هنا» البليدة والغبية، التي يدعمها ويغلقها زوج من مفردة «حازم»، عبارة عن سجن مظلم حُبِسَ فيه رعب يعوي باستمرار، وهو يُمسك بي ويخنقني. ولكن عن أية خيوطٍ من الضوء في الليالي يمكن الحديث، عن أي...إنه موجود، عالمي القائم على

الأحلام، ولا يمكن ألا يكون، لأنه ينبغي أن يكون ثمة نموذج أو مثال، طالما أنها توجد نسخة خرقاء وغير سوية. إنَّ عالمي الناعس، والناتئ والأزرق، يتوجّه لي ببطء. إنه أشبه بأن تستلقي في يوم ماطر على ظهرك وأنت مغمض العينين وإذ بالظلال تحت جفنيك تنزاح لتتحول إلى نوع من ابتسامة واهنة، ومن ثم إلى إحساس دافئ من السعادة، وتدرك عندئذ: إنها الشمس قد لاحت من وراء السحب. هكذا، إنَّ عالمي يبدأ من ذلك الشعور: يصبح الهواء المشبع بالدخان أكثر صفاء ووضوحًا بالتدريج، ويصبح مشبعًا بلطفٍ مشعٍّ ومتلألئ، ما يجعل روحي تنبسط وتستقيم في المنطقة الغالية ولكن ماذا بعد، ماذا بعد؟ بلى، ها هو ذا الحد الذي أفقد سلطتي خلفه... ذلك أنَّ المفردة التي أخرجتها إلى الهواء، تتمزق كما تتمزق في الشِّباك تلك الأسماك كروية الشكل التي تتنفس وتلمع في الأعماق المظلمة والمضغوطة وحسب. لكني أبذل آخر ما لدي من طاقة، وإذ بغنيمة تظهر عندي، على ما يبدو أواه، إنه مجرّد ظلّ عابر وقصير جدًّا لغنيمة! هناك نظرة بشرية تتألق بعقلانية لا تضاهى؛ هناك أناس غريبو الأطوار يتسكعون أحرارًا سبق أن تعرّضوا هنا للتعذيب؛ وهناك يتشكل الزمن حسب الرغبة والمشيئة، كما لو أنه سجادة مزخرفة مع رسوم يمكن طي الثنايا فيها بطريقة تسمح لأي لوحتين فيها أن تتلامس الواحدة مع الأخرى ومن ثم تنبسط السجادة من جديد، وتستمر في العيش، أو أنك تقوم بتطبيق اللوحة المستقبلية على الماضية، إلى ما لا نهاية، إلى ما لا نهاية بتركيز كسول وطويل الأمد لامرأة راحت تربط وشاحًا إلى فستانها ومن ثم راحت تتحرك بخطى رشيقة نحوي وهي تدفع فستان المخمل بركبتها بطريقة منتظمة وهي تفهم كلّ شيء دون أن تكون مفهومة. هناك، هناك نسخة أصلية لجميع الحدائق حيث كنا نتسكع وحيث كنا نختبئ؛ كلُّ شيء هناك يثير الذهول بوضوحه الساحر، وببساطة الفضيلة المثالية والكاملة؛ كلُّ شيء هناك يعزّي الروحَ، وكلّ شيء مفعم بذلك المرح الذي يعرفه الأطفال جيّدًا؛ هناك تتلألأ تلك المرآة التي ينعكس شعاع من الشمس عليها من حين لآخر... وكلّ هذا ليس كما يجب، ليس تمامًا ما يجب أن يكون وعندئذ أُصابُ بالارتباك، وأخبط الأرض وأمارس الكذب بشغف كبير وكلما تحركتُ ورحتُ أفتِّش في الماء أكثر، حيث أبحث في القاع الرملي عن لمعان لاح لي، كانت المياه تصبح عكرة أكثر، وكان احتمال أن أعثر وأن ألتقط ما أبحث عنه يتضاءل أكثر فأكثر. كلا، أنا لم أقل شيئًا حتى الآن سوى
ما هو من الكتب... وكان يجب عليَّ في نهاية المطاف أن أتخلّى عنه، وقد كنت سأتخلّى لو أنني عملت وسعيت من أجل ما هو قائم وموجود الآن، ولكن بما أنه لا يوجد إنسان واحد في هذا العالم يتحدث بلغتي؛ أو باختصار: لا يوجد إنسان واحد ناطق؛ أو باختصار أكثر: لا يوجد أي إنسان، مما يضطرني لأن أهتم بنفسي فقط، بتلك القوة التي سترغمني على الإفصاح والتعبير. أشعر بالبرد، وقد أصبحت واهنًا، وأشعر بالخوف، كما أن قفا رأسي يومض ويتجهّم، ثم يبدأ من جديد بالتحديق بشكل محموم ومركّز لكن، مع ذلك أنا مقيد إلى

هذه الطاولة بسلاسل مثل إبريق صغير للشرب عند نافورة ولن أنهض قبل أن أفصح عمّا يدور في خلدي... أكرّر (على إيقاع التعاويذ المكررة، وأكتسب تسارعًا جديدًا)، أكرر: أنا أعرف بعض الأشياء، أعرف شيئًا ما بعينه، شيئًا ما... مذ كنت طفلاً صغيرًا، مذ كنت أسكن في بيت كبير وبارد، بلون الكنار المائل للصفرة، حيث كانوا يجهّزوننا أنا ومئات الأطفال الآخرين لغياب موفق وناجح للأصنام المنصوبة للكبار التي تحوّل إليها أقراني من دون أن يبذلوا أي جهد ومن دون أي إحساس بالألم؛ منذ تلك الفترة، تلك الأيام الملعونة، وسط الكتب المصنوعة من ورق رث، ووسط الكتب التعليمية التي تمَّت زخرفتها برسوم زاهية، وتيارات الهواء البارد جدًّا التي كانت تخترق أرواحنا عرفتُ من دون أن أدرك، وعرفت من دون اندهاش، عرفتُ كما يعرف المرء نفسه، عرفت ما كان مستحيلاً أن أعرفه عرفتُ، بالمناسبة، بقوة أوضح وأكبر مما أعرف الآن. وذلك لأن الحياة أنهكتني: كان ثمة قلق دائم، وتكتّم على المعرفة، تظاهرٌ وتغابٍ، إلى جانب الخوف، والإجهاد المؤلم لكافة الأعصاب لكي لا أتنازل، ولكي لا أمضي الوقت... وما زلتُ حتى الآن أشعر بألم في ذلك المكان من الذاكرة، حيث انطبعت بداية ذلك الجهد، أي إنه ثمة مرة أولى حين أدركتُ أن الأشياء التي كانت تبدو لي طبيعية، هي في واقع الأمر محظورة، ومستحيلة، وأنّ كلّ تفكير بشأنها يُعد جريمة. رسخ ذلك اليوم في الذاكرة بشكل قوي وواضح! يفترض أنني كنتُ قد بدأت للتو حينذاك تعلّم كتابة الأحرف، لأنني أتخيّل نفسي وأنا أحمل في خنصر يدي حلقة نحاسية كانت توضع في أيادي الأطفال الذين أصبحوا قادرين على نسخ الكلمات من اللوحات الموجودة في حديقة المدرسة، حيث كانت أزهار التبغية ونباتات القبس وأزهار المخملية تشكّل عبارات مأثورة طويلة. كنت أجلس على حافة النافذة المنخفضة مدلّيًا قدميَّ وأراقب من الأعلى كيف أنَّ أقراني يمسكون بعضهم بأيادي بعض ويدورون على عشب الحديقة حول عمود مزين بشرائط، وهم يرتدون نفس القمصان الطويلة زهرية اللون التي كنت أرتدي واحدًا منها. هل كنت معاقبًا في ذلك اليوم؟ كلا، الأصح هو أنَّ الأطفال الآخرين لم تكن لديهم رغبة بقبولي في اللعب، إلى جانب ذلك الحرج القاتل والخجل والحنين، وتلك المشاعر التي كنتُ أشعر بها أنا بالذات عندما كنت أنضم إليهم والتي كانت ترغمني على أن أختار العزلة والجلوس في الركن الأبيض لحافة النافذة الذي كان يحدِّده بشكل شديد الوضوح ذلك الظل الساقط عن درفة النافذة نصف المفتوحة. كانت تصل إلى مسامعي أصوات الدهشة والإعجاب التي تفرضها شروط اللعبة، وذلك الصوت الآمر والرنان لتلك المعلّمة الشقراء، وقد رأيت خصلات شعرها ونظارتها وهكذا رحتُ أراقب مع إحساس مقرف لم يفارقني طوال حياتي، كيف أنها كانت تدفع الأطفال الأصغر سنًّا لكي يدوروا بسرعة أكبر. كان تلك المعلّمة، وذلك العمود المقلّم، والسحب البيضاء التي كانت تكشف عن الشمس المنزلقة وهي تسكب شعاعها الساطع بقوة والباحث عن أمر ما كانت كل هذه الأشياء تتكرر من خلال

انعكاسها بشكل لامع ومتلألئ على زجاج الدرفة المفتوحة للنافذة... بكلمة أخرى، كنتُ أشعر بخوف شديد وبحزن كبير جدًّا، بحيث إنني رحتُ أسعى لكي أغرق في ذاتي بالتحديد، وأن ألبث هناك مختبئًا، كما لو أني كنت أريد التباطؤ والانزلاق إلى خارج هذه الحياة التافهة والفاقدة لأي معنى والتي تحملني. ظهر في هذه الأثناء في نهاية الرواق الحجري حيث كنتُ موجودًا، ذلك المربّي الأكبر سنًّا من بين المربّين لا أذكر اسمه كان بدينًا، ومتعرّقًا، وعلى صدره شعر أسود اللون وأشعث كان ذاهبًا لكي يسبح. فناداني من بعيد بصوت ازدادت قوّته بسبب أجهزة الصوت وطلب مني أن أذهب إلى الحديقة، ثم اقترب مني بخطوات سريعة وراح يلوِّح بالمنشفة. كنت حزينًا وشارد اللب، وبطريقة لاشعورية وبريئة بدلاً من أن أذهب إلى الحديقة عن طريق السلّم (كان الرواق في الطابق الثالث) قمت من دون أن أعي ما الذي أفعله، ولكن في حقيقة الأمر، باستكانة بل وحتى بخنوع، هبطتُ من حافة النافذة إلى الهواء الناعم والمنتفخ ومشيتُ دون أن أشعر بأي شيء مميز سوى بإحساس باهت كما لو أنني حافي القدمين مع أني كنت أنتعل حذاء بخطوات بطيئة، وبطبيعة الحال تقدمت إلى الأمام وأنا على نفس الحالة من الشرود أمصُّ وأفرك إصبعي الذي كانت قد انغرزت شوكة فيه صباح هذا اليوم... بيدَ أنّ هدوءًا غير عادي ومطبقًا أخرجني من حالة التفكير والشرود فرأيتُ في الأسفل وجوه الأطفال الذين جمدوا في مكانهم ومعهم المربية التي بدت وكأنها سقطت على ظهرها، وقد راحوا يحدقون فيَّ مثل أزهار اللولبية الصغرى الشاحبة، كما أنني رأيتُ الأجمة التي تمّ قصّها بشكل دائري وأيضًا تلك المنشفة التي لم تسقط على العشب بعد، ورأيتُ نفسي صبيًّا في قميص زهري اللون وقد جمدتُ بشكل شاقولي في منتصف الهواء شاهدتُ، بعد أن استدرتُ، على مسافة ثلاث خطوات في الهواء مني تلك النافذة التي غادرتُها للتو وذلك الذي مدَّ لي يدّه المشعرة وهو في حالة ذهول فظيع ومشؤوم...»

(في هذه اللحظة انطفأ الضوء، للأسف، في الزنزانة إنه روديون يقوم بإطفائه في الساعة العاشرة تمامًا).

IX

ومن جديد دُشِّن اليوم بهدير من الأصوات. كان روديون يصدر أوامره عابسًا، وكان ثمة ثلاثة معاونين يساعدونه في ذلك. كان جميع أفراد أسرة مارفينكا قد جاءوا إلى اللقاء، وهم يحملون الأثاث الخاص بهم. لم نكن نتخيّل اللقاء الذي طال انتظاره أنه سيكون على هذا النحو، على هذه الشاكلة... لقد هبطوا علينا دفعة واحدة! كان والد مارفينكا العجوز برأسه الضخم والأصلع مع انتفاخات تحت العينين، وهو يطرق بعكازه الأسود؛ وأخا مارفينكا التوأم اللذان يشبهان بعضهما إلى درجة مثالية، لكن أحدهما له شاربان بلون ذهبي، في حين أنَّ شاربي الثاني صمغيان؛ ثم جدّ وجدّة مارفينكا من ناحية الأم وهما أيضًا طاعنان في السن لدرجة أنهما كانا نحيلين ويابسين جدًّا؛ كما كان هناك ثلاثة من أبناء عمومها ممتلئين بالحيوية، إلاّ أنه لم يُسمح لهم بالدخول لسبب ما في اللحظة الأخيرة؛ وابنا مارفينكا ديوميدون الأعرج وابنتها بولينا البدينة جدًّا؛ وأخيرًا، مارفينكا بالذات، في ثوبها الأسود الخاص بالمناسبات، مع وشاح من المخمل حول عنقها الأبيض والبارد وهي تحمل مرآة في يدِها؛ وكان يرافقها مثل ظلها رجل شاب مؤدّب وأنيق المظهر جدًّا.

جلس والد الزوجة متكئًا على عكازه، في كرسي من الجلد جيء به معه، ثم وضع قدمه السمينة في حذاء من الجلد على المقعد بصعوبة كبيرة وراح يهزّ رأسه بحنق واضح وهو يحدّق من تحت أجفان ثقيلة في سينسينات الذي انتابه إحساس خافت ومألوف عند رؤيته قماش من مقاطعة براندنبورغ الألمانية يزين السترة الشتوية لحميه، وتلك التجاعيد في زاويتي فمه كما لو أنها تعبِّر عن قرف دائم وأبدي، وتلك البقع الأرجوانية على صدغيه المليئَين بالأوردة مع انتفاخ على شكل حبّة زبيب على الوريد بالتحديد.

جلس الجدّ والجدّة (كان الجدّ يرتجف، وكان مظهره بائسًا مع بنطلون مرقّع؛ في حين أنّ الجدّة كانت بشعر مقصوص ومسرَّح، ترتدي ثوبًا صوفيًا أبيض اللون وسميكًا، وكانت نحيلة جدًّا لدرجة أنه كان بإمكانها، لو شاءت، أن ترتدي الغطاء الحريري المخصص لمظلّة شمسية) إلى جانب بعضهما البعض على كرسيين متشابهين مع مسندين عاليَين؛ كان الجدُّ طوال الوقت يمسك بيديه صورة كبيرة في إطار ذهبي لوالدته عبارة عن امرأة شابة غامضة تحمل بدورها صورة ما.

في غضون ذلك استمر وصول الأثاث ومختلف الأدوات والأواني، وحتى أجزاء منفصلة لجدران. كما راحت تلمع خزانة ملابس عريضة مع مرايا وقد جيء بها مع انعكاسها الخاص بها (وتحديدًا: الركن الخاص بالزوجين في غرفة نومهما عبارة عن شريط من أشعة الشمس سقطت على الأرضية، وقفاز مرمي بالإضافة لدرفة مفتوحة في عمق الخزانة). كما قاموا بإدخال دراجة هوائية صغيرة مثيرة للشجن ومع حيل وإضافات تتعلق بعملية تقويم العظام وما شابه). كانت ثمة زجاجة بلون الرمان ومسطحة الشكل وإلى جانبها دبوس شعر موجودَين على طاولة بتطعيم زخرفي منذ أكثر من عشر سنوات.
جلست مارفينكا على أريكتها السوداء اللون والمطرزة بالأزهار.

يا لها من مصيبة، يا للمصيبة! هتف الحمو وطرق بعكازه.

ابتسم العجوزان وهما يشعران بالخوف.

دعك من ذلك، يا بابا، لقد قيل لك هذا أكثر من ألف مرة قالت له مارفينكا بصوت خافت ومن ثمّ هزّت كتفها بطريقة تعبّر عن الإحساس بالبرد.

ناولها الشاب المرافق لها الشال الخاص بها مع أهداب، لكنها ابتسمت بلطف من زاوية شفتيها الرقيقتين وأبعدت يدَه. («أنا أول شيء أقوم به هو أن أنظر إلى يديّ الرجل»). كان الشاب يرتدي بدلة سوداء فاخرة كموظف في مديرية الهاتف وتفوح منه رائحة عطر البنفسج.

راح الحمو يصبّ اللعنات على سينسينات بشكل مفصّل وباستمتاع وهو يكرر بقوة أكبر:

يا لها من مصيبة!

لفت نظر سينسينات الفستان الأخضر لبولينا مع نقش لحبات بازلاء بيضاء اللون عليه: كانت شقراء ومع جديلة، وفي نظارات، لا تثير الضحك بل الحزن والأسى بواسطة حبات البازلاء تلك، وبالاستدارة في جسدها، وقد راحت تنقل قدميها السمينتين في جوارب صوفية بنيّة اللون وفي حذاء ذي رقبة عالية وله أزرار، ثم راحت تقترب من الحاضرين وهي تحدِّق بطريقة جدية وبصمت بعينيها الداكنتين والصغيرتين اللتين كانتا تتقاطعان خلف حدبة الأنف، كما لو

أنها تعاين كلّ واحدٍ منهم على حدة. كانت المسكينة ملفوفة بمنديل على صدرها يبدو أنهم أغفلوا أن ينزعوه عنها بعد الانتهاء من تناول الفطور.

التقط الحمو أنفاسه، ثم طرق الأرض بعكازه، فقال سينسينات عندئذ:

حسنًا، أنا أصغي لك.

اخرس، أيها الوقح صاح به الحمو من حقي أن أنتظر منك هذا اليوم على الأقل، وأنت تقف على أعتاب الموت بعض الاحترام والتقدير. أما أن تتحايل ويصل الأمر بك إلى المقصلة... تفضّل واشرح لي كيف استطعت وكيف تجرأت على ذلك...

سألت مارفينكا صديقها الفتي عن أمر ما بصوت خافت، فما كان منه إلاّ أن راح يجهد في البحث من حوله وتحت الأريكة.

أجاب الشاب بصوت خافت أيضًا:

لا، لا، لا يوجد شيء؛ يجب أن أكون أسقطتُه ونحن في الطريق. لا مشكلة، سوف نعثر عليه... ولكن، قولي لي ألا تشعرين بالبرد؟

هزّت مارفينكا رأسها علامة النفي ثم وضعت كفَّها الناعم على معصمه؛ انتزعت يدها على الفور وراحت تسوِّي الفستان على ركبتيها ثم نادت بصوت خافت ابنها الذي كان يتحرّش بجدَّيه فراحا يدفعانه عنهما كان يمنعهما من سماع الحديث. اجتاز ديوميدون في بلوزته الرمادية مع شريط مطاطي على وركيه، المسافة من الجدَّين إلى أمّه بطريقة رشيقة وهو يقوم بحركات راقصة إيقاعية. كانت رِجله اليسرى سليمة وحمراء اللون؛ أما اليمنى فكانت أشبه ببندقية محشوة بالذخيرة بطريقة معقدة: مجرّد جذع البندقية والحزام. كان من حيث عينيه البنيتين المستديرتين وحاجبيه قليلي الشعر أقرب إلى أمّه، لكن النصف السفلي من وجهه بالإضافة إلى فكَّيه القويين فكانا من مصدر غريب، بكل تأكيد.

اجلس هنا قالت مارفينكا بصوت خافت ثم قامت بحركة سريعة بالتقاط المرآة اليدوية التي راحت تنزلق عن الأريكة.

تابع الحمو:

هيا، أَجبني، كيف تجرأتَ، يا مَن لديك أسرة سعيدة: جوٌّ رائع، وأطفال رائعون وزوجة محبّة كيف تجرأتَ دون أن تأخذ ذلك بعين الاعتبار، ودون أن تعيد التفكير وتغيّر رأيك، أيها الشرير؟ يخيّل إليّ في بعض الأحيان أنني لست سوى عجوز مهذار ثرثار وأنني لا أفهم شيئًا لأنه في الحالة الأخرى يجب الاعتراف بوجود هوّة سحيقة من البغض المقيت... اخرس! راح يصرخ ومن جديد ارتجف العجوزان ومن ثم تبسّما.

راحت هرّة سوداء اللون تتمطط وتوتِّر قائمتيها الخلفيتين وهي تمسح بجنبها ساق سينسينات، ثم وجدت نفسها على البوفيه الذي راح يشيعها بعينيه((40))، ومن هناك قفزت دون أن تُصدِر أيَّ صوت إلى كتف المحامي الذي دخل للتو على رؤوس أصابع قدميه وجلس في الزاوية على وسادة فاخرة كان مصابًا بنزلة برد شديدة، ولذلك راح ينظر من فوق منديل أنفي ويتأمل الحاضرين ومختلف الأدوات المنزلية التي أضفت على الزنزانة مظهرًا جعلها تبدو أقرب إلى مزاد لبيع الأغراض؛ وقد أخافته الهرّة فرماها عن نفسه بطريقة عصبية وسريعة.

راح الحمو يقرقر ويصبّ المزيد من اللعنات، ثمّ راح يشخر فجأة. غطّت مارفينكا عينيها بيدها، فنظر إليها صديقها الشاب وهو يلعب بعقدتين على وجنتيه. جلس شقيقا مارفينكا على أريكة نصف دائرية؛ كان الأسمر من بينهما يرتدي ثيابًا صفراء اللون بالكامل، مع ياقة مفتوحة، وكان يمسك ورقة خاصة بالنوتة الموسيقية ملفوفة على شكل بوق ولكنها من دون نوتة عليها كان يعد أحد أشهر المطربين في المدينة؛ أما شقيقه فكان يرتدي شروالاً أزرق اللون، وكان يبدو أنيقًا وذكيًّا، وقد جلب لصهره هدية عبارة عن مزهرية فيها فواكه من الشمع بألوان فاقعة. بالإضافة إلى ذلك، كان قد ربط ذراعه بضماد من قماش تشيريمين أو الكريب، وإذ التقط نظرة سينسينات عليه فقد أشار بإصبعه إلى الضماد.

كان الحمو في ذروة الغضب البليغ حين اختنق ما جعله يدفع الكرسي بقوّة كبيرة إلى درجة أنّ بولينا التي كانت واقفة بالقرب منه وقد راحت تنظر إلى فمه المفتوح، سقطت على ظهرها خلف الكرسي حيث بقيت ممددة على أمل أنه ما مِن أحد سيلحظ ذلك. راح الحمو يفتح علبة السجائر مُصدِرًا صوت فرقعة. وكان الجميع صامتين.

بدأت الأصوات المجعّدة تستقيم بالتدريج. راح شقيق مارفينكا، الأسمر، ينظِّف حلقه ومن ثم انطلق يغنّي بصوت خافت: «Mali è f trano t'amesti...» ((41)) ليتوقف ويلقي نظرة على شقيقه الذي راح يجحظ عينيه بطريقة مرعبة. أما المحامي الذي كان يبتسم لأمر ما، فقد تناول منديله الأنفي من جديد. كما راحت مارفينكا وهي جالسة في أريكتها تتحدث مع فارسها الذي كان يرجوها أن تضع الوشاح على كتفيها لأن الهواء في السجن كان رطبًا وباردًا. كانا يخاطبان بعضهما بصيغة الجمع، ولكن صيغة الجمع هذه «أنتم» كانت تسبح محمّلة بثقل كبير على الحد الفاصل لحديثهما الذي لا يمكن التقاطه إلاّ بصعوبة... نهض العجوز عن الكرسي وهو يرتجف بقوة كبيرة، ناول البورتريه للعجوز ومن ثم اقترب وهو يحجب الشعلة المرتجفة مثله تمامًا، إلى صهره، إلى حمو سينسينات، وكان يريد أن يصفعه... لكن الشعلة انطفأت، فما كان منه إلاّ أن غضّن وجهه وعبس بحنق:

لقد أضجرتني، والحق يقال، بقداحتك الغبية قال له ولكن هذه المرة من دون حنق وعندئذ انتعشت الأجواء بصورة تامة وراح الجميع يتحدثون دفعة واحدة.

أنشد شقيق مارفينكا بصوت قوّي: « Mali è trano t'amesti...».

قالت مارفينكا:

دعِ الهرّة حالاً، يا ديوميدون؛ سبق وخنقتَ هرّة واحدة أول أمس، ولا يمكنك أن تفعل ذلك كل يوم. خذِ القطّة منه، من فضلك يا عزيزي فكتور.

استغلت بولينا لحظة الهرج والمرج، فزحفت من خلف الكرسي ونهضت بهدوء دون أن تلفت انتباه أحد. اقترب المحامي من حمو سينسينات وأشعل له سيجارته.

خذ كلمة « ропот » ((42)) واقرأها بالمقلوب طلب من سينسينات شقيق زوجته المرح والذكي علامَ ستحصل، آ؟ ألن تكون النتيجة مثيرة للضحك؟ بلى، أيها الأخ لقد ورّطت نفسك في هذه المعضلة. وبالفعل، ما الذي جعلك تقوم بذلك؟

فتح الباب في غضون ذلك خلسة. كان كل من السيد بيير والمدير يقفان عند عتبة الباب وقد عقد كلٌّ منهما يديه خلف ظهره ثم راحا يتأملان الحشد بهدوء وبطريقة لبقة وهما يحركان أعينهما وحسب. نظرا إلى الحاضرين لبرهة قصيرة فقط قبل أن يغادرا.

قال شقيق الزوجة بحماس وهو يلهث:

يتعيّن عليك أن تصغي إليَّ، أنا صديقك الأسمر. تبْ، يا سينسينات. اصنع معروفًا لي. لعلّهم سيغفرون لك؟ آ؟ حاولْ أن تتخيّل كم سيكون الأمر مزعجًا عندما يقومون بفصل الرأس عن الجسد. وهل من الصعب عليك أن تعتذر وتعبّر عن ندمك؟ هيا، أَعلِنْ عن توبتك، ولا تكن أحمق تمامًا.

قال المحامي وهو يقترب:

احترامي، احترامي، احترامي وتقديري. لا تقبّلوني لأنني مصاب بالزكام. عمّ يدور الحديث؟ بماذا يمكنني أن أساعدكم؟

اسمحوا لي بأن أمرَّ قال سينسينات يجب أن أقول كلمتين لزوجتي...

أما الآن، يا عزيزي، فسوف نناقش الجانب المادي في الأمر قال الحمو وقد اكتسب حيوية وانتعش وهو يمدّ عكازه بطريقة جعلت سينسينات يصطدم بها مهلاً، توقف، فأنا أتوجه إليك بالكلام!

تابع سينسينات مسيره؛ كان يتعيّن عليه أن يلفَّ من حول الطاولة الكبيرة التي مُدَّت عليها أدوات طعام لعشرة أشخاص، ومن ثم أن يحشر نفسه ما بين الستارة الخشبية والخزانة وذلك لكي يتمكن من المرور إلى مارفينكا التي كانت مستلقية على أريكتها. قام صديقها الشاب بتغطية ساقيها بالشال. كان سينسينات على وشك أن يصل إليها، وإذا بصراخ حانق يطلقه ديوميدون. كان يتلفت من حوله فرأى إمّوتشكا التي جاءت إلى هنا لسبب مجهول وبطريقة غير معروفة، ومن ثم بدأت تثير الحنق عند الصبي: راحت تقلّد مشيته العرجاء، فكانت تمشي مرخية ثقلها على رِجل واحدة مع القيام بحركات غريبة ومعقدة. أمسك بها سينسينات من كتفها العارية لكنها انتزعت

نفسها وراحت تركض؛ فركضت بولينا خلفها وهي تتمايل أيضًا في نشوة هادئة من الفضول.

التفتت مارفينكا نحو الشاب، فنهض واقفًا بطريقة لبقة جدًّا.

قال سينسينات بنبرة مستعجلة وهو يخاطب مارفينكا، فَتعثّر بوسادة مرمية على الأرض ما جعله يجلس على طرف الأريكة ولفَّ نفسه بردائه المتسخ برماد السجائر:

أرجوك، أصغي إلى ما سأقوله لك باختصار.

لديها صداع نصفي من النوع الخفيف أعلن الشاب المتأنق وهذا مفهوم. ولذلك يجب ألاّ تتعرض لأي منغّصات.

أنت على حق قال سينسينات بلى، أنت على حق. بيدَ أنني أرجوك... أريد أن أتحدث معها على انفراد.

من فضلك، يا سيد. دوّى صوت روديون بالقرب منه.

نهض سينسينات، ثم قام روديون ومعه موظف آخر، فأمسكا وهما ينظران أحدهما إلى الآخر، بالأريكة التي كانت مارفينكا نصف مستلقية عليها، ثم رفعاها وحملاها باتجاه باب الخروج.

وداعًا، إلى اللقاء راحت مارفينكا تصرخ بصوت طفولي وهي تتأرجح على إيقاع خطوات الحمالين، وإذ بها تتجهم فجأة وتغطي عينيها. كان صديقها الشاب يسير خلفها مهموم البال وهو يحمل الشال الأسود الذي التقطه عن الأرض، ومعه باقة من الأزهار، وقبعته الخاصة وفردة واحدة من قفاز. كانت ثمة فوضى في كل مكان من حولهم. راح الشقيقان يضعان الأواني في صندوق. أما الوالد فكان يلهث كمريض بالربو وهو يجتاز بمشقة ستارة متعددة الطبقات. راح المحامي يعرض على الجميع ورقة طويلة من ورق التغليف، من غير المعروف من أين جاء بها؛ وقد رأوا كيف أنه يحاول أن يلفَّ بها وعاءً مع سمكة صغيرة برتقالية اللون في ماء عكر بداخله ولكن من دون أن ينجح. وسط تلك الفوضى العارمة، كانت الخزانة الشخصية العريضة مع

الانعكاس الخاص في المرايا، تقف مثل امرأة حامل تحمل بحذر وبتأنٍّ بطنها المصقول وتداريه لكي لا يصدمه أحد بغتةً. جعلوها مائلة إلى الخلف ومن ثم حملوها وهم يتأرجحون. راحوا يقتربون من سينسينات لكي يودّعوه.

لا تذكرنا بالسوء، إذن قال الحمو ثم قبّل يدَ سينسينات مع مجاملة باردة كما يتطلب العرفُ ذلك. أجلس الشقيق الأشقر أخاه الأسمر على كتفه ومن ثم ودّعا سينسينات وهما على هذه الحالة ليغادرا كما لو أنهما جبل حي. راح الجدّ والجدّة ينحنيان وهما يودّعانه حاملَين الصورة. واصل العمال المستخدمون حمل الأثاث إلى الخارج. ثم اقترب الأطفال: بولينا الجدّية وقد رفعت وجهها، بينما راح ديوميدون ينظر إلى الأرض. قادهما المحامي
وهو يمسك بأيديهما. كانت إمّوتشكا آخر المودعين: شاحبة، وقد ذرفت الدموع بقوة ومع أنف وردي اللون وفم مبلل ومرتجف كانت صامتة، ولكنها نهضت فجأة على رؤوس أصابع قدميها، فأحاطت رقبته بيديها الحارتين ثم همست بكلام غير واضح وبدأت تنتحب بمرارة وبصوت عال. أمسك بها روديون من رسغها بناءً على همهمته كان قد بدأ يناديها منذ برهة طويلة ولذلك قرر أن يسحبها بحزم إلى باب الخروج. أما هي فانثنت ثم انحرفت وأدارت رأسها نحو سينسينات مع شعرها المتموج، لتمدّ له راحة يدها الرائعة، على طريقة راقصة الباليه الأسيرة، ولكنها مشت مع مسحة من الإحساس بيأس حقيقي خلف روديون الذي كان يجرّها كانت عيناها تتحركان نحو الأعلى، كما انزلق الحزام المضفور عن كتفيها وإذ به يرشُّ الماء عليها بقوّة من دلوٍ موجود في الممر؛ ومن ثم عاد وهو ما زال يدمدم مع مجرفة صغيرة لكي يلتقط جثة الهرّة التي كانت ممددة بشكل مسطّح تحت الكرسي. أغلق الباب بقوة. كان من الصعب على المرء أن يصدّق أنه كان يوجد في هذه الزنزانة قبل قليل...

X

حين يتعرّف شبل الذئب على وجهات نظري، فإنه سيكفّ عن الإحساس بالخجل مني ولن يتحاشاني. وقد تمّ تحقيق قدرٍ ما، بالمناسبة، وهذا ما أفرحني في أعماق قلبي كان يقول السيد بيير وهو يجلس إلى الطاولة بطريقة مائلة كعادته، وقد صالب فخذيه السمينين بقوة، وراح ينقر بأصابع إحدى يديه نغمة رنّانة على الطاولة التي كانت مغطاة بمشمع. كان سينسينات مستلقيًا في السرير وهو يسند رأسه بيده.

واصل السيد بيير كلامه:

نحن الآن بمفردنا، وثمة مطر في الخارج. ومثل هذا الطقس يساعد في الوشوشات الصادقة والحميمة. دعنا نوضِّح لمرة واحدة وإلى الأبد... لقد تشكّل لديّ انطباع كما لو أنك مصاب بالدهشة بل وحتى بالقرف من تلك المعاملة التي تخصّني بها إدارة السجن؛ ينشأ إحساس كما لو أنّهم يعاملونني بشكل خاص ومميز لا، لا، لا تعترض ولا تحتج هيا بنا نكون صريحين طالما أنّ الحديث مضى في هذا الاتجاه. اسمح لي بأن أقول لك شيئين. لا بدّ أنك تعرف مديرنا اللطيف (بالمناسبة: الذئب الصغير غير عادل تجاهه على العموم، ولكن هذا حديث آخر سوف نعود إليه فيما بعد...)، وأنت تعرف كم هو هش وحساس، وكيف أنه ينفعل بشدة فضلاً عن أنه يشغف بأي أمر جديد وأنا أعتقد أنه شغف بك أنت أيضًا في الأيام الأولى لذلك لا ينبغي للشغف الذي يبديه تجاهي أن يثير الحرج والانزعاج عندك. يجب علينا ألا نكون غيورين إلى درجة كبيرة، يا صديقي. وثانيًا، وبالرغم من كل الغرابة هنا، ما زلت تجهل على ما يبدو السبب الذي قادني إلى هنا ولكن حين سأخبرك السبب، سوف يصبح كل شيء مفهومًا بالنسبة لك. عفوًا ولكن ما هذا الذي عندك على رقبتك هنا، هنا، نعم، هنا.

أين؟ سأل سينسينات بطريقة تلقائية وهو يجسّ فقرات رقبته.

اقترب منه السيد بيير وجلس على حافة السرير.

هنا بالضبط قال ولكني أرى الآن أن ذلك مجرّد ظلٌّ سقط عليك. خُيّل إليّ كما لو أنه ورم صغير. فأنت تحرّك رأسك بطريقة غير مريحة. هل تشعر

بالألم؟ هل تعاني من نزلة برد؟

آه، أرجوك، لا تزعجني قال سينسينات بأسى.

ولكن مهلاً. لديَّ يدان نظيفتان، فاسمح لي بأن أجس لك هذا المكان. كما لو أنه مع ذلك... ألا تشعر بالألم ها هنا؟ وهنا؟

لمس بيده القوية مفتولة العضلات رقبة سينسينات بطريقة سريعة، وراح يفحصها وهو يتنفس من خلال أنفه مطلقًا صفيرًا خفيفًا.

كلا، لا شيء غير طبيعي. كل شيء لديك على ما يرام. قال أخيرًا وهو يبتعد ويربت بيده على قفا رأس المريض لكن رقبتك نحيلة إلى درجة فظيعة ما عدا ذلك، كل شيء على ما يرام، وإلا كما تعرف قد تبدأ في بعض الأحيان... هيا مُدَّ لسانك. فاللسان مرآة المعدة. تغطَّ، تغطَّ جيدًّا، لأن الجوَّ هنا بارد. عمّ كنا نتحدث؟ ذكّرني.

لو أنك كنت تريد الخير لي بالفعل قال سينسينات لكنتَ تركتني بحالي دون أن تزعجني. أرجوك، اذهب من هنا.

هل يُعقَل أنك لا تريد أن تسمعني حتى النهاية قال السيد بيير بنبرة احتجاج وهو يبتسم هل يعقل أنك تؤمن إلى هذا الحد بعصمة استنتاجاتك التي لا أعرفها فوق ذلك وأرجو أن تنتبه: غير معروفة بالنسبة لي.

التزم سينسينات الصمت، وكان محبطًا وحزينًا.

اسمح لي، إذًا، أن أروي لك تابع السيد بيير مع نوع من الوقار والجدية عن الجريمة التي قمتُ أنا بارتكابها. لقد اتهموني سواء عن حق أو ظلمًا، فهذا موضوع آخر لقد اتهموني... بماذا، حسب رأيك؟

بل قل لي أنت قال سينسينات مع ابتسامة واهنة.

سوف تشعر بالصدمة. إنهم يتهمونني بمحاولة... آه، أيها الصديق الناكر للجميل وعديم الثقة... إنهم يتهمونني بمحاولة تقديم المساعدة لك للهروب من هنا.

حقًّا؟ سأل سينسينات.

أنا لا أكذب على الإطلاق قال السيد بيير بطريقة مثيرة قد يحتاج المرء إلى أن يكذب في بعض الأحيان ولكن هذا أمر آخر مختلف وقد تكون مثل استقامة مفرطة كهذه أمرًا غبيًّا ولا تجلب لصاحبها في نهاية المطاف أية منفعة دعنا نفترض. لكن الحقيقة تبقى كما هي ثابتة: أنا لا أكذب نهائيًّا. لقد وصلت إلى هناك بسببك. وقد قاموا باعتقالي ليلاً... أين؟ لنقل في مدينة فيشنغراد. نعم، أنا من مدينة فيشنغراد. مقلع لإنتاج الملح الصخري، مع حدائق مثمرة. في حال أنك رغبتَ ذات يوم بأن تأتي وتزورني هناك، فسوف أقدّم لك الكرز من حديقتنا على سبيل الضيافة دون أن أتحمَّل مسؤولية الجناس((43)) هذا ما هو موجود في شعار مدينتنا. وقد أمضى خادمك الأمين هناك في السجن، وليس في الشعار، ثلاثة أيام بلياليها. ومن ثم محكمة عاجلة. وبعد ذلك قاموا بنقلي إلى هنا.

هذا يعني أنك كنت تريد مساعدتي وإنقاذي... قال سينسينات بطريقة ساهية.

سواء كنت أريد أم لا هذا شأني الذي يختبئ خلف الموقد مثل صرصور((44))، يا
صديقي. على أية حال، لقد وجّهوا لي هذه التهمة وأنت تعرف أن الوشاة هم من جيل الشباب، ومن المتحمسين جدًّا، ولذلك: «أنا أقف هنا أمامك في حالة انتشاء...» ألا تتذكر ذلك المقطع الرومانسي من الأغنية؟ وجدوا أن القرينة الرئيسة هو ذلك المخطط العمراني لهذه القلعة السجن وعليها ملاحظات وإشارات تعود لي. كما لو أنني، لعلمك، خططت بأدق التفاصيل لعملية فرارك، أيها الصرصور...

كما لو أم أنك بالفعل؟ سأل سينسينات.

يا لهذا الكائن الساذج والساحر! قال السيد بيير بغيظ، مكشرًا عن أسنانه كلُّ شيء بالنسبة له في منتهى البساطة كما لا يمكنه أن يحدث، للأسف، في الحياة الواقعية!

قال سينسينات:

ولكن، كنت أتمنى أن أعرف.

تعرف ماذا؟ ما إذا كان القضاة الذين حكموا عليّ عادلين؟ هل كنت أنوي بالفعل إنقاذك؟ آه، منك...

نهض السيد بيير وراح يتمشى في الزنزانة.

دعنا من هذا الحديث قال بحسرة عليك أن تحسم الأمر بنفسك، يا صديقي عديم الثقة. سواء كان هذا أو بشكل آخر فأنا جئتُ إلى هنا بسببك. وأكثر من ذلك: ونحن سنصعد إلى منصة الإعدام معًا.

كان يمشي في أرجاء الزنزانة بهدوء وهو يقوم بخطوات رشيقة، يهز الأجزاء الطرية من جسمه الملفوف في بدلة السجن وكان سينسينات يتابع باهتمام كئيب وثقيل كلّ خطوة من خطوات هذا الرجل البدين والرشيق في آن.

قال سينسينات أخيرًا:

سوف أصدّق كلامك من باب المرح وتزجية الوقت وحسب. وسوف ننتظر لنرى ماذا سينتج من جراء ذلك. هل تسمعني أنا أصدّق كلامك. وحتى أنني أشكرك من أعماق قلبي من أجل المزيد من المصداقية.

آه، لِمَ كلّ ذلك، لا داعي... قال السيد بيير على عجل ومن ثم جلس إلى الطاولة من جديد ببساطة، كنت أريد أن تكون على علم بذلك... وهكذا يكون الأمر رائعًا. أصبح الوضع أسهل بالنسبة لكلينا، أليس كذلك؟ لا أعرف ماذا بشأنك، أما أنا فأتمنى أن أبكي. وهذا إحساس جيد. ابكِ، ولا تمنع تلك الدموع الصحّية من أن تُذرَف.

قال سينسينات بحذر:

إنَّ الوضع هنا فظيع للغاية.

ما مِن شيء فظيع هنا. بالمناسبة، كان بودّي أن أوبخك منذ مدة طويلة بسبب موقفك من الحياة هنا. لا، لا، لا تلوِّح بيدك نافيًا ورافضًا، بل اسمح لي من باب الحق كصديق... أنت لست على حق بما يتعلق بموقفك من روديون الطيب، وبشكل خاص بخصوص موقفك من السيد المدير. حتى ولو كان شخصًا غير ذكيٍّ بقدر كاف، وبالرغم من أنه شخص مغرور وغريب الأطوار فهو يحب الثرثرة وأنا نفسي كثيرًا ما أشعر بالضيق منه ومن ثرثرته، وأنا بطبيعة الحال، لا أستطيع أن أتقاسم معه أفكاري الدفينة، كما أفعل معك خصوصًا عندما تبدأ الهررة بخدش الروح((45))، وأرجو أن تعذرني على هذا التعبير. إلاّ أنه، وبغض النظر عن عيوبه، فهو شخص مستقيم وصادق ولطيف المعشر. بلى، إنه لطيف إلى درجة نادرة ولا تجادلني ما كنتُ لأقول ذلك لو لم أكن أعرف، وأنا لا أقول شيئًا أبدًا بشكل اعتباطي، كما أنني أكثر خبرة وأكثر معرفة بالناس على أرض الواقع وفي الحياة منك. ولهذا السبب أشعر بالحسرة وبالألم عندما أرى كيف أنك تتعامل مع رودريغ إيفانوفيتش ببرودة قاسية وكيف أنك تقصيه عنك بازدراء متعجرف. وأنا أقرأ في بعض الأحيان في عينيه مثل ذلك الشعور بالقهر وبالعذاب... أما ما يتعلق برودیون، فكيف يمكنك وأنت الشخص الفطن والنبيه، ألاّ تكتشف من خلال خشونته ووقاحته المصطنعة كلَّ تلك السماحة الرقيقة واللطافة عند هذا الطفل الكبير. آه، أنا أقدِّر أنك متوترٌ، وأنك تعاني بسبب غياب المرأة عنك ومع ذلك، إن هذا أمر غير حسن، إنه أمر سيّئ، يا سينسينات، وأرجو أن تعذرني على صراحتي... وأنت، على العموم، تهين الآخرين... وتكاد لا تلمس وجبات الطعام التي نحصل نحن عليها هنا. حسنًا، لنفرض أنها لا تعجبك وكن على ثقة أنني أفهم في فنون الطهو إلى حدٍّ ما لكنك تسخر منها وتزدريها مع العلم أنه ثمة من قام بِطهيها وثمة مَن بذل جهدًا في تحضيرها... أدرك أنك قد تشعر بالملل وبالأسى هنا من حين لآخر، وأنه تنشأ لديك رغبة بالتنزه وأن تقوم ببعض المقالب المرحة ولكن، لماذا يجب عليك أن تفكّر في شؤونك وحدك فقط، في رغباتك، لماذا لم يصدف أنك ابتسمت ولو لمرة واحدة استجابة للنكات التي دأب رودريغ إيفانوفيتش اللطيف أن يرويها لك؟.. لعله بعد ذلك ينتحب، ولا ينام الليالي وهو يتذكّر ردود أفعالك وتصرفاتك...

قال سينسينات:

يا له من دفاع ذكي في كافة الأحوال؛ لكني أفهم إلى درجة ما في أمور الدمى. ولن أستسلم.

عبثًا قال السيد بيير باستياء هذا يعود إلى فترة الشباب عندك أضاف بعد لحظة من الصمت لا، لا، لا يجوز أن تكون ظالمًا إلى هذه الدرجة.

هيا قل لي سأل سينسينات هل يحدث أنك تعيش لحظات من الضياع والذهول أيضًا؟
ألم يصل بعد الرجل المتنمِّر والأناني القاتل؟ ألن تتم عملية الإعدام غدًا؟

من الأفضل لك ألا تستخدم مثل هذه المفردات علّق السيد بيير بطريقة سريّة لا سيما بمثل هذه النبرة... ثمة ما هو مبتذل وغير جدير بشخص محترم وجليل مثلك. كيف يمكنك أن تنطق بمثل كلمات كهذه لقد فاجأتني بكلامك...

ومع ذلك متى؟ سأل سينسينات.

في الوقت المناسب تمامًا أجاب السيد بيير بطريقة مواربة ما هذا الفضول الغبي؟ وعلى العموم... كلا، ما زال واجبًا عليك أن تتعلم الكثير، لأنه لا يجوز أن تبقى على هذا النحو. إنها غطرسة، هذا تحيّز ونوع من الموقف المسبق...

ولكن، ولكنهم يماطلون كثيرًا... قال سينسينات بنبرة ناعسة ولذلك سوف يعتاد المرء، بكل تأكيد... لأنك تبقي روحك بحالة استعداد دائم يومًا بعد آخر بيدَ أنهم سوف يباغتونك. لقد مضت عشرة أيام، ومع ذلك لم أفقد صوابي ولم أجنّ. ولكن، هل ثمة أمل... الأمر غامض، كما هي الحال مع الغرق في الماء لكن الأمر هناك أكثر متعة. كنت تتحدث عن الهرب... وأنا أعتقد، أنا أخمِّن أنَّ ثمة مَن يسعى من أجل ذلك. هناك إشارات معينة... ولكن ماذا لو أنّ ذلك كان مجرّد خداع، مجرّد طية للمادة بحيث تبدو وكأنها وجه بشري...

توقف، ثم زفر بحسرة.

نعم، إنه أمر مثير للفضول قال السيد بيير ما هي الآمال الموجودة ومَن هو المنقذ، يا تُرى؟

هذا مجرّد تخيّل قال سينسينات وهل أنت تتمنى أن تهرب؟

كيف ذلك أن أهرب؟ وإلى أين؟ دُهِش السيد بيير.

تنهّد سينسينات متحسرًا من جديد وقال:

أليس الأمر سواء بالنسبة لك إلى أين. كنا سنهرب أنا وإياك سوية... ولكني لا أعرف ما إذا كنت قادرًا مع حجم جسمك وثقلك أن تعدو بسرعة؟ كما أن رِجليك...

لا بدَّ أنك تكذب قال السيد بيير وهو يتململ على الكرسي إنهم يفرّون هاربين من السجن في حكايات الأطفال. أما ملاحظتك بشأن بدانتي فيمكنك أن تتركها لنفسك.

قال سينسينات:

أشعر بالنعاس.

شمّر السيد بيير عن كمِّه الأيمن. فظهر هناك وشم. كانت العضلة ترتسم تحت الجلد ذي البشرة البيضاء إلى درجة مدهشة، كما لو أنها حيوان صغر سمين ومستدير. نهض واقفًا بحزم ومن ثم التقط بيدٍ واحدة كرسيًّا وراح يقلّبه ويتلاعب به وهو يرفعه ببطء نحو الأعلى. احتفظ به عاليًا فوق رأسه وهو يتأرجح بسبب توتره ومن ثم أنزله على مهل. كان ذلك مجرّد تمهيد.

راح يتنفس خلسة وهو يفرك يديه مطوّلاً بمنديل أحمر، بينما راح عنكبوت، باعتباره الأصغر في الأسرة البهلوانية في السيرك، يقوم بحيلة صغيرة فوق الشبكة العنكبوتية.

رمى السيد بيير المنديل له، ثم صاح باللغة الفرنسية وإذا به يقف على يديه. احتقن رأسه المستدير ببعض الدم الوردي الجميل؛ انزلق طرف بنطلونه الأيسر قليلاً وكشف عن الكاحل؛ أما عيناه المقلوبتان كما يحدث عند أي إنسان في هذه الوضعية فقد أصبحتا شبيهتين بعيني أخطبوط.

ما رأيك؟ سأل وهو يعود إلى وضعيته الطبيعية من جديد ويسوّي هندامه.

دوّى في الممر صخب لتصفيق حاد ومن ثم صفّق المهرّج بشكل منعزل، وبطريقة ضعيفة، وهو يتابع سيره، لكنه اصطدم بالحاجز بقوّة.

كرّر السيد بيير سؤاله:

ما رأيك؟ ألا أمتلكُ القوة؟ كما أنَّ المهارة واضحة بلا جدال؟ أم أنّ كل هذا لا يكفي بالنسبة لك؟

قفز السيد بيير ووقف على الطاولة، ثم وقف على يديه وأمسك مسند الكرسي بأسنانه. صمتت الموسيقى. رفع السيد بيير الكرسي الذي يمسكه بأسنانه بقوة، فراحت العضلات المتوترة تنتفض وترتجف كما صدر صرير عن الفكّين.

فُتِح الباب على مهلٍ، وإذا بمدير السيرك يدخل وهو في جزمة ذات رقبة طويلة، يحمل سوطًا، ومع وجه مطلي بالمساحيق، فسلّطت عليه أضواء ساطعة جدًّا إلى درجة العمى الأرجواني.

نبأ مثير! رقم قياسي عالمي! همس المدير ومن ثم نزع قبعته الطويلة وجلس بالقرب من سينسينات.

سمع صوتُ تكسّرٍ ما، فأرخى السيد بيير الكرسيَّ من بين أسنانه ومن ثم وقف على الأرض من جديد. بيدَ أنّ الأمر لم يكن يبدو وكأن كلّ شيء على ما يرام. لأنه قام على الفور بتغطية فمه بمنديل، ثم ألقى نظرة خاطفة إلى تحت الطاولة ومن ثم تحت الكرسي، وفجأة رأى ما كان يبحث عنه فراح وهو يصبّ لعنات مكتومة يحاول انتزاع فكه الاصطناعي المحمول على مفصلات والذي كان ملتصقًا بمسند الكرسي. كان الفك يبتسم بطريقة رائعة، وقد قبض على مسند الكرسي بقوة كبيرة لا فكاك منها. لم يرتبك عندئذ السيد بيير، بل حمل الكرسي مع الفك وغادر معه.

واصل رودريغ إيفانوفيتش الممسوس تصفيقه دون أن ينتبه أو يلحظ شيئًا غريبًا. لكن

المسرح ظلّ فارغًا. ألقى نظرة مريبة إلى سينسينات، ثم صفّق قليلاً ولكن من دون الحماس السابق، فارتجف وغادر مقصورته وهو يشعر بالاستياء والأسى.

وهكذا انتهى العرض على تلك الشاكلة.

XI

توقفوا عن جلب الصحف إلى الزنزانة: رفض سينسينات نفسه استلامها، وذلك بعد أن لاحظ أنه يتم اقتصاص منها كل ما يمكنه أن يتعلق بعملية الإعدام. كما أصبح الفطور الصباحي بسيطًا: بدأوا يقدمون له بدلاً من الشوكولاتة الساخنة بالرغم من كونها غير كثيفة شرابًا سائلاً جدًّا وسيّئ المذاق مع كمية كبيرة من أوراق الشاي؛ أما قطع الخبز المحمّص فكانت قاسية ولا يمكن مضغها إلا بصعوبة بالغة. لم يخفِ روديون استياءه وأنه ضاق ذرعًا من خدمة السجين الصامت والنزق الذي يصعب إرضاؤه.

ولهذا السبب كان روديون يقوم عن قصد بمختلف الأشغال في الزنزانة ولمدة أطول وأطول. كانت لحيته الطويلة والشقراء إلى درجة كبيرة جدًّا، بالإضافة إلى تلك الزرقة العبثية في عينيه، والمئزر الجلدي عليه، وأيضًا يداه الأشبه بملقطَين كل هذا كان يتحوّل مع التكرار إلى انطباع قاهر ومضجر، بحيث إنَّ سينسينات كان يقف مديرًا وجهه نحو الحائط طالما كانت عملية التنظيف في الزنزانة مستمرة.

وهذا ما حدث الآن أيضًا وحدها إعادة الكرسي مع آثار عميقة لأسنان كبيرة جدًّا وقوية على الحرف العلوي لمسنده المستقيم، شكّلت علامة فارقة لبداية النصف الثاني من اليوم. كما أحضر روديون مع الكرسي من السيد بيير ورقة مكتوبة بخط أشبه بتجعيدات صوف خروف، مع علامات ترقيم زخرفية وجميلة، وتوقيع أقرب إلى عملية الرقص مع الغطاء. كان الجار يعبِّر عن شكره بكلمات هزلية ورقيقة على الحديث الودّي ليلة أمس ويعرب عن أمله بأنَّ مثل ذلك الحديث سوف يتكرر في أقرب فرصة ممكنة.

«اسمح لي أن أؤكد لك هكذا بدأت الرسالة أنني جسديًّا قوّي جدًّا، جدًّا (وقد تم وضع خط تحت هاتين الكلمتين بواسطة مسطرة)، وفي حال أنه كانت لا تزال تساورك شكوك بهذا الخصوص، سيكون شرفًا لي أن أقوم أمام عينيك ببعض الأمثلة المثيرة للاهتمام (مع خط تحتها) التي تدل على البراعة والرشاقة وعلى النمو العضلي المذهل».

بعد ذلك كان سينسينات يتسكع في أرجاء الزنزانة وهو في حالة من غياب جزئي للوعي المصحوب بجمود حزين، لمدة ثلاث ساعات كاملة، تارة يشدّ شاربيه بين الفينة والفينة، وتارة يتصفح كتابًا. بات يقوم بمعاينتها وبدراستها

بشكل مفصّل ومن كافة النواحي كان يعرفها أفضل بكثير، لنقل، من غرفته التي عاش فيها سنوات طويلة.

كانت الجدران على النحو التالي: عددها أربعة بشكل ثابت ومؤكد؛ مطلية بشكل دائم باللون الأصفر؛ ولكن، بما أنها في الظل فإن اللون الأساس فيها كان اللون الصلصالي الداكن والأملس، على الأرجح، بالمقارنة مع ذلك المكان المتبدل حيث كان ينشأ نهارًا انعكاس النافذة الساطع بلون المُغرة؛ حيث كانت تُرى هنا بشكل واضح جدًّا على ضوء النهار كافة الانتفاخات الصغيرة للطلاء الأصفر السميك بما فيها الانثناء المتموج للأخاديد الناتجة عن مرور الشعيرات في الفرشاة دفعة واحدة كما كان ثمة خدش معروف متوازي الأضلاع الثمين لأشعة الشمس يصل إليه في تمام الساعة العاشرة صباحًا.

كانت تصعد من الأرضية الحجرية المتوحشة برودة زاحفة تلتقط العقبين؛ كما كان ثمة صدى غير مكتمل النمو وحاقد، يقيم في مكانٍ ما من السقف المقعّر قليلاً، مع مصباح كهربائي في وسطه (محاط بشبك معدني) بل ليس في المنتصف تمامًا: كان شكله غير المتناسق يزعج العين وبهذا المعنى لم تكن المحاولة الفاشلة لطلاء الباب المعدني بالألوان أقلَّ إزعاجًا.

من بين ثلاثة أشياء تمثِّل الأثاث السرير والطاولة والكرسي، وحده الكرسي كان قابلاً للحركة والانتقال. كما كان العنكبوت أيضًا يتحرك. كان الحيوان ذو الحجم الممتلئ قد عثر هناك في الأعلى، حيث كان يبدأ التجويف غير الحاد للنافذة، على نقاط استناد لنسج شبكة عنكبوتية من الطراز الرفيع بنفس الحيلة والمهارة التي طلبتها مارفينكا عندما وجدت زاوية كانت تبدو غير مناسبة على الإطلاق، لكي تعلّق الملابس الداخلية كي تجف. وإذ جمع أقدامه أمام نفسه، ما جعل مرفقيه المشعرين يبرزان بطريقة خرقاء، راح الوحش يحدِّق بعينين بنيّتين مستديرتين إلى اليد التي تحمل قلم رصاص ممدودًا نحوه، فراح يتراجع إلى الخلف وينكمش دون أن يشيح بصره عنه. ولكنه كان يلتقط برغبة كبيرة بأطراف أرجله ذبابة أو فراشة من بين أصابع روديون الضخمة وها هو الآن، على سبيل المثال، جناح ورديُّ اللون ومع ظل حريري ومكعبات زرقاء عند الحواف المسننة لفراشة يتيمة يقف معلّقًا في الجزء الجنوبي الغربي من الشبكة العنكبوتية. كان الجناح يتحرك بشكل خفيف جدًّا من جراء تيار ضعيف للهواء.

باتت الكتابات على الجدران ملطخة. كما اختفت لائحة التعليمات. اختفى أيضًا وربما كُسِر الإبريق الفخاري التقليدي الذي كان يحتوي على ماء قاتم اللون من الكهف في قعره الرنان. أصبح عاريًا ورهيبًا وباردًا ذلك المكان الذي قمعت فيه سمة «السجن» باللامبالاة لامبالاة غرفة على سبيل مكتب أو غرفة في مشفى أو غير ذلك غرفة للمنتظرين حين بات الأمر قريبًا من المساء، بحيث إنه لم يعد مسموعًا سوى الطنين في الأذنين... مع الإشارة إلى أنَّ فظاعة ذلك الانتظار كانت متزامنة بطريقة ما مع مركز السقف الذي تمّ تحديده بشكل غير دقيق.

كانت توجد على الطاولة التي تمّت تغطيتها مؤخرًا بمشمع مع مربعات، مجلدات من
المكتبة في أغلفة بلون أسود قريب من لون جزمة جلدية. كما كان ثمة قلم رصاص فاقد لرشاقته وتم تعريضه للعض بشكل كبير، وقد استقر فوق مجموعة من الأوراق المرتّبة والمليئة بكتابة مستعجلة. وإلى جانبها كانت توجد رسالة موجهة إلى مارفينكا سبق أن انتهى سينسينات من تحريرها غداة اليوم الذي جرى فيه اللقاء؛ لكنه لم يحسم أمر إرسالها ولذلك تركها ملقاة في مكانها، كما لو أنه كان ينتظر من الشيء ذاته نوعًا من النضج الذي لم تتمكن من بلوغه تلك الفكرة ضعيفة الإرادة والمحتاجة لمناخ آخر.

سوف يكون الحديث الآن عن لآلئ سينسينات؛ عن قصوره الجسدي؛ وكيف أنّ الجزء الرئيس منه موجود في مكان آخر مختلف تمامًا، وأما هنا، فكان يتسكع في ضلال، وبشكل مثير للحيرة، جزء صغير منه فقط سينسينات البائس، والغامض، سينسينات الأحمق نسبيًّا كما يحدث أن يكون المرء في حلمه ساذجًا وضعيفًا وغبيًّا. ولكن، حتى في الحلم الأمرُ سواءٌ في سواء، كلُّ شيء سواء لأن حياته الحقيقة كانت واضحة إلى درجة كبيرة جدًّا.

كان وجه سينسينات الذي أصبح أبيضَ وشفافًا، مع زغب على وجنتيه الغائرتَين وشاربين من مادة شعرية ناعمة، بحيث إنَّها بدت وكأنها مجرّد ضوء شمس مهدور على الشفة؛ كان وجه سينسينات يبدو صغيرًا وفتيًّا، وذلك على الرغم من شتى أشكال الألم، مع عينين زائغتين وظلّ غير دائم، كما لو أنهما شبحيتان كان من حيث ملامحه غير مقبول لدينا على الإطلاق لا سيما الآن حين كفَّ عن التكتم. كان القميص المفتوح، والرداء الأسود المتأرجح، بالإضافة إلى الخفّين الكبيرين جدًّا في قدميه النحيلتين، وتلك الكيباه((46)) الفلسفية على قمة رأسه إلى جانب الحركة الخفيفة (فقد كان ثمة تيار هوائي يهبّ من مكان ما على أية حال!) للشعر الشفاف على الصدغين كل ذلك أكمل اللوحة المشار إليها، التي يصعب التعبير عن فظاعتها بالكلمات إذ إنها

كانت مكوَّنة من ألف تفصيل صغير تكاد تكون غير مرئية وتتقاطع بعضها مع بعض، ومن ملامح مضيئة لشفتين كما لو أنهما غير مكتملتَين، ولكن فنانًا من خيرة الفنانين وضع لمسته عليهما، ومن حركة رفرفة ليدين فارغتين لم يتم تظليلهما بشكل كاف بعد، ومن أشعّة هاربة ومتقاطعة من جديد في عينين تتنفسان... ولكن كل هذا المشتت والمنظور لم يصبح قادرًا بعد على تفسير سينسينات: كان ذلك أقرب إلى كونه في جانب واحد من كينونته ينتقل من أحد المستويات إلى مستوى آخر، كما هي الحال مع مجمل التعقيد في أوراق الشجر حين تنتقل من الظل إلى اللمعان، بحيث إنك لا تستطيع أن تفهم أين يبدأ الانغماس في ارتجاف عنصر آخر من عناصر الطبيعة. بدا الأمر كما لو أنّ سينسينات ينتقل أثناء حركته في الفضاء المحدود لزنزانة متخيلة، بطريقة عفوية وطبيعية وأنه ينزلق من دون أي جهد إلى ما وراء ستارة الهواء، إلى نوع ما من فتحة هوائية وضوئية وأنه سوف يرحل إلى هناك بنفس السلاسة السهلة التي يتحرك بها على جميع الأشياء وبحيث يختفي فجأة خلف الهواء، في عمق آخر وفي لمعان سريع لمرآة تدور. في غضون ذلك، كان كلُّ شيءٍ فيه يتنفس حياة خفيفة وناعسة لكنها في جوهرها، قوية إلى أبعد حد، وحارّة جدًّا وفريدة من نوعها: كانت العروق الزرقاء تنبض، مثل أية زرقة، وكان لعابه النظيف والشفاف مثل الكريستال يرطّب شفتيه، ويدغدغ جلده على الوجنتين وعلى الجبين المحدد بضوء مذاب... وقد راح كل ذلك يثير الحنق بحيث إن المراقب كان يريد أن ينتزع على الفور، وأن يحطّم ويسحق ذلك البدن الهارب بطريقة وقحة وكلَّ ما يمكن أن ينطوي عليه، وما يمكن أن يعبّر عنه بشكل غير واضح، كل ما هو مستحيل وحر ومبهر كفى، كفى لا تمش أكثر من ذلك، بل استلقِ على السرير، يا سينسينات، وذلك لكي لا تسبب أية إثارة ولا أي قلاقل أو إزعَاج وبالفعل، كان سينسينات، وقد أحسَّ بالاندفاع المتوحش للتحديق من خلال ثقب الباب، يستلقي على السرير أو يجلس إلى الطاولة ويقوم بفتح الكتاب.

كانت الكتب التي استحال لونها إلى الأسود والموجودة على الطاولة هي التالية: أولاً، رواية معاصرة لم يتسنَّ لسينسينات أن يقرأها عندما كان حرًّا؛ ثانيًا، أحد تلك الكتب التعليمية [كريستوماتي] التي كانت تصدر بأعداد هائلة والتي كانت تضم بين دفّتيها تلخيصات ومقتطفات من الأدب القديم؛ وثالثًا، أعداد من مجلة قديمة تمَّ تجليدها من جديد؛ ورابعًا، عدّة مجلدات صغيرة ورثّة من بحث مكثّف بلغة غير مفهومة تم جلبها عن طريق الخطأ فهو لم يطلبها.

أما الرواية فكانت الرواية الشهيرة «QUERCUS»((47))، وكان سينسينات قد قرأ أكثر من ثلثها: حوالي ألف صفحة. كانت الشخصية في الرواية هي

شجرة سنديان. وكانت الرواية عبارة عن سيرة ذاتية لشجرة السنديان. كان قد بدأ القرن الثالث من عمر الشجرة، حيث توقف سينسينات عن القراءة؛ وقد أظهر الحساب البسيط أنّ عمر الشجرة سوف يبلغ في نهاية الكتاب الستمئة سنة على الأقل.

كان يسود اعتقاد بأن فكرة الرواية تشكل ذروة التفكير المعاصر. وإذ استخدم المؤلف النمو المتدرج للشجرة (التي راحت تنمو وحيدة وبقوة عند أسفل المنحدر إلى وادٍ جبلي، حيث كان الماء يضجُّ دائمًا ومن دون توقف)، فقد قام بعرض موسّع ومتسلسل لكافة الأحداث التاريخية أو ظلال تلك الأحداث التي كان بإمكان شجرة السنديان أن تكون شاهدًا عليها؛ كان ذلك تارة حوارًا بين متحاربَين نزلا عن صهوتَي جواديهما من سلالة
إليزابيت((48)) وبلون تفاحي وذلك بهدف الراحة في الظلّ المنعش لأغصان الشجرة النبيلة؛ وتارة توقف اللصوص للراحة وغناء شخص هارب خفيف الشعر؛ وتارة مرور مستعجل لأحد النبلاء تحت التعرج الأزرق لعاصفة برقية، وهو يفرّ ناجيًا بجلده من غضب القيصر؛ وتارة جثة محمولة على معطف كما لو أنها ما زالت تختلج بفعل حركة الظل من الأوراق؛ وتارة دراما قصيرة وعابرة بين قرويين. كما كانت ثمة فقرة حوالي صفحة ونصف، حيث جميع الكلمات فيها تبدأ بحرف «Π» .

كان يُخيّل كما لو أنَّ المؤلف يجلس مع أدواته في مكان ما من الأغصان العليا من شجرة QUERCUS وقد راح يراقب ويترصد الطريدة. حلّت وانتهت أنماط مختلفة من الحياة، بعد أن تكون قد مكثت للحظة قصيرة جدًّا وسط الانعكاسات الخضراء. أما الفراغات الطبيعية في حالات انعدام الفعل، فكانت تُملأ بتوصيفات مسهبة وعالمة لشجرة السنديان بالذات، وذلك من وجهة نظر علم الشجر، وعلم الطيور، وعلم الحشرات Coleopterology ، وعلم الأساطير أو عن طريق توصيفات شائعة وجماهيرية بمشاركة الطرفة الشعبية. وقد أورد المؤلف، بالمناسبة، قائمة كاملة ومفصّلة لجميع المونوغرامات [الأحرف الأولى] على قشرة الجذع مع شرح وتفسير لها. وأخيرًا، أولى المؤلف اهتمامًا كبيرًا لموسيقى الماء وللوحات طلوع الفجر ولسلوك الطقس.

كان سينسينات يقرأ ومن ثم يضع الكتاب جانبًا. مما لا شك فيه أنّ هذا الكتاب كان الأفضل من بين ما كان يملأ له وقته لكنه كان يجهد كثيرًا لكي يقرأ

الصفحات ومع إحساس بالكرب، وكان يغمر الرواية بصورة دائمة بموجة من أفكاره الخاصة: ما حاجتي لهذا الأمر البعيد والمزيف والميت أنا الذي أجهّز نفسي للموت؟ أو أنه كان يبدأ بأن يتخيل نفسه، مثل المؤلف، شخصًا شابًّا يعيش، كما يشاع، في جزيرة في بحر الشمال، على الأرجح، وأنه سوف يموت وهذا كان مثيرًا للضحك بطريقة ما إذ إنَّ المؤلف لا بدّ أن يموت ذات يوم وأما سبب الضحك فيعود إلى أنَّ الموت كان هنا الأمر الوحيد الحقيقي والأكيد من دون أدنى شك حتمية الموت الجسدي للمؤلف.

كان ضوء الشمس يغيّر مكانه على الجدار. جاء روديون وهو يحمل ما كان يدعوه فطورًا((49)). ومن جديد راح جناح الفراشة ينزلق بين أصابعه تاركًا عليها بودرة ملونة.

هل يُعقَل أنه لم يأتِ بعد؟ سأل سينسينات وهو يطرح هذا السؤال من دون كلل، إلى درجة أنه بات يثير استياء شديدًا عند روديون الذي لم يجب عليه في هذه المرة أيضًا.

سأله سينسينات:

ألن يسمحوا بزيارات أخرى؟

وبانتظار حرقة في المعدة مرة أخرى، استلقى على السرير وأدار وجهه نحو الحائط، ثم راح لمدة طويلة يعمل ويساعد في ظهور رسومات عليه تتشكل على شكل سلسلة من تجعيدات من طلاء لامع وظلالها الدائرية؛ وقد عثر، على سبيل المثال، على صورة جانبية صغيرة جدًّا لها أذن كبيرة أشبه بأذن فأر؛ ثم أضاعها ولم يعد قادرًا أن يستعيدها. كانت تلك المُغرة على الجدار تفوح برائحة القبر، كما أنها كانت مليئة بالبثور وفظيعة، ومع ذلك واصلت النظرة اختيارها وتخيلها للنتوءات اللازمة والمناسبة كم كان ينقص، وكم كان يتمنى لو أنه ينجح في الحصول على ملامح بشرية حتى ولو كانت غير واضحة إلاّ بصعوبة بالغة. أخيرًا استدار واستلقى على ظهره ثم راح يتأمل بنفس الدرجة من الاهتمام الظلال والشقوق في السقف.

«يبدو لي أنهم، على العموم، قضوا عليَّ راح سينسينات يقول في نفسه فقد أصبحتُ طريًّا إلى درجة أنه بات بالإمكان تقطيعي بسكين للفواكه».

ظلّ جالسًا على حافة السرير لبعض الوقت، محنيًّا وقد شبك يديه بين ركبتيه. أطلق زفرة مرتجفة ثم نهض وراح يتمشّى من جديد. إنه أمر مثير للفضول بأية لغة كتب ذاك النص، يا تُرى. ذلك أنَّ مجموعة الأحرف الناعمة والدقيقة، المتلاصقة والمزخرفة، مع نقاط وكائنات حية داخل الأحرف المنجلية الشكل، كانت أقرب على الأرجح إلى لغة شرقية معينة إنها تشبه إلى درجة ما النقوش على الخناجر الموجودة في المتاحف. كما أنَّ المجلدات قديمة جدًّا، والصفحات غير واضحة... والبعض منها ملطخ ببقع صفراء...

دقت الساعة معلنة السابعة مساء، وسرعان ما جاء روديون يحمل وجبة الغداء.

لا بدَّ أنه لم يصل بعد؟ سأل سينسينات.

كان روديون في طريقه للخروج، ولكنه توقف عند الباب ومن ثم التفت وقال:

يا للعيب ويا للعار قال وهو يشهق إنك تقوم بتخريب ثمار الأجاص ليلاً ونهارًا... نقدّم لك الطعام هنا، ونعتني بك ونرعاك، مع أنك غير قادر أن تقف على قدميك بنفسك، ولكنك لا تعرف سوى أن تطرح أسئلة غبية وغير ضرورية. اللعنة عليك، يا عديم الوجدان...

تابع الوقت مسيره كما لو أنه يطنّ بانتظام وبسلاسة. أصبح الهواء في الزنزانة داكنًا، وحين لم يعد قادرًا على الرؤية وأصبح واهنًا، أشعل اللمبة في منتصف السقف بطريقة
عملية كلا، بل ليست في المنتصف تمامًا يا له من تذكير مرهق ومتعب. نزع سينسينات ثيابه ومن ثم استلقى في الفراش مع «Quercus». كان المؤلف قد وصل إلى الحقب المتحضرة طبقًا للحديث بين ثلاثة رفقاء طريق مرحين، تيتوس وبوذا واليهودي الخالد، حيث كانوا يشربون النبيذ من القوارير مباشرة على مفرش من الطحالب الباردة تحت شجرة سنديان مسائية سوداء.

هل من المعقول أنه ما مِن أحد قادر أن ينقذني؟ سأل سينسينات فجأة وبصوت مرتفع، ومن ثم جلس على حافة السرير (كانت يدا البائس تشيران إلى أنه لا يملك أية حيلة).

هل يُعقَل أنه ما مِن أحد؟ كرر السؤال وهو يحدّق إلى الصفرة عديمة الشفقة للجدران ومواظبًا على الإمساك براحتي يديه الفارغتين.

تحوّل تيار الهواء إلى نفحة من نسيم شجرة بلوط. سقطت جوزة بلوط مزيفة وغير حقيقية وهي في قوقعتها، ثم قفزت وراحت تتدحرج على الشرشف بعد أن انفصلت عن الظلال النائمة التي نمت وكبرت في الأعلى؛ كانت كبيرة، أكبر بمقدار مرتين من جوزة البلوط الحقيقية، وفوق ذلك كانت مطلية بشكل رائع بلون أصفر لامع، وفضلاً عن ذلك كانت مصقولة ومكثّفة مثل بيضة.

XII

استيقظ على وقْع طَرْق مكتوم، وحكّة، وقد راح شيء ما يتساقط في مكان ما على شكل نثرات. هكذا، كان قد غفا مساء أمس وهو بكامل عافيته، وإذا به يستيقظ بعد منتصف الليل مع ترفع حروري. راح يصيخ السمع مطوّلاً لتلك الأصوات طروم، طروم، تاك تاك تاك دون أن يلتقط أي معنى لها، وإنما بكل بساطة لأنها أيقظته، ولأنه لم يكن ثمة أي شيء آخر يمكن لسمعه أن يفعله. جلبة وطرْق وصرير، وصوت تناثرٍ يتكرر. أين؟ هل من اليمين؟ أم من اليسار؟ نهض سينسينات.

راح يصيخ السمع تحوّل رأسه بالكامل إلى عضو للسمع، وكل جسده إلى قلب مشدود؛ كان يصغي وقد بدأ يلتقط معنىً ما في بعض الإشارات: ثمة تسرّب خفيف للظلام في الزنزانة... وقد رسا ما هو معتم إلى القاع... خلف شبك النافذة ضوء خافت رمادي اللون: هذا يعني أن الساعة حوالي الثالثة أو الثالثة والنصف فجرًا... نام الحراس وقد تجمّدوا... تنطلق الأصوات من مكان ما في الأسفل كلا، بل من الأعلى، بل من الأسفل مع ذلك كما لو أنها خلف الجدار تمامًا، على مستوى الأرضية، ثمة فأر كبير يحفر بمخالبه المعدنية.

أكثر ما كان يثير الاضطراب عند سينسينات هو تلك الثقة المركّزة للأصوات وتلك الجدية المصحوبة بالإصرار للأصوات التي كانت تطارد في صمت الليل في القلعة هدفًا مقدورًا عليه بكل تأكيد، ولكنه ربما كان ما زال بعيدًا. حبس أنفاسه ثم انزلق برشاقة شبحٍ، كما لو أنه ورقة سجائر رقيقة جدًّا... ومن ثم راح يسير على رؤوس أصابعه على شيء ما لزج وصلب... باتجاه تلك الزاوية التي كان الصوت، كما لو أنه... كما خيّل إليه... ولكنه أدرك، بعد أن اقترب، أنه أخطأ كان الطرْق يأتي من جهة اليمين أكثر ومن الأعلى؛ تقدّم نحو الأمام ومن جديد شعر بأنه ضلّ الطريق إذ وقع ضحية الخداع السمعي، بعد أن تبين أنّ الصوت لا يتم التقاطه بالأذن المناسبة، فاجتاز من فوق رأسه بطريقة سريعة ومن جانب إلى آخر.

قام سينسينات بخطوة غير موفقة فاصطدم بطبق معدني موضوع قرب الحائط على الأرضية، فقال الطبق معاتبًا : «يا سينسينات!» وإذ بالطرْق يتوقف بطريقة مباغتة تمامًا كان يمكن لمن يصغي أن يجد فيها نوعًا من العقلانية المبهجة ثم قام سينسينات وهو واقف قرب الحائط بالضغط بإبهام قدمه على ملعقة صغيرة موجودة على الطبق، ليحني رأسها المثقوب

والفارغ، ما جعله يشعر بأن الحفّار المجهول يجمد هو الآخر ويبدأ بالإصغاء مثله.

بعد مرور حوالي نصف دقيقة بدأت الأصوات تتكرر من جديد ولكن بطريقة أكثر خفوتًا، وأكثر كبحًا، وأيضًا بطريقة معبّرة أكثر وبذكاء أكبر. استدار سينسينات وقام بنقل قدمه ببطء عن طبق الزنك، ثم جرّب من جديد أن يحدِّد وضعيتها: من جهة اليمين في حال أنه وقف مديرًا وجهه نحو الباب نعم، من اليمين، وعلى أية حال كان مصدر الصوت ما زال بعيدًا... هذا كل ما استطاع بعد فترة طويلة من التنصت أن يستنتج. وعندما تحرّك في نهاية المطاف عائدًا إلى السرير، لكي ينتعل حذاءه لأنه لم يعد قادرًا على متابعة السير حافي القدمين قام في العتمة بضرب الكرسي الثقيل والضخم الذي لم يسبق أن بقي أثناء الليل في هذا المكان أبدًا، وإذ بالأصوات تتوقف من جديد وهذه المرة بصورة نهائية، أي ربما كانت ستتواصل بعد توقف حذر لبعض الوقت، لكن الصباح كان قد بدأ يعلن عن قدومه، ولذلك رأى سينسينات بعيني التصور العادي كيف أن روديون يجلس وهو يتمطط على مقعده في الممر وقد راح ينبعث منه دخان بسبب الرطوبة، فاغرًا فمه الأحمر الساطع.

راح سينسينات يصغي ويقلّب في عقله كيف يمكنه أن يعبّر عن موقفه من الأصوات في حال أنها تكررت. راحت تهب في الفناء عاصفة صيفية تمّ تنظيمها ببساطة ولكن مع ذوق رفيع فأظلمت الزنزانة، كما يحدث في أوقات المساء، وهدر رعد، تارة قويًّا ومستديرًا، وتارة لاذعًا ومتكسِّرًا، كما كان البرق في أماكن بعينها يطبع انعكاس الشباك على النافذة. جاء رودريغ إيفانوفيتش في وقت الظهيرة.

قال:

لقد جاءوا لزيارتك... لكني كنت أودّ أن أعرف قبلاً...

مَن ذا الذي جاء؟ سأل سينسينات وهو يقول في نفسه: أرجو ألا يتكرر ذلك في هذا الوقت بالتحديد... (أي ألا يستأنف الطرْق الآن بالتحديد).

إنها، لعلمك، شخصية ما قال المدير وأنا لست واثقًا من أنك ترغب في

VOTRE MÈRE, PARAÎT- IL

استقبالها... المسألة تكمن في أنها والدتك
(50)

أمّي؟ أعاد سينسينات طرح السؤال.

بلى، إنها أمكّ، والدتك، باختصار المرأة التي أنجبتك. هل ترغب في استقبالها؟ هيا قرّر بسرعة.

... لقد رأيتها مرة واحدة في حياتي قال سينسينات والحقيقة هي أنني لا أملك أية مشاعر... كلا، كلا، لا يستحق الأمر، لا داعي ولا معنى لذلك.

كما تشاء قال المدير ثم خرج من الزنزانة.

بعد لحظة كان يقود وهو يتمتم بلباقة السيدة سيسيليا تسي. في مشمع أسود.

سوف أترككما وحدكما أضاف قائلاً بلطف مع أنّ ذلك يخالف القواعد عندنا، بيدَ أنه تصادَف حالات... استثناءات... أم وابنها... أنحني باحترام...

(51)(EXIT)، وهو يرجع للوراء مثل خادم في بلاط الملك.

بقيت سيسيليا تسي. في قبعة سوداء من نفس المادة غير القابلة للبلل ولها حواف محنية نحو الأسفل (ما جعلها أشبه بصياد أثناء العاصفة)، واقفة وسط الزنزانة في مشمعها المطري وهي تحدّق إلى ابنها بنظرة مليئة بالحيوية؛ ثم بدأت بفكِّ أزرار المشمع؛ أخذت شهيقًا صاخبًا وقالت بصوت مستعجل ومتقطع:

يا لها من عاصفة رعدية هوجاء، اللعنة، ظننت أنني لن أصل أبدًا إلى هنا، فقد كانت ثمة سيول وفيضانات في الطريق...

تفضلي، اجلسي قال سينسينات لا تقفي هكذا.

مهما يكن، لكن المكان عندكم هنا هادئ تابعت كلامها وهي تشمخ بأنفها وتمرّر إصبعها بقوة أمام أنفها مثل أداة للتقشير، بحيث إنّ نهايته الحمراء تجعّدت وأصبحت تهتز. يمكن أن أقول أمرًا وحيدًا المكان هنا هادئ ونظيف تمامًا. أما لدينا في دار العجزة، بالمناسبة، فلا توجد غرف مستقلة بمثل أبعاد كهذه. إيه، وأما الفراش يا له من فراش ناعم ووثير عندك!

ألقت بحقيبة سفرها، ونزعت قفازها القطني الأسود عن يديها الصغيرتَين والعمليتَين بمهارة، ثم مدّت جسمها منحنية فوق السرير وبدأت تعيد ترتيب الفراش من جديد كما لو أنها تقوم بترتيب نفسها هي بالذات. لاح ظهرها الأسود مع لمعان أخرق، وحزام بالإضافة إلى جوارب عالية تمّ رتقها.

قالت وهي تستقيم:

هكذا أفضل. ومن ثم وضعت يديها في خاصرتيها للحظة وألقت نظرة إلى الطاولة المزدحمة بالكتب.

كانت تبدو شابّة، وكانت جميع ملامحها تشكِّل قدوة ومثالاً لآل سينسينات الذين ورثوا عنها تلك الملامح؛ التقط سينسينات ذلك الشبه بها بشكل غامض بينما كان ينظر إلى وجهها ذي الأنف الحاد وإلى اللمعان المتدرج لعينيها البراقتَين. كان يوجد في وسط صدرها المكشوف إلى درجة لافتة مثلث أحمر اللون يمتد نحو الأسفل من النمش الناتج عن أشعة الشمس، وكان الجلد عندها بصورة عامة من نفس ذلك الجلد الذي تم اقتطاع جزء منه ذات زمن من أجل سينسينات جلد شاحب ورقيق، مع عروق بلون الزرقة السماوية.

ياه، ياه، كان المفروض أن أقوم بالترتيب هنا أيضًا... غمغمت ومن ثم قامت على الفور وبسرعة، ككل ما كانت تفعله، بحمل الكتب وترتيبها على شكل أعمدة. لفتت نظرها بشكل عابر لوحة موجودة في إحدى المجلات، فتناولت من جيب معطفها علبة لها شكل حبة فاصوليا، ثم أنزلت زاويتي فمها ووضعت النظارة الأنفية على عينيها. العام ستة وعشرون قرأت بسرعة وابتسمت يا لها من لوحة قديمة، لدرجة لا تُصدَّق.

(... كانت ثمة صورتان: على واحدة منهما الرئيس ذو الأسنان البيضاء في محطة القطارات في مانشستر يصافح يدَ ابنة حفيدة آخر المخترعين وقد طبعتها السنون وبدّلتها؛ وفي الصورة الثانية يوجد عجل ذو رأسين كان قد ولد في منطقة الدانوب...).

زفرت من دون سبب ثم أبعدت الكتاب جانبًا، فأسقطت قلم الرصاص ولم تنجح في التقاطه، وهتفت قائلة: تبًّا!

لا تلمسي! قال سينسينات لا يمكن أن تكون ثمة فوضى هنا، بل يمكن أن يكون هنا تبدل وانتقال في المكان.

انظر ماذا جلبتُ لك (سحبت من جيبها قمعًا ورقيًّا، ومعه سحبت بطانة الجيب من المعطف). انظر. لقد أحضرت لك حلويات من الكراميلا. تفضل مُصّها بالعافية.

ثم جلست متجهّمة.

صعدتُ ووصلتُ بمشقّة كبيرة فشعرت بالتعب قالت وهي تلهث عن عمد، ومن ثم جمدت وراحت تحدِّق إلى شبكة العنكبوت في الأعلى بحماس غامض وكبير.

سأل سينسينات وهو يتمشّى في الزنزانة:

لماذا جئتِ؟ فلا أنتِ بحاجة إلى ذلك ولا أنا. لماذا؟ هذا أمر فظيع ولا معنى له نهائيًّا. وأنا أرى بوضوح كبير بأنك محاكاة ساخرة أيضًا، مثلك مثل الجميع، مثل جميع الآخرين. وفي حال أنهم كانوا يقدمون لي كضيافة محاكاة هزلية حاذقة على الأم... حاولي أن تتخيلي لنفسك، على سبيل المثال، أنني عقدتُ آمالي على صوت ما بعيد، فكيف يمكنني أن أثق به حينئذ حتى ولو أنك كنت مجرّد خداع. كنتِ ستقولين فوق ذلك: ها لك الحلوى. ولماذا معطفك مبلل، في حين أن حذاءك جافّ هذا دليل على الإهمال وعدم الانتباه. انقلي إلى المسؤول عن حاجيات التمثيل.

فقالت على عجل ومع إحساس بالذنب:

ذلك لأنني كنت أرتدي القالوش [حذاء مطاطيًا]، وقد تركتُه في الطابق السفلي، في
مكتب الإدارة، أقول الصدق...

آه، كفى، كفى. لا داعي لأن تقدّمي لي مختلف التبريرات. هيا العبي الدور المرسوم لك المزيد من الثرثرة، والكثير من عدم الاكتراث ولا مشكلة، فسوف ينجح الأمر.

لقد جئتُ لأنني أمّك قالت بصوت خافت، فانفجر سينسينات ضاحكًا وقال:

لا، لا، لا تبتعدي عمّا هو هزلي ومزيف. تذكّري أنّ ما يجري هنا هو مسرحية درامية. ليبقَ ما هو مضحك مضحكًا ولكن، مع ذلك لا ينبغي عليك أن تبتعدي كثيرًا عن المحطة: لأن المسرحية الدرامية يمكن أن ترحل. بل من الأفضل لك... أن تقومي بتكرار، بأن تكرري على مسامعي، ربما، الحكاية عن والدي. هل اختفى بالفعل في أوان ليل حالك، وأنك لم تعرفي أبدًا مَن هو ومِن أين جاء يا له من أمر غريب...

سمعتُ صوتَه فقط أما وجهه فلم أره أجابت بنفس النبرة الخافتة.

هكذا، إذن، ها أنتِ تتملقين لي، وأنا أعتقد أننا سوف نجعل منه رجلاً عجوزًا، بحارًا فارًّا تابع سينسينات مع حسرة وهو يفرقع بأصابعه ويتمشّى بلا توقف أو سنجعل منه لصًّا أصلعَ في الغابة((52)) كان يقدّم عروضه في الحديقة. أو حِرفيًّا، نجارًا، داعرًا...هيا، اخترعي شيئًا ما بسرعة.

هتفتْ قائلةً:

أنت لا تفهم (نهضت واقفة بسبب اضطرابها لتعود وتجلس من جديد) نعم، أنا لا أعرف مَن كان هو. متشرّد أم فارٌّ، بل إنَّ كافة الاحتمالات واردة... وكم أنك غير قادر على فهم ذلك... نعم كان ثمة احتفال، وكانت الحديقة مظلمة، وقد كنت فتاة صغيرة بعد ولكن ليس هذا هو لبُّ المسألة. لأنه لا يمكن للمرء أن يخدع نفسه. فالإنسان الذي يتم حرقه حيًّا، يعرف بكل تأكيد، أنه لا يستحم

عندنا في نهر ستروب. ما أريد قوله: لا يجوز، لا يجوز للمرء أن يرتكب الخطأ... آخ، كما أنك لا تفهم بالقدر الكافي!

ما الذي لا أفهمه؟

آه، يا سينسينات، لقد كان هو الآخر أيضًا...

ماذا كان أيضًا؟

لقد كان مثلك، يا سينسينات.

أخفضت وجهها تمامًا، فسقطت نظارتها الأنفية في حفنة يدها.

لحظة صمت.

سأل سينسينات وهو عابس:

ومن أين لكِ أن تعرفي ذلك؟ كيف يمكن تحديد ذلك بمثل هذه السرعة...

لن أقول لك شيئًا أكثر من ذلك قالت دون أن ترفع عينيها.

جلس سينسينات على حافة السرير واستغرق في التفكير. راحت أمّه تتمخّط مُصدرة صوتًا نحاسيًّا غير مألوف، لم يكن يتوقع صدوره عن مثل امرأة ضئيلة الحجم كهذه، ثم نظرت نحو الأعلى إلى تجويف النافذة. كانت السماء، على ما يبدو، قد بدأت تصبح صافية، ما جعل الإحساس بالزرقة قريبًا، كما رسمت أشعة الشمس شريطًا على الجدار، كان يشحب تارة ليصبح حارًّا من جديد تارة أخرى.

ينمو الآن نبات القنطريون في حقول الجودار قالت بلهجة مستعجلة لكن المنظر ساحر مع ذلك، وها هي السحب تجري مسرعة، وكل شيء في المحيط مفعم بالاضطراب وبالضياء. أنا أعيش في مكان بعيد من هنا، في

حي دكتورسكي [الدكاترة] وعندما آتي إليكم إلى المدينة، حيث أعبر الحقول في عربة من الطراز القديم، فإني أرى كيف يلمع نهر ستروب، وأرى ذلك التل مع قلعة في أعلاه وكلّ شيء ويخيَّل إليّ على الدوام أنّ كلّ شيء يتكرر، أن حكاية ما رائعة تتكرر دون أن يسعفني الوقت أو أنني لا أحسن الفهم وبالرغم من ذلك ثمة من يكررها عليَّ وبصبر كبير! أنا أعمل طوال اليوم في مأوى العجزة، والأمر سواء بالنسبة لي، لديّ عشاق ومعجبون، كما أنني أحب شراب الليموناضة البارد، لكنني تخليت عن التدخين لأنني أعاني من تسلخ في الأبهر وها أنا ذا أجلس عندك أجلس عندك دون أن أعرف لماذا أجلس، ولماذا أبكي، ولماذا أحكي لك عن ذلك، وأنا سأشعر بالجو حارًّا وأنا أهبط إلى الأسفل في هذا المعطف والثوب المصنوع من الصوف، لأن الشمس سوف تصبح مسعورة جدًّا بعد هذه العاصفة المطرية...

كلا، أنت لستِ سوى محاكاة ساخرة قال سينسينات هامسًا.

ابتسمت مستفسرةً:

مثل هذا العنكبوت، ومثل تلك الشبكة المعدنية على النافذة، ومثل دقات هذه الساعة على الحائط همس سينسينات قائلاً.

هكذا هو الأمر، إذن قالت ومن ثم راحت تتمخّط من جديد.

أجل، هكذا هو الأمر، إذن كرر قولها.

صمت كلاهما دون أن ينظر أحدهما إلى الآخر، بينما كانت الساعة تدق بطريقة خالية من أي معنى.

قال سينسينات:

أرجو أن تلقي نظرة وأنت خارجة من هنا على الساعة الموجودة على الحائط في الممر. إنها مجرّد قرص ساعة فارغ، ولكن الحارس يقوم كلّ نصف ساعة بتنظيف العقرب القديم ويرسم واحدًا جديدًا وهكذا نعيش في زمن مطلي، في حين أنّ دقة الساعة يقوم بها
الحارس المناوب [الخفير] ولهذا السبب هو يحمل مثل هذا اللقب.

قالت سيسيليا تسي:

أرجو ألا تمزح، لأنه تصادف، لعلمك، حيل مدهشة. ها أنا ذاك أذكر: عندما كنتُ طفلةً، كانت دارجة آه، وليس لدى الصغار فقط، بل ولدى الكبار أيضًا أشياء كان يقال لها «لعبة الخيطان أو الشِّباك»، وكان يفترَض أن تكون معها مرآة خاصة، وهذه المرآة لم تكن منحرفة وحسب بل كانت مشوّهة بشكل كامل بحيث إنه لم يكن ممكنًا أن ترى شيئًا بواسطتها، بل كانت ثمة إخفاقات وارتباكات، وكان كلّ شيء ينزلق أمام الأعين، لكن تحدبها لم يكن من النوع البسيط، بل كان مصمّمًا بطريقة معينة ومدروسة... أو أن الأشياء كانت منتقاة بما يتناسب مع تحدبها... بل كلا، مهلاً، يبدو أنني لم أنجح في توضيح الأمر لك. بعبارة أخرى، كانت لدينا مثل هذه المرآة الغريبة ومعها مجموعة كاملة من الشباك السخيفة تمامًا: مختلف الأشياء بلا أي شكل محدد، بألوان متنوعة، مع ثقوب وبقع، رقشاء وذات شكل لوزي، كما لو أنها مستحاثات لكن المرآة التي كانت تشوِّه الأشياء العادية باتت الآن، يمكن القول، تحصل على غذاء كامل، أي أنك عندما تضع شيئًا على درجة معينة من عدم الوضوح والتشوّه وأخرقَ بطريقة ينعكس فيها في مرآة غامضة ومشوهة، تكون النتيجة مذهلة ورائعة؛ نفي النفي كان يعطي نعم، فكان يستعيد كلُّ شيء حالته الطبيعية ويصبح جيّدًا وهكذا كانت تتشكل في المرآة على خلفية الخيطان المتنوعة ومختلفة الألوان، لوحة رائعة وجميلة: أزهار وسفينة ورسم لشخص ما، ومنظر طبيعي ما. كان يمكن حسب الطلب الحصول حتى على صورة شخصية للراغب، أي أنهم كانوا يقدمون لك خليطًا فظيعًا، وقد كانت تلك صورة لك، لكن المفتاح من صورتك هذه كان في يد المرآة. آخ، إني أتذكّر كم كان الأمر مفعمًا بالمرح ومع بعض الإثارة وماذا لو أنه لم ينتج شيء فجأة! أن تحمل بيدك خيطًا جديدًا كهذا غير واضح وأن تقوم بتقريبه من المرآة، لتشاهد فيه كيف أن يدك تتحلل بشكل كامل، وكيف أن الخيط عديم المعنى يتحول في الوقت نفسه إلى لوحة رائعة، إلى لوحة واضحة وجليّة تمامًا...

لماذا تحكين لي كل هذا؟ سألها سينسينات.

لكنها بقيت صامتة ولم تجب.

لماذا كل هذا؟ هل يُعقَل أنك لا تعرفين أنه في غضون أيام، ربما غدًا، قد يتم...

التقط فجأة التبدّل الذي طرأ على عيني سيسيليا تسي. للحظة، أواه، للحظة فقط ولكنه كان أشبه بظهور شيء ما حقيقي لا ريب فيه (في هذا العالم حيث كلّ شيء قابل لأن يكون مشكوكًا فيه)، كما لو أنَّ حافة هذه الحياة الفظيعة التفّتْ تمامًا لتكشف عن بطانتها للحظة صغيرة جدًّا. لقد التقط سينسينات في نظرة والدته بشكل مباغت تلك النقط الأخيرة والأكيدة والفعلية التي تفسِّر كلَّ شيء والتي تحرسه وتحميه من كلِّ شيء، نقطة كان يتقن تلمسها في نفسه بشكل رائع. عمّ كانت تلك النقطة تنوح في هذه اللحظة؟ أواه، ليس مهمًّا عمّا كانت تنوح، ليكن عن الرعب وعن الشفقة... ولكن سوف نكون متفائلين ونقول: كانت تلك النقطة في حدِّ ذاتها تعبيرًا عن عاصفة الحقيقة، وأن روح سينسينات لا يمكن إلاّ وأن تنتفض. جنحت اللحظة وغابت على الفور. نهضت سيسيليا تسي. وقامت بحركة صغيرة غير معقولة، وتحديدًا باعدت بين يديها مع إبهامين مفردَين وممدودَين، كما لو أنها تشير إلى بُعدٍ ما لنقل، طول الطفل الرضيع... ومن ثم ارتبكت فورًا واضطربت، فالتقطت عن الأرضية حقيبة سفرها السوداء والسميكة، على قوائم قصيرة شبيهة بأرجل كلب من سلالة داشهند، وسوّت غطاء الجيب فيها.

وهكذا قالت بنفس لهجتها السابقة غير المترابطة جلست معك لبعض الوقت وقد حان الوقت لكي أذهب. كُلْ الحلويات التي جلبتُها لك. لقد أطلتُ الجلوس عندك. سأذهب، حان الوقت.

أواه، بلى، لقد حان الوقت! قال رودريغ إيفانوفيتش وهو يفتح الباب على مصراعيه ويدخل مع مرح صاخب.

أمالت رأسها إلى جانب ثم خرجت بمحاذاته. أراد سينسينات أن يتقدّم، وهو يرتجف، نحو الأمام لبضع خطوات...

لا تقلق قال المدير رافعًا كفّه هذه القابلة القانونية لا تشكِّل أي تهديد لنا على الإطلاق. عدْ إلى الوراء!

ولكني مع ذلك... كان سينسينات يريد أن يقول شيئًا ما.

صاح رودريغ إيفانوفيتش بأعلى صوته:

إلى الوراء((53))!

ظهر في أعماق الممر أثناء ذلك السيد بيير مربوع البنية وفي لباسه المخطط. كان يمشي وهو يبتسم مبتهجًا من مسافة بعيدة، كابحًا خطوته المستعجلة بعض الشيء، ولكنه كان يحرك عينيه بسرعة في الوقت نفسه، على غرار الناس الذين وقعوا في فضيحة ولكنهم لا يريدون أن يلفتوا الأنظار إلى ذلك، وكان يحمل أمامه رقعة الشطرنج وصندوقًا صغيرًا، ويتأبط دمية بولسينيلا((54))، وشيئًا آخر...

هل كان لديك ضيوف؟ سأل السيد بيير سينسينات بطريقة لبقة بعد أن تركهما المدير في الزنزانة وحدهما هل كانت هذه والدتك؟ حسنًا، حسنًا. وأما أنا، السيد بيير البائس
والضعيف، فقد جئتُ الآن لكي أسلّيك وأسلّي نفسي قليلاً. لاحظ كيف أنه ينظر إليك. هيا، ألقِ التحية وانحنِ للعم. إنه مضحك، بالفعل، أليس كذلك؟ هيا، اجلس بشكل مستقيم، يا سُمّيَّ! كما أنني أحضرت لك أشياء كثيرة للتسلية. هل تريد أن تلعب الشطرنج؟ أم أنك تريد أن تلعب بالورق؟ وربما تجيد لعبة المرساة؟ إنها لعبة مثيرة وشائعة! هيا، دعني أعلمك اللعبة!

XIII

انتظرتُ مطوّلاً، وإذا بها الأصوات تنطلق من جديد في أكثر أوقات الليل هدوءًا وسكينة. راح سينسينات يبتسم لنفسه وهو يجلس وحيدًا في الظلام. وأنا على استعداد تام للاعتقاد بأنها هي الأخرى مجرد خداع أو وهم، ولكني أثق بها الآن إلى درجة قوية جدًّا، بحيث إنني أنقل إليها عدوى الحقيقة.

وقد كانت هذه المرة أكثر قوّة ودقّة مما في الليلة الماضية؛ ولكنها لم تؤذِ فاقد البصيرة؛ كيف يمكن أن أشكّ في حركتها المقتربة والمتقدمة نحو الأمام؟ في تواضعها! وفي ذكائها! في عنادها الغامض والمدروس! هل تنتج من جراء استخدام أثقالٍ عادية أم أداة أخرى أكثر غرابة (من خليط من مواد فاسدة وغير صالحة نهائيًّا إلى جانب إرادة بشرية كلية القدرة) إلاّ أنّ شخصًا ما وقد كان ذلك واضحًا كان يقوم بحفر نفق له.

كانت ليلة باردة؛ وكان انعكاس القمر رماديًّا وزيتيًّا، ينقسم إلى خلايا ويستلقي على الجدار الداخلي لوسادة النافذة؛ بدتِ القلعة برمّتها كما لو أنها مليئة بظلام حالك كثيف من الداخل وملمّعة بالقمر من الخارج، مع انكسارات سوداء للظلال التي راحت تزحف على المنحـدرات الصخـريـة لتتحطم بـلا أي ضجيج في الخنـادق؛ نعم، كانت الليلة هادئة وصخرية ولكن شيئًا ما مناقضًا لتكوينها ولبنائها تمامًا، كان يحدُّ من جبروتها في مكان ما من جوفها الكتيم. أم أنَّ هذه مجرّد أصوات رومانسية لهذيان قديم، يا سينسينات؟

أمسك بالكرسي الخانع وضرب به الأرضية بقوة، ومن ثم طرق به الجدار عدّة مرات وهو يحاول على الأقل من خلال الإيقاع، أن يضفي على الطرْق مغزى ما. وبالفعل: توقف الطارق أثناء الليل في بداية الأمر، كما لو أنه راح يتصور هل هذه ضربات معادية، يا تُرى، أم صديقة ومن ثم استأنف عمله من جديد بحيوية بهيجة للصوت، حيوية راحت تبرهن لسينسينات أنّ ردَّه قد فُهِم بشكل صحيح.

لقد اقتنع، بلى، أنهم قادمون من أجله، وأنهم يريدون إنقاذه ومن ثم راح يطرق في النقاط الأكثر ضعفًا وألمًا من الحجر في الجدار، مستدعيًا في تردد مختلف ومع مفتاح آخر أكثر امتلاءً وأكثر تعقيدًا وأكثر متعة تكرار تلك النغمات البسيطة التي كان يقترحها.

كان قد بدأ يفكَر في اختراع أبجدية عندما لاحظ أنّ ضوءًا آخر يبدِّد الظلام، وهو ليس ضوء الهلال ولم يسعفه الوقت لكي ينتبه إلى ذلك، وإذ بالأصوات تصبح أطول. وفي نهاية الأمر راح شيء ما يتساقط لمدة طويلة، ولكن هذا بدوره أيضًا هدأ بالتدريج وأصبح غريبًا أن يتخيل المرء لنفسه أنّ هدوء الليل الذي كان سائدًا حتى الأمس القريب، بدأت تخرقه حياة جشعة ومتلهفة وفضولية، حياة راحت تُشمُّ بطريقة ملاصقة وعن كثب، حياة مخنوقة بملقط الشخير ومن ثم تحفر من جديد ومع قرف واشمئزاز، مثل كلب راح يقترب من الغُرَير((55)).

رأى من خلال نومه المتقلقل كيف دخل روديون كان الوقت قد تجاوز الظهيرة، عندما استيقظ بشكل كامل وكما درجت العادة عنده، أول ما خطر بباله هو أنّ نهايته لن تكون في هذا اليوم، مع العلم أنه من الوارد أن تكون في هذا اليوم أيضًا، كما يمكن أن تكون في يوم غد، ولكن يوم غد ما زال بعيدًا.

راح يسمع طوال اليوم طنينًا في أذنيه ويفرك يديه وهو يلقي التحية على نفسه بصوت خافت؛ طاف حول الطاولة حيث كانت تتلألأ الرسالة التي لم يقم بإرسالها حتى الآن؛ وفي بعض الأحيان كان يتخيّل تلك النظرة الخاطفة والمثيرة للذهول مثل انقطاع عن هذه الحياة الدنيا عند الضيفة التي زارته ليلة أمس، أو أنه كان يلتقط في داخله خشخشة إمّوتشكا. ليكن ذلك، ولأتجرع هذه الكأس التافهة من الأمل، هذا الوحل العكر وحلو المذاق. لم تتحقق آمالي، إذ إنني كنت أعتقد أنه ولو أخيرًا، ليكن ها هنا، حيث يمكن للوحدة في مثل حالة من الوقار كهذه أن تنقسم إلى نصفين فقط، إلى نصف منك ونصف مني، لا أن تتكاثر كما حدث وتكاثرت بالفعل بطريقة صاخبة وضئيلة وغبية، إلى درجة أنني لم أتمكن من الاقتراب منك، ذلك لأنَّ أباك كاد يحطِّم لي ساقيَّ بالعصا، ولهذا السبب أنا أكتب لك، إنها آخر محاولة من قبلي لأن أشرح لك ما الذي يحدث، يا مارفينكا، قومي بأقصى ما لديك من جهد وافهمي، ولو كان من خلال الضباب، وليكن من حاشية دماغك، المهم أن تدركي ما الذي يجري، يا مارفينكا، أرجو أن تفهمي أنهم يريدون قتلي، هل هذا صعب عليك حقًّا، وأنا لا أطلب منك تأوّهات حزينة وطويلة لأرملة، ولا أطلب منك باقة من أزهار الزنبق الخاصة بالحِداد، لكني أتوسل إليك، وهذا ضروري جدًّا بالنسبة لي، أن تشعري بالذعر، مثل طفل صغير الآن، اليوم بسبب ما سوف يفعلونه بي من أمر فظيع ورهيب وحقير، ما يجعلني أشعر بالغثيان، وأن تبدئي بالصراخ في منتصف الليل، بحيث إنك حتى وأنت تسمعين اقتراب المربية «هس، هس» تستمرين في صراخك برغم ذلك، وهذا ما ينبغي أن تشعري به من ذعر، يا مارفينكا، ولا بأس أنك لا تحبينني إلاّ

قليلاً، لكن يتعيّن عليك أن تدركي الأمرَ ولو للحظة، ومن ثم يمكنك أن تنامي بهدوء من جديد. كيف يمكنني أن أثير حماسك؟ آه، كم كانت حياتنا أنا وإياك فظيعةً، ورهيبة، وهذا ما لن أنجح في إثارة حماستك بواسطته، لقد بذلتُ قصارى جهدي بادئ الأمر، لكنك تعرفين كانت الوتيرة متفاوتة فيما بيننا، ولذلك تخلّفتُ عنك على الفور. هيا قولي لي، كم كان كثيرًا عدد الأيادي التي جعّدت ذلك اللبَّ الذي اكتست به روحك الصلبة والمريرة والصغيرة؟ أجل، أنا أعود مرة أخرى إلى خياناتك
الأولى، كما لو أنها طيف وحسب، ومن ثم أطفو من خلالها إلى السطح وأنا أعوي وأقعقع بالسلاسل، وإلى تلك القبلات التي اختلستُ النظر إليها. قبلاتك التي كانت أكثر ما تشبه طعامًا ما دسمًا ومركّزًا، مهملاً ومصحوبًا بالضجيج. أو عندما كنت تلتهمين الدراق المليء بالبثور ومن ثم بعد أن تنتهي منه، وبينما تتابعين عملية البلع بفم ملآن، يا آكلة اللحوم البشرية، تفردين أصابعك، وتبدأ نظرة ساهية وبلهاء منك بالطواف، كما تلتمع الشفتان ويرتجف ذقنك وقد امتلأ بقطرات من العصير العكر وقد راحت تسيل على صدرك الذي راح يتعرى، وإذ يستدير، في أثناء ذلك، بريابس((56)) الذي كان يطعمك فجأة، مع لعنة متشنجة بظهره المقوّسة نحوي وقد دخلت في الوقت غير المناسب ومن دون أدنى حاجة. «جميع الفواكه مفيدة لمارفينكا» رحتِ تقولين لي بصوت مصحوب برطوبة لذيذة وخافقة في حلقك، وقد تحوّلتِ بأكملك إلى ثنية واحدة حلوة وملعونة وإذ إنني أعود إلى كلِّ ذلك، فإنما لكي أتميز، ولكي أطرد من نفسي وأن أتطهر وأيضًا لكي تعرفي أنتِ، لكي تعرفي... ماذا؟ من المحتمل أن أكون أظنّك شخصًا آخر معتقدًا أنك تفهمين عليَّ مثلما يعتقد المجنون أن أقرباءه الذين جاءوا لزيارته هم مجرّد نجوم، أو لوغاريتمات، وضباعًا مع مؤخرات متدلية ولكن ما زال هناك حمقى ومجانين وهؤلاء محصّنون! يظنّون أنفسهم مجانين بالفعل وهنا تنغلق الدائرة. نحن وإياك، يا مارفينكا، ندور في واحدة من مثل هذه الدوائر أواه، لو أنَّ بإمكانك أن تحرّري نفسك للحظة ومن ثم ستعودين إلى الدائرة، أعدُكِ بأنَّ الأمر لا يتطلب منك جهدًا كبيرًا، فكّي قيدك ولو للحظة، وافهمي أنهم يقتلونني، وأننا محاطون بالدمى، وأنك أنتِ نفسك لست سوى دمية. لا أعرف لماذا أضنتني خياناتك الكثيرة، والأدق هو أني أعرف السبب، ولكني لا أعرف الكلمات التي يتعيّن عليَّ أن أستعملها لكي تدركي سبب معاناتي. لا يوجد مثل هذه الكلمات في ذلك الحجم الصغير الذي تستخدمينه أنتِ من أجل تلبية حاجاتك اليومية.
ولكني مع ذلك سوف أبذل جهدي مرة أخرى: «إنهم يقتلونني!» هكذا، دفعة واحدة ومن جديد: «إنهم يقتلونني!» وأكرر مرة أخرى: «... يقتلوني!» أريد أن أكتب ذلك بطريقة تجعلك تصمّينَ أذنيك أذنيك ذاتَي البشرة الناعمة
والشبيهتَين بأذني قرد، تخبئينهما تحت خصلات شعرك الأنثوي الفاتن لكني أعرفهما، كما أني أراهما وأقوم بعقصك فيهما، الباردتَين، وأفركهما بأصابعي المضطربة لكي أدفِّئهما ولو قليلاً، ولكي أنعشهما وأجعلهما أقرب إلى أذنين

بشريتَين، فأرغمهما على سماع ما أقوله. أنا أريد، يا مارفينكا، أن تصرّي على لقاء جديد معي، وعندئذ يجب عليك، بطبيعة الحال: تعالي وحدك، تعالي وحدك! ها هي تنتهي ما يقال لها حياة، ولم يعد ثمة أمامي سوى مقصلة زلِقة، لقد نجح السجانون في تدبير مكيدة بي ووصلوا بي إلى حالة أصبح خطّ الكتابة عندي معها كما ترين أقرب إلى خطّ شخص ثمل ولكن لا بأس، لأنه لدي يا مارفينكا من القدرة لأن أخوض معك حديثًا لم يحدث أبدًا أن دار حديث مشابه له بيننا من قبل، لأن ذلك ضروري لسبب ما، أن تأتي مرة أخرى، وأرجو ألا تظنّي أنّ رسالتي هذه مجرّد خداع وتلفيق، بل إني أنا، سينسينات، مَن يكتب، وأنا سينسينات، مَن ينتحب، وقد رحت أطوف من حول الطاولة، ومن ثم عندما أحضر روديون طعام الغداء، قلتُ له:

هذه الرسالة. إني أرجوك أن... هذه الرسالة. العنوان موجود عليها...

تذمّر روديون وراح يدمدم:

كان من الأفضل لك أن تتعلم الحياكة، مثل الآخرين، وكنت حُكْتَ لي وشاحًا. يا لك من كاتب! لقد سبق أن التقيت بزوجتك قبل بعض الوقت فقط!

قال سينسينات:

سأحاول أن أسألك مع ذلك ما إذا كان يوجد سجناء آخرون هنا، غيري وغير السيد بيير المتطفل جدًّا؟

تورّدت وجنتا روديون لكنه ظلّ ملتزمًا الصمت.

فسأل سينسينات:

ألم يصل ذلك الرجل بعد؟

كان روديون على وشك أن يغلق بطريقة حانقة الباب الذي راح يصرّ، ولكن السيد بيير جاء كما في يوم أمس، وهو يخبط بخفّيه من جلد الماعز، ويتراقص في لباسه المخطط حاملاً بيديه رقعة الشطرنج ودستة من ورق الشدة ولعبة 57((bilboquet))...

أطيب تحية لروديون اللطيف جدًّا أعلن السيد بيير بصوت ناعم دون أن يبدِّل من خطوته وهو يتراقص ويخبط بحذائه ودخل إلى الزنزانة. ثم أردف وهو يجلس:

إني أرى روديون اللطيف وهو يحمل رسالة منك. هل هي نفس تلك الرسالة التي كانت موجودة ليلة أمس على هذه الطاولة؟ وهي موجهة إلى زوجتك؟ كلا، كلا إنه مجرّد استنتاج بسيط وحسب، فأنا لا أقرأ رسائل الآخرين بالرغم من أنها كانت موجودة في مكان واضح للعيان عندما كنا نلعب لعبة المرساة. هل تريد أن نلعب الشطرنج اليوم؟

قام ببسْط رقعة شطرنج من الصوف ثم وزّع عليها بيدٍ ضخمة فاردًا الخنصر الأحجار التي كانت مصنوعة من لبّ الخبز بطريقة صلبة حسب وصفة قديمة للسجناء إلى درجة أنَّ الحجر كان يحسدها على متانتها.

أنا نفسي عازب، ولكني أفهم بالطبع... هيا نلعب. أنا ألعب بسرعة... لأن اللاعبين الجيدين لا يطيلون التفكير أبدًا. هيا بنا نلعب. كنت قد لمحت زوجتك بطريقة خاطفة
إنها امرأة قوية ومفعمة بالحيوية، بكل تأكيد ولديها عنق رائع، وأنا أحب... إيه، مهلاً، لقد قمتُ بنقلة خاطئة. لذلك أرجو أن تسمح لي بتغيير النقلة. على هذا النحو سوف يكون الأمر أكثر صوابًا. أنا من العشاق المميزين للنساء، وكم هنَّ، السافلات، يعشقنني بدورهن إلى درجة أنك قد لا تصدق. ها أنت تكتب في رسالتك لزوجتك عن عينيها وعن شفتيها. منذ مدة قريبة، لعلمك، كان لدي لماذا لا يمكنني أن أقتل قطعتك؟ آخ، هكذا، إذن. يا لها من نقلة ذكية، وسريعة. حسنًا، سوف أهرب من هنا. كنتُ قد مارست الجنس منذ مدّة مع سيّدة سليمة من الناحية الصحية تمامًا وباذخة. يا لها من متعة فائقة عندما تكون المرأة سمراء وضخمة... ما هذا الذي تقوم به؟ ها هو ردّي لك. يجب عليك أن تحذّرني، تلك هي شروط اللعبة. اسمح لي أن أقوم بنقلة مختلفة. هكذا، حسنًا. أجل، كانت امرأة باذخة وشهوانية جدًّا بينما أنا، لعلمك، رجل بكل معنى الكلمة وأملك «نابضًا» مثيرًا للذهول! على العموم، من بين متع الحياة وإغراءاتها الكثيرة التي أنوي عرضها عليك بالتدريج، وبطريقة تتراوح ما بين اللهو والجد، هناك إغراء الحبّ ولكن مهلاً، تريّث قليلاً لأنني لم أحسم أمري وأقرر القيام بهذه النقلة بعد. بل سوف أقوم بها بالتحديد. شاه مات؟ كيف ذلك؟ لماذا شاه مات؟ لا أستطيع الانتقال إلى هذا المربع، ولا إلى هذا المربع، ولا ذاك... أيضًا لا أستطيع. عفوًا، كيف كانت الأحجار موزعة من قبل؟

بل قبل هذه النقلة؟ هكذا، يبدو الأمر مختلفًا. لقد سهوت عن ذلك. سوف أقوم بهذه النقلة. نعم وردة جورية حمراء في الفم، وجوارب شبكية عالية وسوداء اللون تصل إلى هذا المكان ولا شيء أكثر إني أقدّر ذلك، إنه قمّة الفخامة... والان، بدلاً من بهجة الحب ولذّته مجرّد حجر رطب وحديد صدئ، وفيما بعد... أنت تعرف ماذا سيكون فيما بعد. لم أنتبه. وماذا لو أنني قمتُ بهذه النقلة؟ هذه أفضل. بكافة الأحوال أنا الفائز في هذا الشوط، لأنك ترتكب الخطأ تلو الخطأ. ليكن أنها خانتك، ولكنك أنت أيضًا قمت بمعانقتها وبضمِّها إلى حضنك. عندما يأتون إليّ بقصد النصيحة، فإني أقول لهم على الدوام: أيها السادة، ينبغي عليكم أن تقوموا بأكبر قدر ممكن من الابتكار. لا شيء أكثر متعة من أن يحيط المرء نفسه، على سبيل المثال، بالمرايا وأن يتابع كيف أنَّ العمل يسير هناك على قدمٍ وساق يا لها من روعة! ولكن هذا الذي تقوم به ليس رائعًا على الإطلاق. أقول كلمة صدق، كنت أعتقد أنني قمت بتحريك قطعتي إلى ذلك المربع وليس إلى هذا المربع. لذلك لن يكون بإمكانك... هيا عدْ إلى الوراء، من فضلك... كما أنني أحبُّ أن أدخِّن السيجار أثناء ذلك وأن أتحدث عن أمور تافهة، وبحيث تتحدث هي أيضًا لا يوجد أمامك خيار آخر، لأن الفسق أمر معروف... أجل، إنه أمر شاق، إنه أمر رهيب ومهين أن تقول لكلّ ذلك «سامحيني» وأن تعتقد أنَّ النساء الأخريات هنَّ أيضًا شابات وغضّات، وأنهنّ سوف يعملن ويعملن بلا كلل... إيه! لا أعرف ما هو رأيك بهذا الخصوص، أما أنا فأكثر ما أحب من المداعبة ما يقال له عندنا نحن المصارعين «معكرونة»: صفعة على رقبتها، وأن يكون اللحم أكثر كثافة... أولاً، يمكنني أن «آكل» حجرك، وثانيًا، يمكنني بكل بساطة أن أهرب من هناك؛ هكذا، إذن. على مهلك، على مهلك، فأنا مع ذلك سوف أتأنى قبل أن أقوم بالنقلة. ما هي آخر نقلة قمت بها؟ عد إلى الوراء لنقلة ومن ثم امنحني فرصة للتفكير. هراء، لا يوجد أي شاه مات. لا بدَّ أنك، كما أظن، وأرجو المعذرة، قمت هنا بنوع من الخداع، لأن هذا الحجر كان موجودًا هنا أو هنا، وليس هناك، وأنا متأكد من ذلك. ولكن، هيا ضعه، ضع الحجر هنا...

أسقط عددًا من حجارة الشطرنج بحركة كما لو أنها غير مقصودة من يدِه، ثم ضاق ذرعًا وقام بخلط البقية وهو يئن. كان سينسينات جالسًا وهو يتكئ على مرفق واحد؛ وقد راح بطريقة ساهية يدفن الحصان الذي لم يكن يبدو في منطقة الرقبة أنه سيرفض العودة إلى حقل الحنطة الذي خرج منه.

هيا بنا نلعب لعبة أخرى غير الشطرنج، غير الشطرنج، لأنك لا تجيد لعبة الشطرنج صاح السيد بيير بطريقة نزقة ومن ثم بسَطَ رقعة ملوّنة بشكل جميل من أجل لعبة الإوزة.

رمى أحجار النرد وعلى الفور ارتفع من ثلاثة إلى سبعة وعشرين ولكنه اضطرَ فيما بعد لأن يهبط من جديد، في حين أنّ سينسينات ارتفع من الرقم ستة وعشرين إلى ستة وأربعين. استمرت اللعبة لمدة طويلة جدًّا. راح وجه السيد بيير يتضرّج بلون أقرب إلى لون التوت، ويخبط الأرض ويستشيط غضبًا، وكان يلتقط أحجار النرد من تحت الطاولة ليخرج من هناك وهو يمسك بها ويُقسِم أنهما كانا موجودين على الأرض بنفس الوضعية ومع نفس الرقم.

سأله سينسينات وهو يتنهد:

لماذا تفوح منك مثل هذه الرائحة؟

رسم السيد بيير ابتسامة مصطنعة وقسرية على وجهه البدين.

لدينا عادة في الأسرة راح يشرح ويوضِّح وهي أنّ أقدامنا تتعرّق: جرّبت معالجة الأمر بمنقوع «الكفاس» ولكن من دون نتيجة. يجب عليَّ أن أقول لك إنه بالرغم من أن الناس يعانون من مثل هذه المشكلة منذ الطفولة، ومع أنه ينبغي التعامل مع أية مصيبة ومع أية معاناة بنوع من التقدير، ولكن لم يسبق أن قام أحد حتى الآن وبطريقة غير مؤدبة...

لكني لا أستطيع التنفس قال سينسينات.

XIV

كانا أكثر قربًا وها هما الآن في عجلة كبيرة من أمرهما إلى درجة أنه من الإثم بمكان صرف اهتمامهما بطرح الأسئلة. استمرا لفترة أطول من البارحة، وقد استلقى سينسينات فوق بلاطات على شكل صليب، منبطحًا على بطنه كما لو أنه أصيب بضربة شمس، وكان يرى بمنتهى الوضوح، وهو يتغاضى عن تأنق المشاعر، عن طريق السمع ذلك الممر السري الذي راح يصبح أطول وأطول مع كل حركة من الكشط، ويشعر وكأنهم خفّفوا عنه ذلك الألم الصدري الضاغط والقاتم، كما تتم زعزعة الحجارة، ليبدأ بالتخمين وهو ينظر إلى الجدار بأنه سوف يصاب في مكان ما منه بتشقق ومن ثم ستظهر فيه فتحة مصحوبة بهدير.

كانت أصوات التكسّر والخشخشة ما زالت قائمة عندما جاء روديون. ومن خلفه دخلت إموتشكا مسرعة وهي ترتدي خفًّا خاصًّا بالباليه من دون جوارب وفستانًا من الصوف مع مربعات اسكتلندية، اختبأت تحت الطاولة منكمشة على نفسها، كما حدث أكثر من مرة، حيث جلست القرفصاء هناك، بحيث إنّ شعرها الكتاني المجعّد في نهاياته كان يخفي وجهها وركبتيها وصولاً حتى الكاحلين. وبمجرّد أن غادر روديون، قفزت من تحت الطاولة إلى سينسينات مباشرة الذي كان يجلس على السرير، فألقت به على ظهره وراحت تتسلق عليه. انغرزت الأصابع الباردة ليديها العاريتين الحارّتين فيه، أما هي فكشّرت عن أسنانها فالتصقت بأسنانها الأمامية قطعة من ورقة خضراء.

قال سينسينات:

اجلسي بهدوء. لقد تعبتُ لأنني لم أغمض عيني طوال الليل. لذلك اجلسي بهدوء واحكي لي.

دفنت إموتشكا وجهها في صدره وهي تعبث وتتململ؛ انكشف الجزء العلوي من ظهرها من خلال الفتحة الخلفية في فستانها من تحت خصلات شعرها المتناثر التي انزاحت إلى أحد الجوانب، مع حفرة كانت تتبدّل مع حركة عظمي لوح الكتف وقد نبت عليها بشكل متساو زغب أبيض بدا وكأنه تمّ تسريحه بطريقة متناظرة.

راح سينسينات يمسح على رأسها الدافئ ويحاول آن يرفعه إلى الأعلى. التقطت أصابعه وبدأت تشدُّ عليها وتضغطها إلى شفتيها.

حسنًا، أيتها السنونو قال سينسينات بصوت ناعس كفى، كفى. هيا احكي لي...

إلاّ أنَّ جموحًا من الشغب الطفولي استبد بها. كانت هذه الطفلة ذات العضلات القوية تتلاعب بسينسينات مثل جرو صغير.

صاح سينسينات قائلاً:

كفّي عن ذلك! يجب أن تشعري بالخجل!

غدًا قالت له فجأة وهي تضمّه بشدّة وتحدّق في جذر أنفه.

هل سأموت غدًا؟ سأل سينسينات.

لا، بل سوف أنقذك قالت إموتشكا بطريقة حالمة (كانت تجلس راكبة عليه).

قال سينسينات:

هذا أمر رائع. ها هم المنقذون من كل حدب وصوب! كان ينبغي أن يكون ذلك منذ زمن طويل، وإلاّ فإنني كنت على وشك أن أفقد عقلي. أرجوك، انزلي عني، فأنا أشعر بالتعب وبالحَرِّ.

سوف نهرب وسوف تتزوّجني.

ربما بعد أن تكبري وتصبحي ناضجة؛ بيدَ أنه توجد عندي زوجة الآن.

إنها بدينة وعجوز.

قفزت من السرير وركضت في أرجاء الزنزانة، مثلما تجري الراقصات، بطريقة الهرولة السريعة، وهي تهز شعرها ومن ثمّ قفزت كما لو أنها تطير، وأخيرًا قامت بالدوران في مكانها مادّةً يديها.

سوف يبدأ الدوام في المدرسة عمّا قريب قالت وجلست على الفور على ركبتي سينسينات وانغمست في عمل جديد ناسيةً كلَّ شيء آخر في هذه الدنيا: راحت تنزع قشرة طولانية سوداء عن ركبتها اللامعة، وبعد أن نزعت حوالي نصف القشرة لاحت الندبة بلونها الوردي الخفيف.

زرّ سينسينات عينيه وراح يحدّق إلى وجهها الجانبي المحني قليلاً يحيط به شريط رقيق من الضوء، فغلبه النعاس.

آه، يا إموتشكا، تذكّري، تذكّري، يجب أن تتذكري ما وعدتني به. غدًا! هيا قولي لي كيف سترتّبين الأمر؟

قرّب أُذنك مني قالت إموتشكا.

احتضنته من رقبته بإحدى يديها، ثم راحت تهمس في أذنه بحرارة وبأنفاس رطبة وبكلام غير مفهوم نهائيًّا.

قال سينسينات:

لا أسمع شيئًا.

أبعدت شعرها عن وجهها بحركة مستعجلة ومن ثم انكبّت إلى أُذنه من جديد.

بو... بو... بو... راحت تدمدم بصوت مرتفع، ومن ثم ابتعدت وهي تقفز، لتجلس بعد
ذلك على مقعد متأرجح بعض الشيء وقد مدّت ساقيها وعقدت بين قدميها.

أنا آمل منك ذلك بالرغم من كل شيء قال سينسينات وهو شبه نائم؛ ومن ثم ألقى برأسه من ناحية الأذن المبللة والممتلئة بالطنين على الوسادة.

شعر وهو يغرق في النوم كيف أنها انتقلت من فوقه، ومن ثمّ خُيِّل إليه أنها هي أو شخص آخر غيرها راح يطوي بلا توقف القماش اللامع، فيمسك به من الزوايا ثم يطويه ويمسح عليه براحة كفّه ثم يطويه من جديد. وإذا به يستيقظ للحظة من جرّاء الصراخ الذي أصدرته إموتشكا وقد راح روديون يجرّها إلى خارج الزنزانة.

ثم تهيأ له كما لو أنّ تلك الأصوات المعروفة استأنفت بحذر من وراء الجدار... يا لها من مخاطرة! فالوقت منتصف النهار... لكنهم لم يكونوا قادرين على كبح أنفسهم والتوقف، بل راحوا يقتربون منه بهدوء أكثر فأكثر فانتابه خوف من أن الحارس قد يسمع الأصوات، ما جعله يمشي ويخبط بقدميه ويسعل ويغنّي وعندما جلس على الكرسي وقد راح قلبه يخفق بقوة، كانت الأصوات قد توقفت.

وعند المساء كما درجت العادة جاء السيد بيير وهو يضع على رأسه قلنسوة مزركشة؛ استلقى بلا حرج، كما لو أنه من أهل البيت، على سرير سينسينات وراح يدخِّن بطريقة باذخة غليونًا طويلاً من السيبوليت((58)) مع منحوتة على شاكلة Peri((59))، وهو يتكئ على مرفقه. كان سينسينات جالسًا قرب الطاولة يتناول عشاءه ويحاول التقاط حبات البرقوق من العصير البنّي اللون.

قال السيد بيير بنبرة حاذقة:

قمتُ اليوم بطلاء وجنتيَّ بالبودرة، لذلك أطلب منك عدم الشكوى ومن دون توجيه أية ملاحظات. دعنا نكمل حديثنا الذي بدأناه يوم أمس. كنا نتحدث عن الملذات.

يمكن الحصول على لذّة الغرام تابع السيد بيير عن طريق أحد أكثر التمارين الجسدية المعروفة روعةً وفائدة. وأنا قلت يمكن تحقيقها، ولكن لعلّ عبارة «يمكن بلوغها» أو كلمة «طريدة» كانت ستكون مناسبة أكثر، طالما أن الحديث يدور حول اصطياد مدروس ودؤوب للمتعة الكامنة في أعماق الكائن الذي يجري التعامل معه. يمكن للعامل في ميدان العشق في لحظات الراحة والاسترخاء أن يبعث الذهول على الفور في نفس المراقب من خلال التعبير الذي يلوح في عينيه الشبيهتين بعينَي نسر، ومن خلال سلوكه المرح وبشرة وجهه الطازجة. كما يجب عليك أن تنتبه إلى السلاسة في مِشيتي. وهكذا،

نحن أمام ظاهرة أو سلسلة من الظواهر التي يمكن جمعها تحت مسمّى واحد مشترك هو اللذة الغرامية أو الجنسية.

دخل المدير في هذه اللحظة، على رؤوس أصابع قدميه وهو يقوم بحركات بيديه لكيلا يلفت النظر إليه، وجلس على كرسي بلا مسند كان قد أحضره معه.

نظر إليه السيد بيير نظرة تشع مودّة وحسن نيّة.

تابع، تابع قال رودريغ إيفانوفيتش هامسًا فقد جئتُ لكي أسمع ما تقوله. PARDON((60)) ، لحظة واحدة من فضلك فقط سأضع الكرسي في مكان VOILẢ((61)) أقرب إلى الجدار لكي أستند عليه.)). لقد تعبت في واقع الأمر وماذا عنكما؟

قال له السيد بيير:

هذا لأنك غير معتاد على ذلك. اسمح لي بأن أكمل حديثي. كنا نتحدّث، يا رودريغ إيفانوفيتش، عن ملذات الحياة وناقشنا موضوع الإيروس((62)) بصورة عامة.

أفهمك. أجاب المدير

تابع السيد بيير كلامه:

وقد نوّهت بالنقاط التالية... أرجو المعذرة، يا زميلي، لأنني أكرر الكلام، بيدَ أنه سيكون من دواعي سروري أن يثير الموضوع اهتمام رودريغ إيفانوفيتش أيضًا. أشرتُ، يا رودريغ إيفانوفيتش، إلى أنَّ الرجلَ المحكوم عليه بالموت، أكثر ما يجد صعوبة في نسيان المرأة، والجسد الأنثوي المثير واللذيذ.

والكلمات الرقيقة التي قيلت في الليالي المقمرة أضاف رودريغ إيفانوفيتش من عنده، وهو يلقي نظرة خاطفة وصارمة على سينسينات.

من فضلك، لا تعِقني عن تطويري للفكرة، ومن ثمَّ في حال كنت تريد أن تضيف شيئًا ما سوف تقوله. وهكذا، سوف أتابع حديثي. هناك، بالإضافة إلى متع الغرام، مجموعة كاملة من المتع الأخرى، ونحن سوف ننتقل للحديث عنها. من المفترض أن يكون كلّ واحد منكما قد شعر، على الأرجح، في مرّات كثيرة كيف أنَّ الصدر يصبح أكثر اتساعًا في أيام الربيع الساحرة، حين تمتلأ البراعم وتبدأ الطيور بالتغريد الذي يصمّ الخمائل والغابات المكسية بطلائع الأغصان والأوراق الدبقة. كما تبدأ أولى الأزهار المتواضعة بالبروز من تحت الأعشاب مع نوع من الغنج، كما لو أنها تحاول إغواء عشاق الطبيعة، فتهمس لهم على وجَل: «آه، لا تقطفوني، أرجوكم، لأنَّ حياتنا قصيرة جدًّا». يتسع الصدر ويتنفس بعمق في مثل يوم كهذا، عندما تغرِّد العصافير وتظهر أولى الوريقات الغضة الناعمة على أغصان الشجر. كلُّ شيء يبتهج وكلُّ شيء يفرح.

علّق المدير قائلاً وهو يصعِّر خدّيه:

يا له من وصف ماهر وحاذق لشهر نيسان.

أظن أنَّ كلَّ واحد منا عاش مثل ذلك الإحساس واصل السيد بيير كلامه والآن، عندما سيصعد كلّ واحد فينا إنْ لم يكن اليوم، ففي يوم غد، إلى المقصلة، فإنَّ الذاكرة التي يستحيل نسيانها لمثل يوم ربيعي كهذا سوف ترغمنا كي نصرخ: «أواه، عدْ، عدْ أيها اليوم، وامنحني فرصة أخرى لكي أحياك من جديد» «أن أحياك من جديد» كرر السيد بيير وهو ينظر بمنتهى الوضوح إلى ورقة ممتلئة بالكتابة كان يمسك بها في قبضة يده.

أكمل السيد بيير قائلاً:

ثم سننتقل إلى اللذة ذات الطبيعة الروحية. هيا تذكّرا كيف صادف أنَّ واحدكما توقف في معرض لوحات فنية أو في متحف، بشكل مباغت دون أن يستطيع إشاحة بصره عن تمثال لجذع إنسان ما مثير جدًّا ولافت للنظر ولكنه، للأسف، مصنوع من البرونز أو من المرمر. هذا ما يمكننا أن ندعوه: التلذذ أو التمتع بالفن. وهو يشغل مكانة ليست بالقليلة في حياة المرء.

وكيف لا قال رودريغ إيفانوفيتش بصوت أخنّ وألقى نظرة على سينسينات.

وهناك ملذات تتعلق بالطعام تابع السيد بيير لاحظوا معي: ها هي أفضل أنواع الفواكه تتدلى على أغصان الشجر؛ وها هو جزّار ومساعدوه يجرّون خنزيرًا راح ينخر بطريقة كما لو أنهم يذبحونه تمامًا؛ وها هي قطعة من الشحم الأبيض الرائع موجودة في طبق؛ وهناك نبيذ المائدة وعصير الكرز؛ وأيضًا هناك السمك ولا أعرف كيف هو ذوق الآخرين، أما أنا فأكثر ما أحب سمك أبراميس العادي.

موافق قال رودريغ إيفانوفيتش بصوت جهير.

سوف يتعيّن علينا أن نتخلّى عن هذه الوليمة الساحرة. وهناك أشياء كثيرة سنكون مضطرين للتخلي عنها: الموسيقى الاحتفالية؛ وأشياء عزيزة بالنسبة لنا مثل كاميرا للتصوير أو الغليون؛ وأيضًا أحاديث ودّية ولذّة القيام بوظائف فسيولوجية يضعها البعض على درجة واحدة مع اللذة المرتبطة بالحبّ؛ وهناك النوم بعد تناول وجبة الغداء؛ والتدخين... ماذا أيضًا؟ أشياء عزيزة سبق أن ذكرنا ذلك (ظهرت في يَدِه ورقة جديدة للغش). النشوة والهناء المفرط... وهذا أيضًا ذكرته. على كلٍّ، مختلف الأشياء الأخرى الصغيرة...

هل يمكنني أن أضيف شيئًا ما إلى القائمة؟ سأل المدير بلهجة ذليلة، لكن السيد بيير هزَّ رأسَه علامة الرفض.

كلا، فهذا يكفي تمامًا. يبدو لي أنني كشفتُ أمام التفكير العقلي للزميل عن آفاق كبيرة من العوالم الحسية...

قال المدير بصوت خافت:

كنتُ أريد التنويه بشأن المأكولات. أرى أنه توجد هنا بعض التفاصيل. على سبيل المثال، EN FAIT DE POTAGE((63))... وإذ به يصرخ مرعوبًا بعد أن التقط نظر السيد بيير عليه: سوف أصمت، سوف أصمت.

وهكذا، ماذا تقول أنت بهذا الخصوص؟ توجّه السيد بيير إلى سينسينات

أجاب سينسينات:

وماذا يمكنني أن أقول بالفعل؟ مجرّد هراء وسواسي لا معنى له.

هتف رودريغ إيفانوفيتش:

عنيد ولا يمكن إصلاحه.

إنه يقول ذلك عن سابق قصد قال السيد بيير مع ابتسامة رهيبة كاشفة عن أسنانه صدّقني، إنه يشعر بالسحر الكامل في الظواهر التي أشرتُ إليها.

... لكن شيئًا ما لا يدركه في ذلك علّق رودريغ إيفانوفيتش بنبرة هادئة فهو لا يفهم أنه في حال اعترف الآن بانتشائه، وأقرَّ بصدق أنه يحبُّ هو الآخر ما نحبّه أنا وإياك، على سبيل المثال، كأن نتناول كطبق أوّل شوربة السلاحف التي يقولون عنها إنها لذيذة إلى حدٍّ لا يوصف، أي إنني أودّ أن أشير فقط إلى أنه في حال اعترف وندم بلى، لو أنه أحسَّ بالندم هذه هي فكرتي لكان ثمة أمل لديه لا أريد أن أقول إنه أمل بعيد، ولكن على أية حال...

أغفلتُ الإشارة إلى تمارين اللياقة والجمباز تمتم السيد بيير وهو يراجع الورقة في يده هذا أمر مثير للكدر!

كلا، كلا، لقد شرحت وأوضحت كلَّ شيء بطريقة رائعة قال رودريغ إيفانوفيتش متنهدًا بحيث إنه لا يمكن توضيح ذلك بطريقة أفضل. وقد انتعشت فيَّ رغبات ظلّت نائمة منذ عشرات السنين. هل ستبقى جالسًا هنا لبعض الوقت؟ أم أنك ستذهب معي؟

بل سأذهب معك. فهو اليوم لئيم بكل بساطة. حتى أنه لا ينظر نحوي. أنا أقترح عليه النعيم، لكنه يجلس عابسًا ومتجهّمًا. فأنا بحاجة إلى القليل جدًّا تكفي إيماءة بالرأس. ولكن، ليس باليد حيلة. هيا بنا نذهب، يا رودريغ.

سرعان ما انطفأ الضوء بعد خروجهما، ثم تعرّش سينسينات في العتمة إلى السرير (لم يكن أمرًا مريحًا أن يكون على السرير رماد سجائر آخرين، بيدَ أنه ما مِن مكان آخر للنوم)، ومن ثم مدَّ جسده على طوله وهو يقعقع بمفاصله وفقرات ظهره على اللوح الخشبي تحته، ثم ملأ صدره بالهواء وحبسه

لحوالي ربع دقيقة. لعلّهم: مجرد بنّائين. يقومون بترميم شيء ما. أو خداع السمع: لعلّ كل ذلك يحدث في مكان بعيد جدًّا (زفر بقوة). كان مستلقيًا على ظهره وهو يحرِّك أصابع قدميه اللتين برزتا من تحت البطانية ويدير وجهه تارة باتجاه النجاة المستحيلة، وتارة باتجاه الإعدام المحتم. أُشعِل الضوء من جديد.

دخل روديون وهو يحكّ شعرَ صدره الأشقر تحت قميصه لكي يأخذ الكرسي بلا مسند. وإذ رأى الشيء الذي جاء من أجله، جلس عليه بعد لحظة قصيرة من التفكير، ثم تنحنح بطريقة ثقيلة وفرك وجهه المتدلي براحة يده الضخمة وكان على وشك أن يبدأ بالشخير على الأرجح.

ألم يأتِ بعد؟ سأله سينسينات.

نهض روديون على الفور ثم غادر حاملاً الكرسي بلا مسند.

حلَّ الظلام من جديد.

إمّا لأن مدة طويلة نسبيًا مضت منذ أصدرت المحكمة قرارها: أسبوعان كاملان، وإما لأن الأصوات الدالّة على النجاة راحت تقترب واعدة بتغيير في المصير راح سينسينات في تلك الليلة يستعيد في مخيلته تلك الساعات التي قضاها في القلعة. وإذ وجد نفسه يستسلم لإغواء التطور المنطقي، راح لاشعوريًّا (كن حذرًا، يا سينسينات) يربط في سلسلة واحدة حلقات لم تكن تشكِّل أي خطورة وهي معزولة ومجهولة السبب، ويضفي مغزى على كلِّ ما هو فاقد لأي معنى ويمنح الحياة لما هو غير حي. راح يسمح بالظهور لكافة الأشكال المضاءة التي تعود لزواره العاديين على خلفية العتمة الحجرية لجدران الزنزانة... كانت هذه أول مرة، أول مرة يصبح خياله فيها متساهلاً معهم. وهكذا ظهر شكل جاره السجين المثير للضجر ذي الوجه الممتلئ واللامع مثل تلك التفاحة من الشمع التي جلبها له قبل أيام صهره المرح والمحبَّ للمزاح؛ كما ظهر المحامي، ذلك الشخص الرشيق في حركاته وذو الجسم النحيل والرياضي، وقد حرّر سوار قميصه من أكمام المعطف؛ وظهر أمين المكتبة المتجهم، ورودريغ إيفانوفيتش البليد بشعره المستعار الأسود والأملس، وإموتشكا وجميع أفراد عائلة مارفينكا، وروديون بالإضافة إلى آخرين من حرّاس وجنود غير معروفين كان وهو يستدعي ظهورهم، حتى ولو أنه لم يكن يثق بهم، فإنه كان يستدعيهم بالرغم من ذلك فقد منحهم سينسينات الحق في الحياة، كما قام برعايتهم وقدّم نفسه غذاءً لهم. فضلاً

عن ذلك، كانت ثمة إمكانية لعودة أصوات الحفر والنقر المثيرة للاضطراب، والتي كانت تترك عليه أثرًا أشبه بتأثير الانتظار المتغطرس للموسيقى لذلك كان سينسينات يعيش حالة غريبة ومثيرة للقلق والارتعاش وخطيرة أيضًا ثم راحت دقات بعيدة لساعة حائط تقرع بطريقة تصاعدية وها هي الأشكال المضاءة تخرج من الظلمة فتصافح بعضها بعضًا، ثم تتحلق ضمن دائرة لتبدأ بالميلان قليلاً إلى جانب، وبالانحراف وهي تسحب نفسها لتبدأ أولاً حركة ثقيلة ومزعجة بادئ الأمر، دائرية تتحوّل بالتدريج إلى حركة مستقيمة وتصبح سهلة وسريعة، وها هي تتسارع وتتسارع لتنطلق أخيلة مرعبة للأكتاف وظلال رهيبة للرؤوس، وهي تكرر نفسها بوتيرة أسرع على القباب الحجرية، وإذ بذلك المرح الأكيد والحتمي الذي يرفع ساقيه عاليًا في الجوقة، يثير الضحك عند بقية الآخرين المفرطين في تحفّظهم والصارمين في سلوكهم، ويلقي بظلال سوداء ضخمة لركبتيه القبيحتين على الجدران.

XV

انقضى الصباح في هدوء، ولكن حوالي الساعة الخامسة بعد الظهر حدث تقصّف شديد وهائل: كان ذاك يعمل مستعجلاً وبطريقة متحمسة جدًّا، بحيث إنه راح يثير الضجّة بلا أدنى حرج؛ وكان بالمناسبة قد اقترب بعض الشيء منذ ليلة أمس.

فجأة حدث أمر مباغت وذو طابع خاص: كما لو أن حاجزًا داخليًّا ما انهار، مما جعل الأصوات تتجلى بطريقة محدبة وبقوة شديدة (وقد انتقلت بلمح البصر من مستوى معين إلى آخر إلى السفح فورًا) وبات واضحًا: إنها ها هنا، خلف الجدار الذي راح يذوب مثل الجليد، وها هي على وشك أن تخترقه هادرة.

أدرك السجين عندئذ أنه حان الوقت لكي يتصرف. كان مستعجلاً بطريقة رهيبة، وصاخبًا، لكنه بالرغم من ذلك لم يفقد السيطرة على نفسه، فَالتقط الحذاء البلاستيكي ووضعه في قدميه، ثم تناول البنطلون والسترة المصنوعين من الكتان وكان يرتديهما عندما ألقوا القبض عليه؛ كما عثر على المنديل الأنفي، بل على اثنين، ثلاثة من المناديل الأنفية (تخيّلها للحظة شراشف يتم ربطها بعضها مع بعض)؛ ثم دسَّ في جيبه، من باب الاحتياط، حبلاً لا على التعيين كانت قطعة خشبية مخصصة لحمل الرزم والحقائب ما زالت مثبتة إليه (لم يتسع الجيب لهذه القطعة الخشبية ما جعل طرفها بارزًا)؛ ثم اندفع نحو السرير وهو ينوي أن يضرب الوسادة ومن ثم يغطيها بالبطانية بطريقة تجعلها تبدو أشبه بهيكل شخص نائم؛ لكنه لم يفعل ذلك بل اندفع نحو الطاولة لكي يلتقط ما كان قد كتبه، ولكنه هنا أيضًا بدّل وجهته وهو في منتصف الطريق، لأنَّ الطرْقات المسعورة والتي تعِد بالظفر وبالنصر كانت تشوِّش أفكاره... وقف جامدًا في مكانه وهو منتصب مثل سهم، مسبلاً يديه على جنبيه، في نفس تلك اللحظة التي ظهر فيها في الحائط الأصفر على ارتفاع أرشين((64)) عن الأرضية تصدّع مفاجئ ليجسِّد بصورة مطلقة حلمه، وإذ بالحائط ينتفخ مدفوعًا بشيء ما من الداخل ومن ثم فُتِح مع هدير شديد.

خرج السيد بيير من الثقب الأسود تلفّه سحابة من الحطام الصغير وهو يحمل فأسًا في يده، ومغطى بالكامل بنثار أبيض، وكان يتلوى ويخبط مثل سمكة غليظة في الغبار، ثمَّ راح يتمايل بأكمله من فرط الضحك، ليخرج في إثره على الفور وكان شبيهًا بسرطان رودريغ إيفانوفيتش بمؤخرته السمينة، مع فتحة في البنطلون كانت تبرز من خلالها قطعة من القطن الرمادي، من دون

معطف، وكان هو الآخر يقهقه بقوة، وبعد أن خرج كلاهما من الفتحة، جلسا على الأرض وراحا يقهقهان من دون توقف هذه المرة، وهما ينتقلان تارة من القهقهة هها ها ها إلى كخي كخي كخي ، وبالعكس، مع لحظات أنين في الفواصل بين انفجارات الضحك وهما يدفعان بعضهما بعضًا ويرتمي واحدهما على الآخر...

هذا نحن، نحن، نعم هذا نحن وأخيرًا استطاع السيد بيير أن ينطق هذه الكلمة وهو يدير باتجاه سينسينات وجهه الملطخ بغبار االكلس، وبحيث إن شعره المستعار الأصفر ارتفع مع صفير هزلي ثم سقط على الأرض.

هذا نحن قال رودريغ إيفانوفيتش بصوت مرتفع بطريقة مصطنعة (FALSETTO) لم يكن يتوقعه ثم راح يقهقه بقوّة من جديد وقد ضمَّ رِجليه اللدنتَين إلى بعضهما وفي جوارب طويلة خاصة بمهرّج وبشخص غريب الأطوار.

أوه! قال السيد بيير وقد هدأ فجأة بصورة تامة؛ نهض عن الأرض وضرب كفًّا بكف ثم ألقى نظرة على الفتحة في الجدار وقال: لقد قمنا بعمل جبار، يا رودريغ إيفانوفيتش! هيا انهض، يا عزيزي، كفى مزاحًا. يا له من عمل! وهكذا بات بالإمكان الآن استخدام هذا النفق الرائع... اسمح لي، يا جاري العزيز، أن أدعوك لزيارتي وتناول كأس من الشاي.

في حال أنك لمستني وحسب... قال سينسينات بصوت هامس ولما كان السيد بيير مستعدًا لأن يعانقه ويحشره، من ناحية، فقد وقف وهو أبيض اللون ويتصبب عرقًا، ومن ناحية ثانية، كان رودريغ إيفانوفيتش قد فتح ذراعيه مع كتفين عاريتين وياقة قميص مفتوحة ثم راح الاثنان يتقدمان وهما يتأرجحان كما لو أنهما يريدان أن يرتميا عليه؛ لم يكن أمام سينسينات سوى أن يختار الاتجاه الوحيد الممكن، وتحديدًا ذاك الذي أشير له إليه. راح السيد بيير يدفعه بلطف من الخلف كي يساعده على الولوج في الفتحة.

تفضّل وساعدني خاطب رودريغ إيفانوفيتش لكن هذا الأخير امتنع متذرّعًا باضطراب في أمعائه.

راح سينسينات يزحف على أربع بعد أن أصبح مسطّحًا مغمض العينين، بينما راح السيد بيير يزحف خلفه؛ كان المكان ضيّقًا من كافة الجهات وراح الظلام

الدامس الممتلئ بفرقعة ناتجة عن تناثر الحصى يضغط على العمود الفقري ويخزُّ اليدين والركبتين، ما جعل سينسينات يتعثر أكثر من مرة في طريق مسدود، فكان السيد بيير يسحبه عندئذ من ساقيه ويرغمه على التراجع من المكان المسدود، وكان رأسه يرتطم بشكل مؤلم في كل لحظة تارة بزاوية وتارة بنتوء، وعلى العموم انتابه إحساس ضاغط وفظيع بكآبة لا حدود لها، بحيث إنه لو لم يكن ثمة مرافق له من ورائه وقد راح ينخر وينطحه لكان استلقى في مكانه على الفور ومات. ولكن، ها هو بعد تقدّم طويل عبر نفق ضيق مظلم بلون الفحم الأسود (كان ثمة مصباح أحمر في مكان ما جانبي يشق العتمة بشكل باهت)، وبعد الضيق والعماء والاختناق لاح في البعيد ضوء شاحب مستدير: كان يوجد هناك منعطف، وأخيرًا
ظهر باب الخروج؛ سقط سينسينات بطريقة خرقاء ومباشرة على الأرضية الحجرية في زنزانة السيد بيير التي كانت أشعة الشمس تنيرها.

على الرحب والسعة قال صاحب الزنزانة وهو يخرج خلفه؛ ومن ثم تناول على الفور فرشاة خاصة بالثياب وبدأ بطريقة ماهرة بتنظيف سينسينات الذي راح يغمز بعينيه، فكان السيد بيير يخفِّف من قوّة الحركة بشكل لبق هناك حيث أمكنه أن يكون مؤلمًا. وكان أثناء ذلك ينحني كما لو أنه يحيط به ويدور من حوله، فيسير من حول سينسينات الذي كان يقف بطريقة جامدة تمامًا وقد أصيب بالذهول من فكرة واحدة وحيدة وبسيطة، والأدق أنه كان مذهولاً لا من الفكرة في حد ذاتها، وإنما بأنها لم تخطر على باله من قبل.

أما أنا فسوف أفعل التالي من بعد إذنك قال السيد بيير وخلع قميصه المغبّر؛ ثم شدّ للحظة عضلات يده، كما لو عن غير قصد، وهو يختلس نظرة إلى العضلة ذات الرأسين بلونها الأبيض الفيروزي وينشر رائحته الكريهة المميزة له. كان ثمة وشم ذو مغزى ومدروس يحيط بحلمة الثدي الأيسر عبارة عن ورقتين خضراوين ما جعل الحلمة في حدِّ ذاتها تبدو كما لو أنها برعمٌ لوردة جورية (من معجون اللوز وحلوى من قشور الليمون). تفضل، اجلس قال وهو يرتدي رداء منزليًّا مزيّنًا ببقع ملوّنة فاقعة. فالمرء يسعد بما هو يملك((65)). إن زنزانتي، كما ترى، لا تختلف عن زنزانتك في شيء. لكني أحافظ عليها نظيفة وأعمل على تزيينها... وأقوم بزخرفتها قدر استطاعتي (شعر بنوع من الاختناق كما لو بسبب الاضطراب).

عمل على تزيينها. وضع بتأنٍّ رقمًا قرمزي اللون على تقويم جداري مع لوحة بالألوان المائية لقلعة عند غروب الشمس. كانت ثمة بطانية مصنوعة من معينات مختلفة اللون تحجب السرير. وقد ثبتت فوقها بواسطة أزرار رسوم ذات مضمون هزلي، كما كانت معلقة صورة مكتبية للسيد بيير؛ كانت تبرز

طيات مموجة لمروحة ورقية من وراء حافة الإطار. وعلى الطاولة كان ثمة ألبوم بلون التمساح، وقرص ذهبي لساعة مخصصة للسفر، ومن أعلى الحواف اللامعة لكأس من الخزف مزيّن بمنظر من الطبيعة الألمانية راحت تتطلع في اتجاهات مختلفة خمس أو ست أزهار مخملية من البنفسج. وفي زاوية الزنزانة كانت ثمة علبة تستند إلى الجدار وتحتوي، كما هو واضح، على آلة موسيقية.

أنا سعيد جدًّا لأن أراك ضيفًا عندي راح السيد بيير يقول وهو يتمشى جيئة وذهابًا وفي كلِّ مرة كان يجتاز الشريط المائل لشعاع الشمس الذي كانت ذرات الغبار الكلسي ما تزال تلعب فيه. يخيل إليّ أننا نجحنا أنا وإياك خلال هذا الأسبوع في نسج علاقة صداقة، وأنَّ الأمر برمّته رائع بحيث إننا اتفقنا مع بعضنا إلى درجة طيبة نادرًا ما يحدث مثلها. يبدو لي أنك تتساءل عن محتوى العلبة؟ دعنا أولاً (التقط أنفاسه) نكمل حديثنا، ومن ثم سوف أعرض عليك...

إنَّ صداقتنا واصل السيد بيير حديثه وهو يتمشى ويتنفس بصعوبة بعض الشيء لقد تعزّزت صداقتنا في أجواء السجن الدافئة، حيث تغذّت على مشاعر القلق والأمل. أعتقد أنني أعرفك الآن بصورة أفضل بكثير من أي شخص آخر في هذه الدنيا وبطبيعة الحال، بطريقة حميمية أكثر مما عرفتك زوجتك. لذلك أشعر بألم كبير عندما تستسلم لمشاعر الحنق أو عندما تكون غير مكترث للناس وغير مبال تجاههم... على سبيل المثال، عندما جئنا إليك قبل قليل وكنا مرحين ومسرورين، قمتَ من جديد بإهانة رودريغ إيفانوفيتش بسبب تجاهلك المقصود والاستعراضي للمفاجأة التي قدمناها لك والتي شارك فيها بمودّة وبحماس، مع العلم أنه لم يعد شابًّا على الإطلاق ولديه ما يكفي من الهموم والمتاعب. كلا، لا أريد الحديث الآن عن ذلك... ولكن ما يهمني في الدرجة الأولى هو أن أشير إلى أنه لا يفوتني أي ملمح عاطفي من تلك الملامح الموجودة عندك، ولهذا السبب فإن اتهامًا معروفًا بعينه لا يبدو لي شخصيًّا على أنه اتهام عادل... فأنت بالنسبة لي شفاف مثل وأرجو أن تعذرني على حذاقة وأناقة المقارنة عروس تحمرّ خجلاً تحت نظرة العريس الخبير والمجرّب. لا أعرف ما الذي يحصل الآن مع تنفسي، وسوف ينتهي بسرعة، أرجو المعذرة. ولكن، بما أنني قمت بدراستك عن كثب إلى هذا الحد ولا داعي لأن أخفي ذلك وأحببتك، أحببتك بقوة وبشغف فلا بد أن تكون أنت أيضًا، لقد عرفتني بما يكفي واعتدت عليّ بل وأكثر من ذلك، تعلّقتَ بي مثلما أنا تعلقتُ بك. أن أحصل على مثل صداقة كهذه تلك كانت أولى مهماتي، ومن الواضح أنني نجحت في هذه المهمة على أكمل وجه. بشكل ناجح جدًّا. سوف نشرب الشاي الآن. لا أفهم، لماذا لم يجلبوا الشاي لنا.

جلس وهو يمسك بناحية الصدر منه، إلى الطاولة مقابل سينسينات لكنه انتفض واقفًا من جديد؛ تناول محفظة جلدية من تحت الوسادة وأخرج منها كيسًا من جلد الشمواه، ثم أخرج من الكيس مفتاحًا واقترب من العلبة الكبيرة التي كانت واقفة في الزاوية.

أرى أنك مندهش بترتيبي ودقّتي قال السيد بيير وهو يضع العلبة على الأرض بحرص وقد تبيّن أنها ثقيلة ويصعب حملها ... لعلمك، إنَّ الأناقة تزيِّن حياة الإنسان الأعزب الذي يبرهن من خلالها لنفسه أنَّ...

كانت توجد في العلبة المفتوحة، على المخمل الأسود، فأس عريضة ولامعة.

... يبرهن لنفسه أنَّ لديه عشًّا صغيرًا... عشٌّا تابع السيد بيير كلامه وهو يغلق العلبة من جديد ويسندها إلى الحائط بينما كان منحنيًا فوقها استحقه عن جدارة وقام بنسجه
بنفسه وملأه بدفئه هو بالذات... والمسألة هنا فلسفية تمامًا، بيدَ أنه يخيل إليّ بناء على بعض العلامات، أنك مثلي لا تميل الآن إلى مثل تلك المسائل. هل تعرف ماذا؟ إليك نصيحتي: سوف نشرب الشاي فيما بعد، أما الآن فاذهب إلى زنزانتك واسترح لبعض الوقت، هيا اذهب. كلانا فتي ولا داعي لأن تبقى هنا لمدة أطول من ذلك. سوف يشرحون لك غدًا كلَّ شيء، أما الآن فاذهب. فأنا أيضًا مثار ولا يمكنني السيطرة على نفسي، ويتعين عليك أن تعي ذلك...

قام سينسينات بفتح الباب المغلق بهدوء.

لا، لا، بل يجب عليك أن تسلك النفق. لم نبذل جهدًا لحفره عبثًا. عليك أن تعبره زاحفًا، زاحفًا. سوف أضع ستارة على الفتحة، ذلك لأنها غير لائقة. تفضّل، لو سمحت...

قال سينسينات:

سوف أدخل الفتحة بنفسي.

ولج في الثقب الأسود ومن ثم راح يزحف على الأربع وهو يخشخش بركبتيه المخدوشتين ليمضي أبعد فأبعد في العتمة الضيّقة. راح السيد بيير يصرخ في إثره شيئًا ما بخصوص الشاي، وكما يبدو كان قد وضع ستارة لأن سينسينات شعر على الفور بأنه بات منقطعًا عن الزنزانة المضاءة التي كان موجودًا فيها للتو.

راح سينسينات يتقدّم عبر النفق المتعرّج والمظلم متلمسًا طريقه بيديه، وهو يتنفس بصعوبة الهواء الخشن والثقيل ويصطدم بأشياء حادة كان ينتظر من دون خوف كبير انهيار النفق، وصادف في طريقه أكياسًا من الحجارة، ما اضطره لأن يرجع إلى الوراء مثل حيوان مسالم ومنسحب، ليتلمس مسير الطريق بالجسِّ، ثم يتابع زحفه. كان يتوق بقوة لأن يتمدد على شيء ما طريٍّ، حتى ولو كان على حشية السرير في زنزانته، وأن يغطّي رأسه ثم يتوقف عن التفكير في أي شيء. طالت رحلة العودة كثيرًا إلى درجة أنه جرّح كتفيه وبدأ يستعجل لأن ذلك كان يتيح له التنبؤ بأي طريق مسدود. كان الجو الخانق يسكره بحيث إنه قرر أن يجمد في مكانه وأن يستسلم ويتخيّل نفسه في السرير ومن ثم أن يغفو مع هذه الفكرة وإذ بالقاع الذي كان يزحف فيه ينخفض فجأة ويصبح منحدرًا بصورة واضحة تمامًا، وها هو شقٌّ أحمر باهت ولامع يلوح في المقدمة، ثم فاحت من خلاله رائحة رطوبة وعفونة، كما لو أنه انتقل من أعماق الجدران في القلعة إلى كهف طبيعي، حيث كانت تتدلى على شكل رتل خفافيش ليلية من السقف الواطئ فوق رأسه، وبحيث إنَّ كلّ واحد منها كان معلّقًا من مخالبه ورأسه نحو الأسفل، كانت ملفوفة وقد تجمدت لتصبح مثل ثمار مجففة، بانتظار دورها في الظهور ثم توسّع الصدع بطريقة متوهجة، وهبّت نسمة من هواء طازج، ثم خرج سينسينات زاحفًا عبر الصدع في الصخرة إلى الحرية.

وجد نفسه على أحد السفوح الكثيرة المغطاة بأعشاب صغيرة ندية وخضراء، وقد اندفعت بشكل حاد مثل أمواج مدببة خضراء داكنة على ارتفاعات مختلفة بين الصخور والجدران للقلعة الصاعدة على شكل بروزات. أحسَّ بالدوار في اللحظة الأولى بسبب الحرية والارتفاع والمدى الفسيح، ما منعه وهو يتشبث بالعشب الرطب الكثيف، من ملاحظة أي شيء باستثناء الصراخ القوي لطيور السنونو قبيل المبيت، وقد راحت تشق بأرجلها السوداء الهواء الملوّن إلى درجة أنَّ الشمس المتوهجة وقت الغروب كانت تشمل حوالي منتصف السماء، وأنه ثمة جرف صخري أعمى شديد الانحدار للقلعة التي خرج منها مثل قطرة تمّ عصرها، يرتفع بسرعة هائلة خلف رأسه مباشرة، وأنه توجد تحت قدميه سفوح هذيانية وضباب يبعث دخانًا برسيمي الشكل.

بعد أن التقط أنفاسه وبعد أن تأقلم مع الغشاوة في عينيه، التصق بظهره إلى الجرف الصخري مع رعشة في الجسد ودفع من إرادة مليئة باللهاث والتأوّه امتدت واسعة وإلى مدى بعيد، ثم جال بنظره على المكان المحيط والمدخِّن. كان يوجد في الأسفل البعيد حيث استقر الظلام سنمة مزخرفة لجسرٍ لا يكاد تُرى إلاّ بصعوبة من خلال تموجات الضباب. وفي الناحية الأخرى المقابِلة، كانت توجد مدينة مدخّنة وزرقاء اللون، مع نوافذ أشبه بالجمرات في النار، دون أن يكون واضحًا ما إذا كان ذلك بسبب انعكاس الغروب أم أنها مضاءة بمواقد وبمصابيح خاصة بالبيوت إلا أنه كان من الممكن تمييز خرز المصابيح وقد راحت تشتعل بالتدريج واحدًا تلو الآخر، على امتداد المنحدر كما كانت تُرى بكل وضوح قنطرة رفيعة في نهايته العلوية. أما خلف المدينة فكان كلّ شيء يغرق في ظلام دامس، وكان كل شيء يطوى وينزلق إلاّ أنه فوق الحدائق غير المرئية، في الأعماق وردية اللون للسماء، كانت تقف سحب نارية اللون وشفافة ترتبط مع بعضها على شكل سلسلة، وكانت ثمة سحابة واحدة أرجوانية تمتد لمسافة طويلة مع شقوق مشتعلة عند حافتها السفلية وبينما كان سينسينات يتأمل المشهد، توهجت هناك، في البعيد هناك، بضياء قريب من لون مدينة البندقية، تلّة تغطيها غابة من السنديان ومن ثم انطفأت ببطء.

راح ينزلق نحو الأسفل، وهو يشعر بالنشوة وبالوهن على العشب القاسي ويسعى لأن يحافظ على توازنه، وإذ بإموتشكا تقفز إليه فجأة من خلف نتوء للجدار حيث كانت أشواك الحِداد تخشخش بطريقة محذّرة، كان لون وجهها وساقيها أرجوانيًّا في ضوء الغروب، فأمسكت بيده بقوّة وقادته خلفها. كانت جميع حركاتها تعكس نوعًا من الإثارة والاستعجال المظفّر والحماسي.

قادته بسرعة على طول الجدار. وإذ بباب صغير أخضر اللون يُفتَح في الجدار. كانت توجد درجات سلم حجري تقود إلى الأسفل وكانت الدرجات تتقلقل تحت الأقدام. ومن جديد صرَّ باب آخر: كان يوجد خلفه ممر مظلم بعض الشيء توجد فيه صناديق وخزنة للملابس مسندة إلى الحائط، وكان الممر يفوح برائحة الكيروسين؛ تبيَّن أنهما دخلا عن طريق الباب الخلفي الاحتياطي إلى شقة مدير السجن، لأنها لم تعد تقبض على يديه بقوة بل أرخت إموتشكا أصابع يديها بطريقة ساهية، ثم أدخلته إلى غرفة الطعام حيث كان الجميع يجلسون إلى مائدة بيضاوية الشكل مضيئة وهم يشربون الشاي. كان المنديل يغطي بشكل كبير صدر رودريغ إيفانوفيتش، أما زوجته النحيلة وذات الوجه المنمّش، مع رموش بيضاء فكانت تناول الكعك للسيد بيير الذي كان يرتدي سترة تزينها رسوم لديوك؛ كانت توجد إلى جانب السماور سلّة تحتوي على كرات من خيوط الصوف الملون، كما كانت تتلألأ أسياخ زجاجية خاصة

بالحياكة. كانت ثمة امرأة عجوز ذات أنف حاد تزين شعرها بقطعة قماش مخرّم وتضع طرحة سوداء اللون على كتفيها، وقد راحت تضحك بصوت مرتفع عند الطرف الآخر من الطاولة.

عندما رأى المدير سينسينات فغر فاه واندلق شيء ما من زاوية فمه.

أف، يا لكِ من فتاة مستهترة ومؤذية! قالت زوجة المدير مع لكنة ألمانية خفيفة!

أما السيد بيير فقد أخفض عينيه خجلاً وتابع تحريك الشاي.

هتف رودريغ إيفانوفيتش من خلال عصير البطيخ قائلاً:

بالفعل، ما هذا المزاح والمقلب؟ فضلاً عن أن ذلك مخالف لجميع القواعد والأعراف!

كفّوا عن ذلك قال السيد بيير دون أن يرفع عينيه كلاهما طفل.

انتهت العطلة ولذلك أرادت أن تشاكس وأن تقوم بمقالب قالت زوجة المدير بسرعة.

راحت إموتشكا تطرق بالكرسي عن قصد وهي تتململ وتتلمظ، ثم جلست إلى المائدة غافلة عن سينسينات بصورة نهائية، وبدأت تضع السكّر الذي أصبح على الفور بلون الأورانج، وتناولت قطعة كبيرة من البطيخ وغرست فيها أسنانها بِهمّة عالية وهي تمسكها من طرفيها اللذين كانا يصلان حتى أذنيها، وتدفع جارها بمرفقها. واصل الجار شرب الشاي وهو يقبض على الملعقة البارزة من الفنجان بالسبابة وبالإصبع الأوسط، بيدَ أنه مدّ يدَه اليسرى تحت الطاولة خلسة دون أن يراه أحد.

آي! انتفضت إموتشكا من جراء الدغدغة دون أن تتوقف عن التهام البطيخ بالمناسبة.

اجلس من فضلك هناك قال المدير وهو يشير بسكين خاصة بالفواكه لسينسينات إلى كرسي أخضر اللون مع قماش واق من الماكاسر((66)) كان موجودًا بمفرده في زاوية شبه مظلمة بالقرب من طيات ستارة مصنوعة من القماش الدمشقي بعد أن ننتهي سوف آخذك إلى المنزل. هيا اجلس، كما أقول لك. ما هي مشكلتك؟ ما باله؟ يا له من شخص فظ وبليد!

انحنى السيد بيير نحو رودريغ إيفانوفيتش، فقال له شيئًا ما واكتسى وجهه بالحمرة.

فما كان من ذاك إلاّ أن صاح بصوت أجش:

إذن، أنا أهنئك، أهنئك قال وهو يحاول السيطرة على اندفاع صوته الجهوري هذا نبأ مفرح!.. كان يجب أن يحدث منذ زمن بعيد... نحن جميعًا... ألقى نظرة إلى سينسينات ثم اتخذ وضعية مهيبة.

ما زال الأمر مبكرًا، يا صديقي، وأرجو ألا تحرجني همس السيد بيير وهو يلمس المدير من كمِّ سترته.

على أية حال، لن ترفض تناول كأس ثانية من الشاي أعلن رودريغ إيفانوفيتش بلهجة لعوب ومن ثم فكر للحظة وهزَّ رأسه فخاطب سينسينات قائلاً:

أنت، هناك. يمكنك مؤقتًا أن تتصفح الألبوم. هيا أَعطيه الألبوم، يا ابنتي. صنع لها ضيفنا العزيز بمناسبة عودتها إلى المدرسة (وأشار بالسكين إليها)... صمم لها... أعتذر، يا بيوتر إيفانوفيتش، ما هو الاسم الذي أطلقته على الألبوم؟

منظارًا ضوئيًّا للصور Photohoroscope أجاب السيد بيير بتواضع.

سألت زوجة المدير:

هل أترك لكم شرائح الليمون؟

كان مصباح الكيروسين المعلّق في السقف يترك أبعاد غرفة الطعام مظلمة (حيث كان لمعان البندول وحده يسطع وهو يقضم الثواني الكبيرة) ويلقي على المائدة المليئة بأدوات الطعام المريحة والأنيقة، ضوءًا عائلي الطابع يستحيل إلى رنين لفناجين الشاي.

XVI

ثمة هدوء. راح العنكبوت يلتهم فراشة صغيرة ذات زغب أبيض وثلاث ذبابات من ذباب الغرف لكنه مع ذلك لم يشعر بالشبع تمامًا ولذلك راح يتطلع إلى الباب. الهدوء يسود. كان سينسينات مصابًا بخدوش وبكدمات كثيرة. غداة ذلك المساء الذي أعادوه فيه إلى زنزانته، كان اثنان من العاملين في السجن يقومان بطلاء المكان من الجدار حيث كانت توجد ثغرة فيه. وها هي الآن قد أصبحت مميزة بانحناءات من الطلاء دائرية الشكل جدًّا وسميكة لذلك كان المرء يشعر بالاختناق من مجرد النظر إلى الجدار الذي بات أكثر إحكامًا وأكثر سماكة.

أما الأثر الآخر ليوم أمس فكان الألبوم بلون التمساح مع مونوغرام مرسوم بخط عريض ولون رمادي فضي حمله معه في لحظة سهو مستكين: كانت للألبوم خصوصية معينة، وتحديدًا أبراج الصور التي صمّمها السيد بيير المبدع، أي تلك السلسلة من الصور التي تصوّر بطريقة تدريجية طبيعية مجمل الحياة القادمة للشخص المحدد. كيف فعل ذلك؟ على النحو التالي: كانت الصور المصححة بشكل كبير والمأخوذة عن وجه إموتشكا في الوقت الحالي مزودة بأجزاء من صور أشخاص آخرين غرباء من أجل إضفاء نوع من التجميل وخلق الوضع المطلوب والمناظر الطبيعية وبحيث إنه تم الحصول على كامل الطقم المزيف والوهمي butta fuori لمستقبلها. كانت الصور الموضوعة بطريقة مدروسة وبانتظام ضمن نوافذ كثيرة الزوايا ومرفقة بتواريخ مكتوبة بأحرف دقيقة وناعمة، تبدو وكأنها صور حقيقية وغير مزيفة للوهلة الأولى وكانت تعكس حالة إموتشكا كما هي اليوم، ومن ثم بعد التخرج من المدرسة، أي بعد مرور ثلاث سنوات، حيث تبدو فيها فتاة متواضعة تحمل حقيبة راقصة باليه في يدها، وبعد ذلك في عمر ست عشرة سنة، مع أضابير ومع أنابيب غاز خلفها وقد جلست بحريّة إلى طاولة وهي ترفع كأسًا وسط مجموعة من المعجبين والعشاق، ومن ثم في عمر ثماني عشرة سنة، في حداد قاتل، واقفة قرب درابزين فوق شلال، وبعد ذلك... آه، في أشكال وأوضاع كثيرة ومختلفة وصولاً حتى آخر وضعية وهي مستلقية.

كان الأمر يبدو كما لو أنه نجح بواسطة التنميق وحيل أخرى في التصوير، في تحقيق التغير المتدرج والمنتظم في تعابير وجه إموتشكا (استخدم الفنان الماهر بالمناسبة صور والدتها في بعض الأحيان)، بيدَ أنه كان يكفي المرء أن يدقق النظر وعن قرب أكثر، ليصبح واضحًا ذلك الاستعجال وغياب الذوق في

التقليد الساخر لعامل الزمن. كانت الساقان عند إموتشكا وهي تغادر المسرح في ملابس من الفراء وتحمل باقات من الزهور ضاغطة إياها إلى كتفها، تبدوان وكأنهما لم تعرفا الرقص أبدًا؛ وفي الصورة التالية التي تصورها وهي محاطة بدخان الزفاف، كان يقف إلى جانبها عريس ممشوق القد وطويل القامة ولكنه ذو سحنة مستديرة تشبه سحنة السيد بيير. وفي سن الثلاثين بدأت تظهر لديها تجاعيد رمزية تم رسمها بلا أي معنى، وخالية من أي حياة ومن دون أي معرفة بأهميتها الحقيقية لكنها تنقل لصاحب الخبرة والدراية أمرًا غريبًا تمامًا، كما يحدث عندما تتزامن حركة عابرة لغصن مع إشارة يستطيع أن يفهمها الشخص الأصم والأبكم. وفي سن الأربعين تموت إموتشكا واسمحوا لي هنا بأن أهنئكم بالخطأ المعكوس: لا يمكن لوجهها وهي على فراش الموت في الصورة أن يشبه وجه إنسان ميت!

حمل روديون ذلك الألبوم بعيدًا وهو يغمغم أن الآنسة الشابة سوف تغادر الآن، وعندما جاء مرة أخرى وجد أنه من الضروري الإعلان عن أن الآنسة الشابة غادرت:

(قال مع تنهيدة) غادرت!.. (متوجهًا إلى العنكبوت) كفاك... (راح يقلّب يديه). كلا، لا يوجد معي أي شيء. (ومن جديد خاطب سينسينات مرة أخرى). الأمر ممل ، أواه، سوف نشعر بالملل من دون الابنة، إذ إنها كانت تجري وهي تنشد الأغاني، الابنة المدللة من قبلنا جميعًا، زهرتنا الذهبية. (ثم بنبرة مختلفة بعد لحظة من التوقف). ما لك يا صديقي لا تطرح اليوم أي أسئلة مع مماحكة؟ لماذا آ؟

أجاب روديون على نفسه قائلاً «تلك هي»، ثمَّ انسحب بكرامة.

وبعد الغداء، دخل السيد بيير ولكن هذه المرة بطريقة رسمية تمامًا، من دون ملابس خاصة بالسجناء، وإنما في سترة مخملية ومع ربطة عنق من النوع الذي يضعه الممثلون والفنانون وفي جزمة جديدة ذات كعب عال، لها رقبة طويلة لامعة وتُصدر صريرًا خافتًا بطريقة مداهنة (ما جعله يبدو نوعًا ما وكأنه أشبه بشخصية الحراجي في الأوبرا)، يتبعه رودريغ إيفانوفيتش وهو يتنازل له بكل احترام عن أسبقية الدخول والكلام وكل شيء ومعهما محامٍ يحمل حقيبة. توزّع الثلاثة حول الطاولة على كراسيّ من الخيزران (جيءً بها من مكتب الاستقبال)، في حين أنَّ سينسينات راح يتمشى في الزنزانة بادئ الأمر، وهو يصارع الخوف المصحوب بالحرج، ثم جلس بعد ذلك أيضًا.

راح المحامي يتعامل مع الحقيبة بارتباك شديد (كان هذا الارتباك، بالمناسبة، أمرًا مجرَّبًا ومألوفًا لديه)، كان تارة يسحب الغطاء الأسود للحقيبة وهو يضعها بشكل جزئي على ركبته ويسندها إلى الطاولة بشكل جزئي آخر كما كان ينتقل من نقطة إلى أخرى، وأخيرًا أخرج المحامي دفتر ملاحظات كبيرًا، ثم أغلق أو بالأحرى أقفل الحقيبة الطريّة جدًّا والتي لم تدخل في القفل على الفور ووضعها على الطاولة، لكنه غيَّر رأيه وأمسك بها من رقبتها فوضعها على الأرض في وضعية مائلة أشبه بوضعية شخص ثمل مسندًا إياها إلى قائمة الكرسي الذي يجلس عليه؛ بعد ذلك أخرج قلم رصاص مطليًّا بالورنيش كما لو أنه كان في عروة قميصه بطريقة مستعجلة، ثمّ فتح بطريقة فظّة دفتر الملاحظات على الطاولة دون أن يعير انتباهه لأي شيء أو لأي شخص، وبدأ الكتابة على الصفحات التي يمكن اقتطاعها بسهولة؛ بيدَ أنَّ هذا الإهمال بالتحديد لكل ما كان يحيط به، هو الذي أكد على نحو خاص تلك العلاقة القائمة بين جري قلمه وبين اجتماعهم الذي عقدوه هنا.

كان رودريغ إيفانوفيتش جالسًا على كرسي بذراعين وقد مال إلى الخلف قليلاً ومن جراء الضغط بظهره المتين راح الكرسي ذو الذراعين يطقطق ويصرّ، كما أنه أسدل إحدى يديه في قفاز أرجواني على مسند الذراع، بينما دسّ الكفَّ الأخرى خلف طرف معطفه؛ ومن وقت لآخر كان يقوم بحركة معينة بوجنتيه المترهلتين وبذقنه المطلية بالبودرة مثل راحة الحلقوم التركية، كما لو أنه كان يحاول تحريرها من مادة دبقة.

أما السيد بيير الذي كان يجلس في الوسط، فقد صبّ لنفسه كأسًا من الماء من دورق على الطاولة، ثم وضع بعناية فائقة يديه على الطاولة شابكًا أصابعهما (لعبة الزبرجد المزيف في إصبعه الصغير)، وبعد أن أخفض رموشه الطويلة راح يفكّر بطريقة توقيرية لحوالي عشر ثوان في ماذا سيبدأ كلامه.

أيها السادة الكرام قال السيد بيير في نهاية الأمر بصوت ناعم دون أن يرفع بصره اسمحوا لي، أوّلاً وقبل كلّ شيء، أن أرسم بواسطة لمستين أو ثلاث لمسات ناجحة ما قمتُ بفعله.

تفضل قال المدير بصوت جهوري وتحرّك بحيث إنّ الكرسي أصدر صريرًا.

يجب أن يكون معروفًا لكم أيها السادة، بالطبع، أسباب تلك الخدعة المسلّية التي تفرضها تقاليد حرفتنا الفنية. وبالفعل. كيف كانت ستكون الحال، لو أنني كشفت عن نفسي بصورة مفاجِئة ومن دونِ تأنٍّ وعرضتُ صداقتي على

سينسينات؟ كان هذا سيعني، أيها السادة، أنني أدفعه بعيدًا عني بشكل مسبق، مثيرًا الرعب في نفسه وخالقًا لديه عداوة ضدي أي أنني، باختصار، كنت سأرتكب خطأ فادحًا لا يمكن تصحيحه.

شرب الخطيب بلعة من الماء من الكأس ثم أعادها إلى مكانها بهدوء وبحذر.

لن أتحدث واصل السيد بيير كلامه رافعًا رموشه نحو الأعلى عن الأهمية الكبيرة والضرورية من أجل نجاح مهمتنا المشتركة لتلك الأجواء الدافئة للعلاقة القريبة والرفاقية التي تنشأ بالتدريج، بمساعدة الصبر والمداعبة، بين المحكوم عليه وبين المسؤول عن تنفيذ الحكم. من الصعب، بل وحتى أنه من المستحيل أن أتذكر من دون إحساس بالقشعريرة، تلك البربرية التي كانت سائدة في العصور الغابرة، حين كان اثنان، لا يعرفان واحدهما الآخر نهائيًّا وغريبين عن بعضهما تمامًا، يلتقيان وجهًا لوجه فقط في اللحظة الأخيرة السابقة لذلك الأمر الغامض والسري. لقد تغيّر كل ذلك، كما تغير بصورة كاملة بمرور مئات السنين ذلك القِران البدائي والمتوحش الذي كان أكثر ما يشبه طقس تقديم الأضاحي حين كان أهل الفتاة العذراء الخانعة يلقون بها إلى إنسان غريب عنها في الخيمة.

(عثر سينسينات في جيبه على ورقة فضية اللون من قطعة شوكولاتة وراح يجعّدها بأصابعه).

وهكذا، أيها السادة، لكي أنجح في إقامة علاقات ودّية تمامًا مع المحكوم عليه، نزلتُ في زنزانة مظلمة وظالمة شبيهة بتلك التي نزل هو فيها، وفي هيئة سجين أيضًا كيلا أقول وأكثر من ذلك. لم يكن لخداعي البريء إلاّ أن ينجح، ولذلك كان من الغريب بالنسبة لي لو أنني شعرت بأي تأنيب للضمير؛ أما أنا فلا أريد أدنى قطرة مهما كانت صغيرة من المرارة في قعر صداقتنا. على الرغم من حضور شهود عيان وإدراكي للصواب المحدد في سلوكي، فإني أطلب منك (ثم شدَّ سينسينات من طرف كمّه) أن تسامحني.

أجل، تلك هي لباقة حقيقية قال المدير بصوت خافت وطفحت عيناه الحمراوان والشبيهتان بعيني ضفدع بالدموع؛ أخرج منديلاً مطويًّا من جيبه وأراد أن يمسح به جفنيه المرتعشين، لكنه غيّر رأيه وبدلاً من ذلك راح يحدّق إلى سينسينات بطريقة حانقة ومترقبة. كما ألقى المحامي أيضًا نظرة خاطفة عليه وهو يحرّك بلا صوت شفتيه اللتين أصبحتا شبيهتين بالخط الذي يكتب به،

أي أنه لم يقطع صلته بالسطر المنفصل عن الورق وها هو مستعد من جديد لكي يواصل الكتابة.

هاتِ يدكَ! صاح المدير بصوت غاضب وقد احمرّ وجهه وضرب الطاولة بقبضة يده بقوة إلى درجة أنه آلم نفسه.

لا، لا ترغمه على ذلك في حال أنه لم يكن يريد قال السيد بيير بهدوء لأن هذا أمر شكلي وحسب. سوف نتابع.

يا لك من شخص دمث دمدم رودريغ إيفانوفيتش وهو يختلس نظرة رطبة أشبه بقبلة، إلى السيد بيير.

سوف نتابع قال السيد بيير لقد نجحت خلال هذه المدة بإقامة علاقة حميمية مع جاري. وقد أمضينا...

راح سينسينات ينظر تحت الطاولة. شعر السيد بيير لسبب ما بالحرج، وتململ في مكانه وراح ينظر بدوره إلى الأسفل. رفع المدير غطاء الطاولة بعض الشيء ونظر إلى نفس
المكان ومن ثم نظر إلى سينسينات بريبة. كما ألقى المحامي بدوره نظرة إلى هناك، ومن ثم جال بنظره على الجميع وبدأ يكتب من جديد. استقام سينسينات. (ما من شيء يستحق الاهتمام كان قد أسقط الورقة الفضية المجعّدة من يده).

أمضينا معًا تابع السيد بيير بصوت مشوب بالإهانة مساءات مطولة ونحن نتحدث بلا توقف ونقوم بمختلف الألعاب والتسالي. رحنا نتنافس في القوة مثل الأطفال؛ وأنا السيد بيير، الضعيف والبائس بطبيعة الحال، أواه، بالطبع، خسرت الرهان أمام قريني الجبار. خضنا نقاشات في كلّ شيء عن الإثارة الجنسية وعن أمور أخرى سامية، وكانت الساعات تنقضي كأنها دقائق، والدقائق كأنها ساعات. وأحيانًا في صمت هادئ...

بدأ رودريغ إيفانوفيتش يقهقه فجأة:

67((IMPAYABLE CE)) بكل تأكيد قال هامسًا بعد أن أدرك سخافة النكتة متأخّرًا بعض الشيء.

... وأحيانًا كنا نجلس جنبًا إلى جنب في صمت هادئ، ونحن متعانقان متأملان الشفق وكل واحد منا يفكّر في أموره الخاصة، كما كنا نندمج مع بعضنا مثل نهرين بمجرّد أن يبدأ أحدنا بالكلام. تقاسمت معه تجربتي العاطفية وعلّمته فنون لعبة الشطرنج، قمت بتسليته بنكات تناسب اللحظة. هكذا مضت الأيام. وها هي النتيجة واضحة تمامًا. لقد أغرمنا ببعضنا ولذلك فإن بنية الروح عند سينسينات معروفة لي كما هي معروفة بنية رقبته. وبهذا الشكل، لن يقوم رجل غريب ورهيب بمساعدته في تسلّق تلك الدرجات الحمراء، وإنما شخص صديق ولطيف معه، وسوف يستسلم لي بلا خوف إلى الأبد، حتى الموت المحقّق. بلى، سوف يتم تنفيذ إرادة الجمهور! (نهض؛ ونهض المدير أيضًا؛ أما المحامي المأخوذ بالكتابة فقد رفع جسمه بعض الشيء فقط). هكذا، إذن. أرجوك الآن، يا رودريغ إيفانوفيتش، أن تعلن بشكل رسمي عن رتبتي الوظيفية وأن تعرّف بي.

وضع المدير النظارة على عجل، ومسّد ورقة ما مجعّدة ثم توجّه إلى سينسينات قائلاً بصوت قوي:

هكذا... إنَّ السيد بيير... 68((BREF))... المسؤول عن تنفيذ حكم الإعدام... شكرًا لك على تشريفي بالإعلان عن ذلك أضاف وخلط بين أمر ما وآخر، ثم عاد وجلس في الكرسي مع تعبير دهشة على وجهه.

قال السيد بيير بلهجة تنمّ عن عدم الرضى:

لكنك لم تنجح كما يجب. هناك بعض الشكليات الرسمية التي يتعين التقيد بها. لستُ بالشخص الدقيق والحَرْفي، إلاّ أنه في مثل هذه اللحظة... لا داعي لأن تضع يدك على صدرك، لم تكن موفقًا، يا عزيزي. كلا، كلا، ابقَ جالسًا، يكفي ذلك. أما الآن فسوف ننتقل... أين جدول الأعمال، يا رومان فيساريونوفيتش؟

سبق أن أعطيتك إياه أعلن المحامي بجرأة ولكن، بالمناسبة... وبدأ البحث في الحقيبة.

وجدته، فلا داعي لأن تقلق أعلن السيد بيير وهكذا... تم تحديد العملية بعد غد... في الساحة المثيرة للاهتمام. لا يوجد مكان أفضل من ذلك... يا له من أمر مذهل! (تابع القراءة وهو يدمدم لنفسه شيئًا ما بصوت خافت). يُسمح لمن بلغ السن القانونية بالحضور... تصلح التذاكر التي تستخدم للدخول إلى العرض في السيرك... نعم، نعم، هكذا، إذن... المسؤول عن تنفيذ الإعدام في لباس أحمر... ولكنهم، وهذا مثير للسخط، بالغوا هنا كثيرًا كما هي العادة... (توجه إلى سينسينات). يعني بعد يوم غد. هل فهمت ذلك؟ وأما غدًا كما تملي القاعدة الرائعة يجب علينا أن نذهب وإياك لنقوم بزيارة آباء المدينة والقائمة موجودة لديك كما أعتقد، يا رودريغ إيفانوفيتش.

راح رودريغ إيفانوفيتش يضرب نفسه في أماكن مختلفة من جسمه المبطَّن بالقطن وقد جحظت عيناه ونهض واقفًا لسبب ما. وأخيرًا عثر على الورقة المطلوبة.

حسنًا قال السيد بيير يجب أن تضمّ هذه الورقة إلى ملف القضية، يا رومان فيساريونوفيتش. يبدو أننا انتهينا من كافة الشكليات. والآن تُعطى الكلمة حسب القانون...

بل لا، 69))C'EST VRAIMENT SUPERFLU))... قاطعه بسرعة رودريغ إيفانوفيتش إذ إن ذلك القانون بات قديمًا جدًّا.

حسب القانون كرر السيد بيير بلهجة صارمة متوجهًا إلى سينسينات تُعطى الكلمة لك.

يا له من شخص شريف! هتف المدير بصوت عال وهو يرجِّف وجنتيه.

خيّم الصمت عندئذ. راح المحامي يكتب بسرعة كبيرة بحيث إنّ وميض قلم الرصاص كان يزعج العين.

سوف أنتظر لدقيقة واحدة كاملة قال السيد بيير ووضع أمامه على الطاولة ساعة سميكة.

تنهّد المحامي بطريقة متقطعة؛ ثم راح يطوي الأوراق المكتوبة بكثافة.

سادت لحظة صمت.

أعلن السيد بيير:

انتهى الاجتماع. هيا بنا نذهب، أيها السادة. دعني ألقي نظرة، يا رومان فيساريونوفيتش، على البروتوكول قبل أن نقوم بطباعته ونسخه. ولكن، لا دعنا نتريث
قليلاً، إذ إنَّني أشعر بالتعب في عينيَّ.

يجب أن أعترف قال المدير أنني أشعر بالأسف في بعض الأحيان لأنَّ المنظومة لم تعد صالحة... ثم انحنى عند عتبة الباب إلى أُذن السيد بيير وهمس له بشيء ما.

ما هذا الذي تقوله يا رودريغ إيفانوفيتش؟ أبدى المحامي اهتمامه مع بعض الغيرة. فهمس له المدير بالشيء نفسه.

نعم، بالفعل وافق المحامي مع العلم أنه يمكن التغاضي عن الرأس المدبب. لنقل إنه يمكن مدّه لعدّة مرات...

كفى، كفى قال السيد بيير كونوا أكثر تساهلاً، أيها المهرِّجان. فأنا لا أقوم بعملية شق.

لا، نحن نتحدث بصورة نظرية فقط حاول المدير أن يجد تبريرًا لكلامهما لأنه فيما مضى، عندما كانوا يستخدمون...

أغلق الباب وابتعدت الأصوات.

ولكن ضيفًا آخر جاء إلى سينسينات على الفور، وهو أمين المكتبة وذلك لكي يأخذ الكتب. كان وجهه المتطاول والشاحب وسط هالة من الشعر المغبّر الأسود من حول صلعته، وقوامه النحيل والمرتجف في قميص صوفي ثقيل

بلون أزرق باهت، ومع ساقين طويلتين في بنطلون قصير كل هذا كان يخلق انطباعًا غريبًا وسقيمًا كما لو أنه جرى ضغطه ومن ثم إخراجه. لكن سينسينات كان يشعر بأنَّ آثار شيء شبه إنساني كانت قد ترسبت عليه، بالإضافة إلى غبار الكتب.

قال سينسينات:

لا بدَّ أنك سمعت بأن إبادتي سوف تكون بعد يوم غد. لن أطلب كتبًا بعد ذلك.

أجل، لن تحتاج إلى الكتب بعد ذلك أكد أمين المكتبة كلامه.

تابع سينسينات:

يتعين عليَّ أن أتخلّص من عدد من الحقائق الضارّة. هل لديك ما يكفي من الوقت؟ أريد أن أقول لك ما أصبحتُ أعرفه بشكل دقيق... وكم كانت رائعة تلك الحالة من عدم المعرفة التي كانت تثير لدي الأسى والحزن... لن أطلب كتبًا بعد الآن...

ربما تحتاج إلى شيء ما من عالم الأساطير؟ اقترح أمين المكتبة.

لا، لا يستحق الأمر. لا رغبة عندي في القراءة.

البعض يطلب مثل هذه الكتب. أردف أمين المكتبة.

بلى، أنا أعرف ذلك، ولكن الأمر لا يستحق ذلك بالفعل.

ربما، في آخر ليلة أنهى أمين المكتبة فكرته بمشقة.

قال سينسينات:

يبدو أنك اليوم تميل للثرثرة كثيرًا على عكس عادتك. كلا، بل خذ كل هذه الكتب. وأما «QUERCUS» فلم أتمكن من قراءته! بالمناسبة: هل أحضرت لي... هذه المجلدات باللغة العربية... عن طريق الخطأ، يا تُرى؟ لكني، للأسف، لم يسعفني الوقت لكي أتعلّم اللغات الشرقية.

هذا أمر مثير للأسف قال أمين المكتبة.

لا بأس، سوف تعوِّض الروح ما فاتها. مهلاً، لا تغادر بل انتظر قليلاً. مع أنني أعرف أنك مجرد كائن لُفَّ في جلد إنسان، ومع ذلك... أنا أرضى بما هو قليل... بعد يوم غد...

لكن أمين المكتبة غادر وهو يرتجف.

XVII

كان العرف يقضي بأن يقوم المشاركان السلبي والنشط في عملية الإعدام عشية تنفيذ الحكم بزيارة قصيرة معًا إلى كبار الموظفين الرسميين إلاَّ أنه وبهدف تسريع الطقوس تقرر أن يجتمع المسؤولون الرسميون معًا في بيت نائب محافظ المدينة الموجود في الضاحية منها (في حين أن المحافظ، وهو ابن أخي نائبه، كان مسافرًا كان ينزل ضيفًا على بعض أصدقائه في بلدة بريتومسك)، وأن سينسينات مع السيد بيير سوف يصلان إلى هناك بحلول العشاء.

كانت ليلة حالكة مع رياح شديد ودافئة، عندما انطلقا وهما يرتديان معطفين متشابهين تمامًا، سيرًا على الأقدام برفقة ستة جنود يحملون مطارد ومصابيح فاجتازوا الجسر في المدينة النائمة وتحاشوا المرور في الشوارع الرئيسية، ثمّ راحوا يصعدون الجبل عبر ممرات صوانية وسط الحدائق الصاخبة.

(كان سينسينات قد التفت إلى الوراء عندما كانوا يعبرون الجسر وقام بتحرير رأسه من قبعة الرداء: كانت القلعة الضخمة والهائلة المعقدة والواعدة جدًّا بلونها الأزرق تشمخ عاليًا نحو السماء الباهتة، حيث كانت سحابة تعبر القمر مشمشي اللون.

لقد وعدتني... همس السيد بيير وهو يضغط على مرفق سينسينات بلطف فما كان من هذا الأخير سوى أن أعاد تغطية رأسه بقبعة الرداء).

كانت تلك الرحلة الليلية التي بدت وكأنها ستكون غنية بالانطباعات الحزينة والخالية من الهموم، بالانطباعات المفرحة والهامسة، وإلاّ ما هي الذكرى إنْ لم تكن روحًا للانطباع؟ بيدَ أنها كانت رحلة مربكة وغامضة في حقيقة الأمر وغير ذات قيمة وقد مضت بسرعة كبيرة جدًّا، كما يحدث فقط عندما يكون المرء في مكان معروف ومألوف له كثيرًا، وفي الظلمة حيث يتم استبدال أجزاء النهار متعدد الألوان بقطع كاملة من الليل.

في نهاية ممر ضيق ومعتم، حيث سمع صوت خشخشة للحصى وفاحت رائحة العرعر، ظهر بغتة مدخل مضاء بطريقة مسرحية مع أعمدة بيضاء اللون ومع أفاريز في الواجهة بالإضافة إلى أشجار من الغار في براميل، ولم يتأخروا في

المدخل حيث كان الخدم يجرون بسرعة مثل طيور الجنة وهي ترمي ريشها على بلاطات الأرضية ذات اللونين الأبيض والأسود. دخل كل من سينسينات والسيد بيير إلى الصالة التي كانت تعج بعدد كبير من الناس. كان الجميع حاضرين هناك.

كان واضحًا للعيان هنا المسؤول عن نوافير المدينة برأسه المميز؛ كما لمعت البدلة الرسمية السوداء لكبير موظفي التلغراف بميداليته ذات الشكل البستوني؛ كما كان موجودًا هنا مدير الإمداد بوجهه المورَد وأنفه الكريه؛ ومروض الأسود ذو الكنية الإيطالية؛ والقاضي، ذلك الكهل ثقيل السمع؛ ومدير الحدائق الذي كان يرتدي حذاء ملمّعًا أخضر اللون ومجموعة أخرى من الأشخاص الموقرين وأصحاب المقامات الرفيعة وشائبي الشعر من ذوي الوجوه المُنفِّرة. لم تكن توجد سيدات بين الحضور، هذا إذا استثنينا المسؤولة عن دائرة التعليم، وهي امرأة بدينة جدًّا، في رداء رمادي اللون له بطانة رجالية، امرأة طاعنة في السن وذات وجنتين عريضتين مسطحتين وتسريحة ملساء لامعة بلون الفولاذ.

انزلق أحد الأشخاص وسقط على الأرضية الخشبية، ما أثار موجة عارمة من الضحك. سقطت إحدى الشموع من الثريا. قام أحدهم بوضع باقة من الأزهار على تابوت صغير تمّ وضعه للعرض. راح السيد بيير وهو يقف مع سينسينات على جنب، يشير لتلميذه إلى مثل هذه الظواهر والأشياء.

ولكن، ها هو صاحب الدعوة، عجوز أسمر اللون ذو لحية كثيفة، يصفق بيديه، وإذ بالباب الكبير يُفتَح وينتقل الجميع إلى صالة الطعام. طلبوا من السيد بيير ومن سينسينات أن يجلسا جنبًا إلى جنب عند رأس الطاولة المغمورة باللمعان وبالبريق حيث راح الجميع، بطريقة لبقة ومضبوطة في بداية الأمر، ينظرون إلى الثنائي الذي يرتدي زيًّا موحّدًا وأحذية شبيهة بحذاء هاملت، من دون أن يخرقوا الأصول ومع نوع من الفضول والنية الحسنة كانا يتحولان لدى البعض إلى شفقة خفية وتعاطف مستتر؛ بعد ذلك، ومع ظهور ابتسامة شفيفة على شفتي السيد بيير الذي بدأ كلامه، تركزت نظرات الضيوف بشكل واضح وصريح عليه وعلى سينسينات الذي كان يحاول العمل بالسكين المخصص للسمك بشتى الطرق بمنتهى الجدّية ومن دون أي عجلة كما لو أنه كان يبحث عن حلٍّ لمسألة ما، فيضعها تارة على المملحة وتارة على حدبة الشوكة، وأحيانًا كان يسندها إلى مزهرية من الكريستال وضعت فيها وردة جورية بيضاء بخلاف باقي الأدوات التي تزين المائدة.

كان الخدم الذين تمَّ اختيارهم من بين أكثر شبّان المدينة تأنقًا وجدارة أفضل ممثلي الشباب الزاهي يحملون أطباق الطعام بحذق وبمهارة (بل وكانوا في بعض الأحيان يبالغون فيرمون الطبق من فوق الطاولة)، وقد لفت أنظار الحاضرين ذلك الاهتمام المبالغ به الذي كان السيد بيير يعامل به سينسينات، إذ قام على الفور باستبدال ابتسامته الدالة على حبّ الثرثرة إلى نوع من الجدّية اللحظية حيث كان يضع في صحنه وبعناية كمية أكبر من الطعام ليعود بعد ذلك مع نفس البريق المرح على وجهه الوردي الخالي من الشعر، إلى متابعة حديثه الظريف والفطن على امتداد المائدة بأكملها وفجأة شعر بالتململ بعض الشيء، وهو في منتصف عبارته، فالتقط قنينة الصلصة أو علبة الخردل ملقيًا نظرة
استفهام على سينسينات الذي لم يلمس، بالمناسبة، أي طبق من أطباق الطعام، بل جلس في نفس الوضعية الهادئة وهو يقوم بنقل السكين من مكان إلى آخر بمنتهى الحرص والمثابرة.

إن ملاحظتك قال السيد بيير مخاطبًا رئيس حركة النقل في المدينة الذي قال كلمته ثم راح ينتظر باستمتاع تعليقًا ساخرًا إنَّ ملاحظتك تذكّرني بنكتة معروفة تتعلق بأسرار مهنة الطب...

هات حدّثنا عنها، نحن لا نعرفها، إيه، حدّثنا ترددت الأصوات مخاطبة السيد بيير من كافة الجهات.

اسمحوا لي، سوف أرويها لكم قال السيد بيير جاء إلى طبيب أمراض نسائية...

أرجو المعذرة على المقاطعة قال مروِّض الأسود (وهو رجل بشاربين شائبين ومع وشاح قرمزي اللون) ولكن، هل يؤكد السيد أن النكتة على العموم مناسبة لأن تسمعها الآذان بالكامل... قال ذلك وألقى نظرة ذات مغزى على سينسينات.

كفى، كفى، كُفَّ عن ذلك قال السيد بيير بنبرة صارمة لا يمكن أن أسمح لنفسي على الإطلاق أن أقول شيئًا بذيئًا بوجود الحاضرين... إذن، جاءت امرأة عجوز إلى طبيب أمراض نسائية (مدَّ السيد بيير شفته السفلية قليلاً نحو الأمام). وقالت له: لدي مرض جدّي وخطير جدًّا، وأنا أخشى أن أموت

بسببه، أيها الطبيب. ما هي الأعراض سألها الطبيب فأجابت: الرأس عندي يهتز، يا دكتور... قال السيد بيير وراح يغمغم ويرتجف مقلّدًا المرأة العجوز.

انفجر الحاضرون في الضحك. كان القاضي ذو السمع الثقيل في الطرف الآخر من المائدة يصعّر وجهه مكشِّرًا بطريقة مؤلمة، ربما بسبب عدم قدرته على الضحك، فحشر أذنَه الرمادية الكبيرة في وجه جاره الأناني الذي كان يقهقه بقوة وبدأ يشدّه من كمّ سترته راجيًا منه أن ينقل له ما يقوله السيد بيير الذي راح يتابع، بالمناسبة، أصداء نكتته ومصيرها بطريقة غيورة في كامل أنحاء الطاولة، ولم يغمز بعينه إلاّ بعد أن قام أحدهم بتلبية فضول القاضي التعس.

يكمن جوهر الحكمة من كلامك في أن الحياة ليست سوى سرٍّ من الأسرار الطبية قال المسؤول عن النوافير في المدينة وهو ينثر قطرات صغيرة من اللعاب بحيث إنه تَشكَّل في زوايا فمه نوع من قوس قزح وقد يكون قولك المأثور مناسبًا تمامًا لتلك الحالة الغريبة التي وقعت قبل أيام في عائلة السكرتير عندي. تصوّروا...

كيف الحال يا سينسينات، هل الأمر مرعب؟ سأله أحد الخدم بلباسه اللامع هامسًا مع نبرة تعاطف وهو يصب النبيذ في كأس سينسينات؛ رفع سينسينات عينيه فرأى أن المتحدث هو شقيق زوجته الذي يحب المزاح والتهريج. وهل الأمر مخيف؟ هيا، اشرب النبيذ حتى لحظة التتويج((70))...

ما هذا الذي تقوله؟ أسكت السيد بيير النادل الثرثار بلهجة باردة وحازمة، فابتعد النادل بسرعة وهو محدودب، لينحني مع قارورته من فوق كتف الضيف التالي.

نهض صاحب البيت وهو يحمل على مستوى صدره المنشّى كأسًا تحتوي شرابًا أصفر اللون رائقًا ومع ثلج، ثم صاح:

أيها السادة المحترمون! أقترح أن نشرب نخب...

قُبلة!((71)) صاح أحدهم فدعمه الآخرون في ذلك.

... سنشرب كأس الوفاء والإخلاص ON THE BRUDERSCHAFT،
وأناشد... توجّه السيد بيير بصوت متبدّل وبهدوء وبوجه مشوّه بالرجاء
وبالصلاة، إلى سينسينات لا ترفض لي ذلك، أناشدك وأتوسل إليك، لأن هذا
يجري دائمًا، ودائمًا يتم فعل مثل هذا الطقس...

لامس سينسينات بلا اكتراث وبطريقة لامبالية أوراق الوردة الجورية البيضاء
المبللة وقد تجمعت على شكل أنابيب منحرفة، ثم أخرجها بشكل آلي من
المزهرية التي سقطت.

أنا أملك الحق، في نهاية المطاف، أن أطالب قال السيد بيير هامسًا وبلهجة
متوترة وإذ به يسكب فجأة قطرة نبيذ من كأسه على قمة رأس سينسينات
وهو يضحك بطريقة متشنجة ثم رشّ نفسه أيضًا بالنبيذ.

برافو، برافو! ترددت الصيحات في أرجاء المكان، ثم التفت الجار إلى جاره
معبّرًا عن دهشته وإعجابه من خلال تعابير وجه متحمسة ومثيرة، فقرعوا
الكؤوس وتبادلوا الأنخاب بكؤوس غير قابلة للكسر واحتشدت تفاحات بحجم
رأس طفل صغير متلألئة وسط عناقيد من العنب بلون أزرق أغبر في صحن
كبير ذي سطح منحدر على شكل قارب، فارتفعت المائدة مثل سفح على
جبل ألماسي، كما راحت ثريا متعددة الأذرع تسافر في زخرفة فنية للسقف
وهي تنتحب وتشعُّ دون أن تجد لنفسها ملاذًا لها.

أنا متأثِّر، متأثِّر قال السيد بيير ثم راحوا يقتربون منه على التوالي ويهنئونه.
في حين أنّ آخرين كانوا يتراجعون في هذه اللحظة مبتعدين، كما راح أحدهم
يغنّي. كان المسؤول عن عمال الإطفاء في المدينة مخمورًا إلى درجة كبيرة؛
حاول اثنان من الخدم جرّه بعيدًا بطريقة صاخبة، لكنه ضحّى بذيل معطفه
كما تضحي سحلية بذيلها لكي تنجو وبقي في مكانه. أما السيّدة الموقرة
والمسؤولة عن قطاع التعليم في المنطقة والتي امتلأ وجهها ببقع قرمزية
اللون، فقد راحت تتراجع إلى الخلف بصمت وبمشقة وتدافع عن نفسها في
وجه المسؤول عن الإمداد الذي كان يصوِّب نحوها بطريقة لاهية ومسلية
إصبعه الشبيه بجزرة كما لو أنه يريد ثقبها أو دغدغتها وهو يردد قائلاً لها:
«تيتي تيتي تي تي!».

هيا بنا، أيها السادة، ننتقل إلى الشرفة أعلن صاحب الدعوة وعندئذ قام
شقيق مارفينكا ونجل الدكتور الراحل سينيوكوف بفتح الستارة مصدرين

قرقعة بواسطة الحلقات الخشبية؛ انكشفت للأعين في الضوء المتلألئ للمصابيح المزخرفة ساحة حجرية محدّدة في وسطها بأعمدة من الدرابزين على شكل قناني، ما جعل قطع الليل في الفراغات بينها تكتسب سوادًا شديدًا.

جلس الضيوف الشبعون والصاخبون في كراسيّ منخفضة. راح البعض منهم يتسكع حول الأعمدة والبعض الآخر بالقرب من الدرابزين. وقف سينسينات هناك أيضًا وراح يقلّب بين أصابعه مومياء لسيجار؛ كان السيد بيير يقف إلى جانبه دون أن يدير وجهه إليه ولكنه كان يحرص على ملامسته تارة من ظهره وتارة من جنبه، وهو يتحدث وسط صيحات المستمعين المرحِّبة:

إنَ التصوير وصيد السمك هما أفضل هواياتي. ومهما بدا ذلك غريبًا بالنسبة لكم، فإن الشهرة والتشريف ليسا بالشيء المهم بالمقارنة مع الهدوء الذي يسود في الريف. وها أنت تبتسم مع نوع من عدم الثقة والشك في كلامي، أيها السيد المحترم (قال ذلك بطريقة خاطفة موجهًا كلامه إلى أحد الضيوف الذي سارع إلى إخفاء ابتسامته على الفور)، لكني أقسِم لك أن هذه هي الحقيقة وأنا لا أقسِم سدىً وعن عبث. وقد كان والدي الذي لم يكن يعرف الكذب أيضًا هو الذي أوصاني بمحبة الطبيعة. ولا بدَّ أنَّ كثيرين منكم يتذكرونه، بالطبع، ويمكنهم أن يؤكدوا وحتى تدوين ذلك إذا ما تطلب الأمر.

وقف سينسينات قرب الدرابزين وراح يحدِّق في الظلام بطريقة مبهمة وإذ بالعتمة تشحب فجأة بطريقة لطيفة وجذابة، كما لو أن الأمر تمَّ بناء على طلبِ أحدٍ ما، ذلك لأن القمر الذي بات الآن نقيًّا وعاليًا كان قد خرج في هذه اللحظة من خلف السحب السوداء غير المنتظمة وغمر الشجيرات باللمعان واشتعل بترنيمة من الضوء في بحرات الماء. فجأة أدرك سينسينات مع حركة حادة في روحه بأنه إنما يقف الآن في قلب حدائق تامارا، تلك الحدائق الغالية على قلبه والتي كانت تبدو بعيدة المنال بالنسبة إليه؛ وإذ جمع الأمور بعضها مع بعض بسرعة البرق، فقد عرف أنه زار هذا المكان برفقة مارفينكا أكثر من مرة، وأنه مرّ بهذا البيت بالتحديد حيث يوجد هو الآن والذي كان يبدو له حينذاك على شكل فيلا بيضاء اللون مع نوافذ مغلقة بالكامل وهي تلوح في أعلى التلّة من خلال أغصان الشجر... وها هو الآن يعاين المكان بنظرة فاحصة ومجتهدة، ما سهل عليه تحرير البرك المعروفة له من ستر الحلكة الليلية أو على العكس، مسح عنها الغبار الزائد للقمر لكي يجعلها شبيهة بتلك التي كانت محفوظة في ذاكرته بالتمام. وبعد أن قام بترميم اللوحة التي شوَّهها سخام الليل، شاهد كيف أن الخمائل والممرات والجداول ما زالت موزعة كما كانت في تلك الأيام الغابرة... وفي البعيد، شمخت نحو السماء

معدنية اللون ووقفت جامدة تلك الجبال الملغزة والساحرة بكامل أبّهتها في الزرقة اللامعة وفي طيات الظلام...

القمر والشرفة، هو وهي قال السيد بيير وهو يبتسم لسينسينات الذي لاحظ أنَّ الجميع ينظرون إليه بتعاطف رقيق وبترقب.

هل تستمتع بالمنظر الطبيعي للمنطقة؟ سأل المسؤول عن الحدائق وهو يقترب خلسة من سينسينات وقد شبك يديه خلف ظهره أنت... صمت للحظة وكما لو أنه شعر بالحرج وبالارتباك بعض الشيء، استدار نحو السيد بيير وقال له: عفوًا... هل تسمح لي؟ لأنه لم يتم تقديمي له بشكل مخصص...

أجاب السيد بيير بتأدّب:

تفضل، تفضل، لا داعي لأن تطلب الإذن مني ومن ثم مال إلى سينسينات وقال له هامسًا: يريد هذا السيد أن يتحدّث معك.

المنظر الطبيعي... هل تمتّع نظرك بمنظر الطبيعة؟ كرر المسؤول عن الحدائق سؤاله وهو يسعل في قبضة يده بيدَ أنه لا يمكن رؤية الكثير في هذا الوقت... يجب أن تنتظر ريثما يحل منتصف الليل هذا ما وعدني به كبير المهندسين... نيكيتا لوكيتش! يا نيكيتا لوكيتش!

أنا معه ولأجله ردّ نيكيتا لوكيتش بصوت نشط وقوي، ثم تقدّم إلى الأمام وراح يعرض خدماته بطريقة استفهامية ومرحة، وهو يدير وجهه الفتي والبدين مع شاربين كثّين أبيضي اللون تارة إلى هذا الشخص وتارة إلى الشخص الآخر، ويلقي يديه على كتفي المسؤول عن الحدائق والسيد بيير حيث كان يقف بينهما بشكل بارز.

كنت أقول، يا نيكيتا لوكيتش، كيف أنك وعدتني بأنه في منتصف الليل وعلى شرف...

بالطبع، بالطبع أجاب كبير المهندسين بشكل جازم سوف تكون ثمة مفاجأة بكل تأكيد. كونوا مطمئنين تمامًا من هذه الناحية. ولكن، كم هي الساعة الآن، أيها الشباب؟

حرر أكتاف الآخرين من ضغط يديه العريضتين وغادر إلى داخل الغرف مصحوبًا بنوع من القلق.

وهكذا، سوف نكون بعد حوالي ثماني ساعات في الساحة الرئيسية قال السيد بيير وهو يغلق غطاء ساعته من جديد. لن يكون لدينا وقت كبير للنوم. ألا تشعر بالبرد، يا حبيبي؟ لقد أعلن السيد أنه سوف تكون ثمة مفاجأة. إنهم والحق يقال، يدلّلوننا. كان
السمك الذي قدموه على العشاء لذيذًا جدًا ولا مثيل له.

كفَّ عن ذلك، توقّف دوّى صوت المسؤولة عن قطاع التعليم التي كانت تتقدم بقامة منتصبة مثل جنرال ومع تسريحة من الشعر الأشيب على شكل كعكة نحو السيد بيير بصورة مباشرة وهي تتراجع منسحبة أمام السبابة الممدود للسيد المسؤول عن الإمداد.

تي تي تي راح المسؤول عن الإمداد يصرخ بمرح تي تي تي.

هتف السيد بيير:

خذي الأمر ببساطة، يا سيدتي. إذ إنَّ الحكومة غير مسؤولة عن المسامير اللحمية عندي.

يا لها من امرأة ساحرة ألمح المسؤول عن الإمداد بلهجة لا تنمّ عن أية مشاعر، ومن ثم توجّه وهو يرقص إلى مجموعة من الرجال الذين كانوا يقفون بالقرب من العمدة فاختلط ظلّه مع ظلالهم، ثم بدأ النسيم يهز الفوانيس الورقية، فبرزت من وسط الظلام تلك اليد التي راحت ترتب الشوارب بوقار، وذلك الفنجان الذي تم رفعه إلى الشفتين العجوزتين اللتين تشبهان فمَ سمكة في محاولة لالتقاط السكّر من قعر الفنجان.

أرجو الانتباه! صرخ فجأة صاحب الدعوة وهو يجري بسرعة كبيرة بين الضيوف.

أولاً في الحديقة، ثم خلفها، ومن ثمّ على مسافة أبعد، بمحاذاة الدروب، وعبر غابة البلوط، ثم عبر الوهاد والمروج، فرادى وأزواجًا، راحت تشتعل وتتلألأ أضواء بلون الياقوت الأحمر والأزرق والتوباز، وهي تنتشر بالتدريج وتزين الليل بحبات من الخرز الملون. انطلقت آهات الدهشة من الضيوف. ملأ السيد بيير صدره بالهواء بقوة ثم أمسك سينسينات من يده. كانت الأضواء تشغل القسم الأعظم من الساحة: ها هي تمتد على طول الوادي البعيد، وها هي تتلألأ عند السفوح الأولى ومن هناك راحت تصعد التلال لتبلغ الطيات الأكثر غموضًا وسريّة، ثم تستنشق القمم وتعبر من خلالها عائدة.

ياه، كم أنَّ الأمر رائع قال السيد بيير هامسًا وهو يضغط خدّه إلى خدّ سينسينات للحظة.

صفّق الضيوف. راحت تشتعل على مدى ثلاث دقائق بضوء من مختلف الألوان أعداد هائلة من المصابيح التي وزّعت بعناية وبطريقة مدروسة في العشب وعلى الأغصان، وبحيث إنها كانت ستشكِّل مجتمعةً مع بعضها على امتداد المنظر الطبيعي حرفين كبيرين جدًّا يغطيان المكان وهما الحرف الأول П . من اسم السيد بيير والحرف Ц من الاسم سينسينات. لكن المونوغرام لم يكن ناجحًا كما يجب. ثم انطفأ كل شيء دفعة واحدة وحلّ ظلام دامس على كامل الشرفة.

عندما ظهر المهندس نيكيتا لوكيتش مرة أخرى، أحاط به الناس وأرادوا أن يقوموا بأرجحته. لكن الوقت كان قد حان للتفكير في الراحة المستحقة والضرورية. اقترح صاحب البيت قبل مغادرة الضيوف أن يتم التقاط صورة للسيد بيير مع سينسينات على خلفية الدرابزين. ومع أنَّ السيد بيير كان موضوع الصورة، راح يقود العملية بنفسه. أنارت موجة من الضوء المبهر الوجه الجانبي الأبيض لسينسينات ووجهًا من دون عين لشخص آخر كان واقفًا بجانبه. ثم قدّم صاحب البيت بنفسه المعطف لكل منهما وخرج لكي يودّعهما. راح جنود ناعسون يبحثون في المدخل عن المطارد مثيرين ضجّة كبيرة.

أنا أشعر بإطراء لا حدود له من جراء زيارتكما قال المضيف مخاطبًا سينسينات أثناء وداعهما: غدًا، بالأحرى صباح هذا اليوم، سوف أكون هناك، بكل تأكيد، وليس بصفتي الرسمية فقط، بل وبصفتي الشخصية أيضًا. لقد أخبرني ابن أخي أنه يتوقع حضور حشد كبير جدًّا من الجمهور.

هكذا، إذن، أتمنى لكما الخير قال للسيد بيير أثناء تقبيله له ثلاث مرات.

مضى سينسينات والسيد بيير برفقة الجنود في الممر الظليل بين الأشجار.

أنت على العموم شخص جيد قال السيد بيير بعد أن ابتعدا لمسافة معينة
ولكن، لماذا أنت دائمًا تبدو على هذا النحو... إنَّ حياءك يترك انطباعًا ثقيلاً
عند الآخرين الذين يتعرفون عليك لأول مرة. لا أدري، كيف الأمر بالنسبة لك
أردف قائلاً أما أنا، وعلى الرغم من إعجابي الشديد بتلك الأضواء وغير ذلك،
بيدَ أنني أعاني من حرقة في المعدة ولدي شكوك في أنه لم يكن كلّ شيء
معمولاً بالزبدة.

ساروا لمسافة طويلة. كان الليل هادئًا وضبابيًّا.

توك توك توك راحت تتردد أصوات كتيمة من الجهة اليسرى عندما كانوا
يهبطون المنحدر توك توك توك.

يا لهم من أوباش تمتم السيد بيير لقد أقسموا أنَّ كلَّ شيء جاهز.

وأخيرًا عبروا الجسر وراحوا يصعدون الجبل. كان القمر قد غاب، واتّحدت
أبراج القلعة
السميكة مع الغيوم. في الأعلى، قرب البوابة الثالثة، كان ينتظرهم رودريغ
إيفانوفيتش وهو يرتدي رداء منزليًّا وقبعة ليلة.

سألهما من دون استعجال:

كيف كان الأمر، إذن؟

لم يكن ينقصنا سواك أجاب السيد بيير بجفاء.

XVIII

«استلقيت وحسب، دون أن أنام، ولكني شعرت بالبرد، وها هو الآن الفجر (كتب سينسينات بسرعة دون أن يكتب الكلمات كاملة، فكان أشبه بعدّاء لا يترك سوى جزء من الأثر لحذائه الرياضي)، أصبح الهواء الآن شاحبًا، وأنا أشعر بقشعريرة إلى درجة أن مفهوم «البرد» المجرّد يبدو لي وكأنه يجب أن يكون له شكل جسدي، وأنهم سوف يأتون الآن من أجلي. أشعر بتأنيب ضمير لأنني أشعر بالخوف، وأنا أخاف إلى درجة فظيعة والخوف يجتاحني مع صخب هادر دون أن يتوقف للحظة واحدة، وهذا ما يجعل جسدي يرتجف مثل جسر عائم فوق شلال مائي، ولذلك يتعيّن عليَّ أن أتكلَّم بصوت مرتفع جدًّا لكي أسمع نفسي من خلال الضجيج. أشعر بتأنيب الضمير، كما أنَّ روحي ملطخة بالعار لأن ذلك كان يجب ألاّ يكون، لم يكن ينبغي أن يحصل وفقط على قشرة اللغة الروسية كان يمكن أن ينمو مثل هذا الفطر لصيغة الفعل الشرطية أواه، كم أشعر بالخجل وبتأنيب الضمير لأنهم منشغلون بي، ولأنهم يمسكون بروحي تحت الأرض، هكذا هم هؤلاء الصغار والمراهقون وقد راحوا يحشرون أنفسهم وهم مبلّلون لكي يودّعوني، كما بدأت تلح بعض الذكريات: أجلس عندما كنت طفلاً صغيرًا مع كتاب، بالقرب من المياه التي راحت تجري مسرعة مع جلبة وفي أوج الحرّ، وكان الماء يرمي ببريقه المتذبذب على الأسطر المنتظمة للأشعار القديمة، القديمة جدًّا أواه، كما يحدث على المنحدر إذ إنني أدرك أن ذلك لم يكن ضروريًّا بالإضافة إلى الخرافات! من دون ذكريات ولا خوف ولا هذا الفواق الفظيع: وخرافات كثيرة! وكم كنت آمل أنه سوف يتم ترتيب كل شيء، وأن كلّ شيء سيكون بسيطًا ونظيفًا. إذ إنني أعرف أنّ رهبة الموت وفظاعته أمر شكلي وحسب، غير مؤذٍ بل وربما مفيد وصحّي للروح عبارة عن ارتجاف ونحيب أشبه بصرخة الطفل أثناء الولادة أو رفض جازم للتخلي عن دمية ما وأنهم عاشوا ذات يوم في مغارات مع رنين دائم وأبديّ لسقوط قطرات الماء ومع نوازل، حيث كان الحكماء هناك يرحّبون بالموت، كما كانوا يتجاوزون ذلك على طريقتهم مع أنهم في معظمهم كانوا مشوّشين وفي ضلال كبير، والحق يقال ومع أنني أعرف كلّ ذلك، بل وأعرف أيضًا أمرًا آخر أساسيًا وهو الأكثر أهمية، والذي لا يعرفه أحد من هؤلاء الناس هنا ومع ذلك، لاحظوا، أيها الدمى، كيف أني خائف وكيف أن كل شيء فيَّ يرتجف ويطنُّ ويعدو بسرعة وسوف يأتون عما قريب من أجلي، ولكني لست مستعدًّا بعد، وهذا ما يجعلني أشعر بتأنيب الضمير...».

نهض سينسينات وانطلق راكضًا ثم طرق الحائط برأسه في حين أنَّ سينسينات الحقيقي ظلّ جالسًا إلى الطاولة في ردائه وهو يحدِّق في الجدار،

ويقضم طرف قلم الرصاص، وها هو، بعد أن خشخش قليلاً تحت الطاولة، يتابع الكتابة ولكن بوتيرة أقل سرعة:

«حافِظوا على هذه الأوراق لا أعرف إلى مَن أتوجّه بهذا الطلب ولكن: حافظوا على هذه الأوراق وأنا أجزم لكم أنه ثمة مثل ذلك القانون، وأنّ هذا يتفق مع القانون، يمكنكم أن تسألوا، وسوف تتأكدون! دعوا الأوراق موجودة ها هنا بماذا سيضرّكم ذلك؟ وأما أنا فأرجوكم هذه هي آخر رغبة عندي ولا يمكنكم ألاّ تحققوها لي. من الضروري بالنسبة لي أن يكون ثمة قارئ حتى ولو أنَّ مثل هذه الفرصة كانت أمرًا نظريًّا بحتًا، وفي حال لم يكن ذلك متوفرًا، فمن الأفضل تمزيقها بالفعل. هذا ما كان يتعيّن عليَّ أن أفصح عنه. أما الآن فقد حان الوقت لكي أجهِّز نفسي وأن أكون مستعدًّا».

توقف من جديد. أصبحت الزنزانة منيرة بدرجة كاملة، ما سمح لسينسينات بأن يعرف عن طريق تموضع الضوء أن الساعة سوق تدق معلنة الخامسة والنصف صباحًا. واصل الكتابة بانتظار رنين الساعة المرتقب ولكن هذه المرة بطريقة هادئة تمامًا ومتقطعة، كما لو أنه كان يهدر نفسه بالكامل في سبيل تعجّب أوّلي.

«تراوح الكلمات عندي في مكانها كتب سينسنيات إنه الحسد تجاه الشعراء. كم كان سيكون رائعًا لو أنها راحت تجري على الصفحة ومن ثم من الصفحة مباشرة، حيث لا يتابع جريها سوى الظل وحده من أجل التقاط الصورة وإلى الزرقة لاحقًا. غياب الترتيب في عملية الإعدام، ومختلف التدابير والمناورات الأخرى، قبل العملية وبعدها. يا لها من شفرة باردة جدًّا، ويا له من مقبض فأس ناعم وأملس تمامًا. عولج بورق صنفرة (جلخ). أعتقد أنّ آلام الفراق سوف تكون حمراء ومدوّية. والفكرة المكتوبة تضغط بدرجة أقل، على الرغم من أن فكرة أخرى قد تكون أشبه بورم سرطاني خبيث: تعبّر عنها، ثم تقوم باقتطاعها ولكنها تعود لتنمو من جديد وبشكل أسوأ من ذي قبل. من الصعب على المرء أن يتصوّر لنفسه أنه في هذا اليوم صباحًا، بعد ساعة أو ساعتين...»

إلاّ أنه مضت ساعتان بل وأكثر، وإذ يحمل روديون الفطور كما لو أنَّ شيئًا لم يحدث، ثم قام بتنظيف الزنزانة وشحذ قلم الرصاص، أطعم العنكبوت وحمل خارجًا سطل الفضلات. لم يسأل سينسينات ولم يستفسر عن أي شيء ولكنه بعد أن غادر روديون، وبعد أن مضى الزمن بطيئًا أكثر من اللازم، أدرك أنهم

قاموا بخداعه مرة أخرى، وأنه عبثًا أقلق روحه وأنَّ كلّ شيءٍ ظلّ مجهولاً وغير واضح، خاليًا من أي معنى تمامًا كما كان من قبل.

دقت الساعة معلنة أن الوقت هو الساعة الثالثة أو الرابعة فجرًا (كان قد أغفى قليلاً ومن ثم استيقظ نصف استيقاظ فلم يتمكن من معرفة عدد الدقات، وإنما استنتج بشكل
تقريبي المجموع الصوتي لها)، وإذ بالباب يفتح فجأة وتدخل مارفينكا. كانت مورّدة الخدين مع مشط بارز في مؤخرة رأسها، وقد ارتفع خصر فستانها المخملي الأسود والضيق وفي الوقت نفسه كان ثمة شيء ما غير صحيح في هندامها، ما جعلها تبدو وكأن لديها انحرافًا في جسدها نحو أحد الجانبين، فراحت تصحح كل ذلك وهي تشد هذا الطرف أو تهز ردفيها بسرعة كما لو أنّ شيئًا ما في أسفل مؤخرتها غير مضبوط ويسبب لها الإزعاج.

قالت لسينسينات وهي تضع باقة من الأزهار الزرقاء على المنضدة:

لقد جلبت لك أزهار القنطريون، ومن ثم رفعت في نفس الوقت طرف ثوبها عن ركبتها بمهارة ووضعت على الكرسي ساقًا ممتلئة في جورب أبيض رفيع، فشدّته حتى وصل طرفه إلى ذلك المكان الذي ترك المطاط فيه أثرًا منقوشًا على الشحم الناعم ثم أعلنت أنه كان من الصعب عليها أن تحصل على إذنٍ بالسماح لزيارته! ما اضطرها، بالطبع، لأن تقدِّم بعض التنازل في أمر ما باختصار، إنها حكاية مألوفة ومعتادة. ولكن، كيف هي حياتك هنا، يا عزيزي البائس سينسينات؟

ينبغي عليَّ أن أعترف أنني لم أكن أتوقع زيارتك قال سينسينات اجلسي في مكان ما.

حاولتُ يوم أمس وبذلت قصارى جهدي، واليوم قلت في نفسي: سوف أقوم بزيارته مهما كلف الأمر. وقد حجزني المدير لمدة ساعة كاملة لكنه، بالمناسبة، أغدق عليك المديح إلى درجة رهيبة. آه، كم كنت مستعجلة اليوم، وكم كنت خائفة من أن الوقت قد لا يسعفني. وفي الصباح كانت ثمة أحداث عجيبة غريبة تجري في الساحة «المثيرة»((72)).

لماذا قاموا بإلغاء عملية الإعدام؟ سأل سينسينات.

يقولون إنهم كانوا جميعًا متعبين، وإنهم لم ينالوا القسط الكافي من النوم. لعلمك، لم يشأ الجمهور أن يتفرق وأن يغادر الساحة.

سقطت دموع مستطيلة الشكل ومصقولة بعناية وبطريقة عجيبة على وجنتي مارفينكا، وعلى ذقنها وراحت تسيل عبر جميع التقاطيع حتى أن إحدى القطرات وصلت إلى الحفرة فوق عظم الترقوة... لكن عينيها كانتا تنظران بنفس الطريقة المستديرة وكان الإصبعان الصغيران لديها مفرودين مع بقع بيضاء صغيرة على الأظافر، ومع شفتين دقيقتين راحتا تهمسان بسرعة وتقولان شيئًا خاصًّا بهما.

يؤكد البعض أنه تمَّ تأجيل عملية الإعدام هذه المرة إلى أجل بعيد، ولكن لا يمكن معرفة الحقيقة من أيّ شخص كان. ولا يمكنك أن تتخيل حجم الإشاعات، وكم أنّ الأمر يبدو غبيًّا...

سأل سينسينات وهو يبتسم:

ولكن، لماذا تبكين؟

أنا نفسي لا أعرف، لقد أرهقتُ تمامًا... (بصوت جهوري خارج من الصدر). وقد أضجرني الجميع. إيه، سينسينات، سينسينات كم ارتبكت من حماقات!.. ماذا يقولون عنك إنه أمر فظيع! آه، اسمع بدّلت من وتيرة صوتها فجأة وابتسمت ابتسامة عريضة ثم تلمظت شفتيها وراحت تقول بنبرة لطيفة: قبل أيام متى كان ذلك؟ نعم، أول أمس جاءت إليَّ سيدة كما لو أنه ما من أمر حدث ويحدث، وكانت أشبه بالطبيبة ربما، مجهولة بالنسبة لي تمامًا، وهي ترتدي معطفًا مطريًّا فظيعًا، وبدأت تقول: هذا وذاك... والقضية تكمن في أنها... وأنت تفهمين ما أريد قوله بكل تأكيد... فقلت لها: كلا، لم أفهم شيئًا حتى الآن... فقالت: آه، نعم، أنا أعرفك ولكنك لا تعرفينني... فقلت لها... (راحت مارفينكا تقلّد المرأة التي كانت تتحدث إليها فوقعت في نبرة مضطربة وغبية، لكنها كبحت جماحها عند المقطع الممدود: قلتُ لها وراحت تنقل حديثها هي بالذات مصوِّرة نفسها على أنها كانت هادئة مثل الثلج). بعبارة أخرى، راحت تحاول إقناعي بأنها والدتك، على الرغم من أن هذا الكلام لا يتناسب حتى مع العمر، ولكنها على أية حال، راحت تؤكد لي أنها تخشى الملاحقة والاضطهاد بشكل فظيع، وكما لو أنهم قاموا بالتحقيق معها وأخضعوها لمختلف أنواع المساءلة. أما أنا فقلت لها: وما علاقتي أنا بكل ذلك، ولماذا تريدين رؤيتي، بالمناسبة؟ فأجابت: آه، كلا، بل إن الأمر هو أنني

أعرف كم أنت شخص طيب، وأنك سوف تفعلين كل ما يتطلب الأمر منك... فقلت لها عندئذ: وما الذي يجعلك، على وجه التحديد، تعتقدين بأنني إنسان طيب القلب؟ فقالت هذا وذاك، بل كلا، وإنما نعم، ثم راحت تطلب مني أن أعطيها ورقة وأن أبصم عليها بالعشرة، تفيد بأنها لم يسبق لها أن زارتنا أبدًا وأنها لم تلتق بك على الإطلاق... عندئذ أصبح الأمر، لعلمك، مضحكًا جدًّا بالنسبة لمارتا! أنا أعتقد (قالت ذلك بصوت ممدود ومنخفض) أنها امرأة معتوهة، مجنونة غالبًا، أليس كذلك؟ بكافة الأحوال، لم أعطها أي شيء. وقد قال لي فيكتور وآخرون إنّ تلك الورقة كان يمكن أن تشكل وثيقة مشهِّرة ومسيئة للسمعة ما معناه أنني أعرف على العموم كل خطوة كنت تقوم بها، طالما أنني أعرف أنك لم تلتق بها أبدًا وهكذا غادرت وهي مستاءة جدًّا، على الأرجح.

لكن تلك كانت والدتي بالفعل قال سينسينات.

ربما، ربما. في نهاية المطاف، هذا ليس بالأمر كثير الأهمية. ولكن، لماذا أنت مثير للضجر ومحبط إلى هذا الحد يا تسين تسين؟ كنت أظن أنك سوف تسعد كثيرًا بلقائي،
ولكن تبيَّن أنك...

ألقت نظرة خاطفة على السرير أولاً، ثم على الباب. ثم قالت بصوت خافت:

لا أعرف القواعد هنا. ولكن في حال كنت تريد وترغب، يا سينسينات، فأنا جاهزة، ولكن بشرط أن تفعل ذلك بسرعة.

كفّي عن ذلك. ما هذه السخافة التي تقولينها. قال سينسينات.

كما تشاء. كنت أريد أن أقدِّم لك المتعة وحسب، طالما أنَّ هذا آخر لقاء لنا وما إلى غير ذلك. آه، هل تعلم مَن ذا الذي تقدّم يطلب يدي للزواج هيا حاول أن تخمِّن؟ لن يخطر ببالك أبدًا هل تتذكر ذلك الرجل العجوز الأشمط الذي عاش لفترة من الزمن إلى جوارنا، وكان طوال الوقت يدخِّن الغليون عبر السياج ويبصبص باستمرار عندما كنت أتسلق شجرة التفاح. هل تتذكر؟ والأهم أنه جادٌّ في طلبه تمامًا! وهكذا فقد تزوجته، تزوجت ذلك الفزاعة الممزقة، اللعنة! وعلى العموم، أشعر بأنني بحاجة إلى الراحة، إلى راحة إيجابية وكاملة لأن أغمض عيني، لعلمك، وأن أتمدد وأسترخي دون أن أشغل

بالي بأي شيء أن أرتاح وأرتاح وبالتأكيد، وحيدة تمامًا أو مع شخص يمكنه أن يهتمَّ بي وأن يفهم ويقدِّر كلَّ شيء، كل شيء...

لمعت لديها من جديد رموشها القصيرة والقاسية وسالت دموع وهي تزحف متعرّجة عبر أخاديد وجنتيها المتوردتين بلون تفاحي.

التقط سينسينات قطرة من تلك الدموع وتذوّق طعمها: لم تكن مالحة ولا حلوة بل كانت بكل بساطة قطرة من مياه الزنزانة. لكن سينسينات لم يفعل ذلك قط.

صرَّ البابُ فجأة وفتح لمسافة بوصة تقريبًا، ثم استدعى مارفينكا إصبع أشقر اللون ممدود عبر الباب. اقتربت على جناح السرعة من الباب.

ماذا تريدون، فالوقت لم يحن بعد، وقد وعدتموني بأن أمكث عنده لمدة ساعة كاملة راحت تقول هامسة بلهجة مستعجلة. لكنهم اعترضوا على كلامها.

هذا مستحيل! قالت باستياء وبنبرة غاضبة. انقلوا هذا الكلام بالحرف. كان الاتفاق بأن المدير وحده...

قاطعوها؛ راحت تصغي للتمتمة التي تقال لها بإلحاح؛ أخفضت رأسها وعبست وهي تضرب الأرض بحذائها.

قالت بنبرة فظة:

حسنًا، ليكن إذن. ثم استدارت بحيوية بريئة نحو زوجها وقالت: سوف أعود بعد بضع دقائق، يا عزيزي سينسينات.

(بينما كانت غائبة، راح سينسينات يفكر أنه لم يبدأ حديثه الهام والجدي معها بعد، بل وأنه لم يستطع أن يجد التعبير المناسب عن ذلك الشيء المهم... ومع ذلك كان يشعر بألم يعتصر قلبه، وكانت تلك الذكرى تلحّ عليه وتكشِر له

في الزاوية بيدَ أنَّ الوقت حان، حان منذ أمد بعيد لكي أقلع عن هذا الأسى بالكامل...)

عادت ولكن بعد ثلاثة أرباع الساعة، وكانت هيئتها تعكس لسبب مجهول نوعًا من الازدراء والاحتقار، كانت عابسة وتبتسم هازئة؛ وضعت ساقها على الكرسي وفكّت الأربطة على جوربها الطويل ثم شدّت بطريقة حانقة الطيات عند ردفيها وجلست إلى الطاولة، كما كانت تجلس قبل قليل بالضبط تمامًا.

عبثًا قالت بصوت مسموع ومع ابتسامة هازئة ثم راحت ترتب الأزهار الزرقاء على الطاولة هيا، قل لي شيئًا ما، يا سينسينات، يا عصفوري، إذ إنك... لعلمك، أنا جمعت باقة الأزهار هذه بنفسي، فأنا لا أحب أزهار الخشخاش، أما هذه فهي أزهار جميلة جدًّا. لا تحاول طالما أنك غير قادر أضافت قائلة بشكل مفاجئ وبنبرة مختلفة، ثم راحت تنظر شزرًا لا، يا تسين تسين، أنا لا أقصدك بهذا الكلام. (تنهدت). لكن هيا، قلْ لي شيئًا ما، شيئًا ما يواسيني بعض الشيء.

هل قرأت رسالتي... بدأ سينسينات كلامه وسعل قليلاً هل قرأتِها باهتمام وكما ينبغي؟

أرجوك هتفت مارفينكا وهي تضغط على صدغيها دعنا لا نتحدث عن الرسالة!

بل سوف نتحدث قال سينسينات.

قفزت واقفة وراحت ترتب هندامها بطريقة عصبية، ثم قالت بلهجة متقطعة وهي تلثغ قليلاً، مثلما يتكلم المرء عندما يكون غاضبًا.

إنها رسالة فظيعة، وهي أقرب إلى نوع من الهذيان، وأنا بكافة الأحوال لم أفهم ويمكن الظن كما لو أنك كتبتها وأنت تجلس هنا وحيدًا مع قارورة من الخمر. لم أكن أود الحديث عن تلك الرسالة، ولكن بما أنك تطرقت إليها... ذلك أن أولئك الذين ينقلون الرسائل لا بدَّ أنهم قرأوها وقاموا بنسخها وقالوا: آها! يجب أن تكون شريكة معه، طالما أنه يكتب لها ذلك. يجب عليك أن تفهم أنني لا أريد أن أعرف أي شيء عن أفعالك، وإياك أن تحاول إرسال رسائل كهذه لي وأن تفرض جرائمك عليَّ...

لم أكتب لك أي شيء له صفة جرمية قال سينسينات.

هذا ما تعتقده أنت لكن الجميع أصيبوا بالصدمة من تلك الرسالة! قد أكون حمقاء وغبية، ولا أفهم شيئًا في مسائل القانون، إلاّ أنني أدركت بحدْسي أنَّ كلَّ كلمة غير مقبولة ومستحيلة ولا يجوز أن تقال... آه، يا سينسينات، كم هو صعب وشائك ذلك الوضع الذي تضعني فيه ومعي الأولاد، يجب عليك أن تفكِّر في الأولاد... اسمع أصغِ إليَّ ولو للحظة
واصلت حديثها بحماس كبير إلى درجة أن كلامها أصبح غير مفهوم وغير مترابط انكر كلّ شيء، يجب عليك ان تنكر كل شيء. قلْ لهم إنك بريء، وإنك بكل بساطة كنت تتعجرف، قلْ لهم ذلك وأعلن عن توبتك، افعل ذلك ليكن أنَّ ذلك لا ينجيك من الإعدام، ولكن ينبغي عليك أن تفكِّر فيَّ وأن تحميني، لأن الناس بدأوا يشيرون لي بإصبع الاتهام: تلك هي، هذه هي أرملته!

مهلاً، يا مارفينكا. لا أستطيع أن أفهم. عمَّ يجب عليَّ أن أتوب؟

هكذا، إذن، هيا اعمل على توريطي واطرح عليّ أسئلة خبيثة وماكرة... لو أنني كنت أعرف عمّا يجب عليك أن تعلن توبتك، هذا يعني أنني شريكة معك. هذا واضح تمامًا. لا، كفى ذلك، كفى. فأنا أخاف كلَّ هذا إلى درجة الموت هيا قل لي لآخر مرة: هل يعقل أنك لا تريد لأجلي، بل لأجلنا جميعًا...

وداعًا، يا مارفينكا قال سينسينات.

استغرقها التفكير وجلست متكئة على ذراعها اليمنى، بينما راحت ترسم بيدها اليسرى عالمها الخاص على الطاولة.

كم أنَّ الأمر فظيع وسيّئ، وكم هو الوضع مثير للضجر ومزعج قالت وهي تتنهد بعمق كبير. عبست وغضنت جبينها ثم رسمت نهرًا بظفر إصبعها كنت أعتقد أنّ لقاءنا سوف يجري بطريقة مغايرة تمامًا. كنت مستعدّة لأن أمنحك كل شيء، كل ما تريد. كان يجدر بك أن تحاول! وأن تسعى! ولكن، لا حيلة في الأمر. (كان النهر يصب في البحر عند حافة الطاولة). سوف أغادر مع شعور ثقيل في الروح. بلى. ولكن كيف السبيل لكي أنجو وأخرج من هذه الورطة؟ تساءلت فجأة بطريقة بريئة وحتى مرحة فقد كنت طلبت لنفسي مدّة طويلة جدًّا من الوقت.

لا تقلقي قال سينسينات كل كلمة من كلامنا... سوف يفتحون الباب حالاً.

لم يكن مخطئًا في توقعه.

ارقص، ارقص راحت مارفينكا تدمدم مهلاً، لا تشدّوني، بل اسمحوا لي أن أودّع زوجي. ارقص. في حال أنك كنت بحاجة إلى شيء ما، مثل قميص أو أي شيء آخر بلى، لقد طلب الأولاد مني أن أقبّلك بقوّة كبيرة. وهناك أمر آخر أيضًا... آه، كدتُ أنسى: لقد أخذ والدي المغرفة التي كنت قد أهديتك إياها، وقال لي كما لو أنك وعدته...

هيا، أسرعي أيتها السيدة قاطعها روديون وهو يدفعها بركبته بطريقة غير رسمية نحو الباب.

XIX

في صباح اليوم التالي جلبوا له الصحف وهذا كان يذكِّر بالأيام الأولى للاعتقال. وعلى الفور برزت صورة ملونة أمام عينيه: تحت السماء الزرقاء ساحة مكتظة بالجمهور بطريقة مبهرة، بحيث إنه لم يكن يُرى سوى الطرف البعيد من المنصة الحمراء الداكنة. كان حوالي نصف الأسطر ملطخًا في العمود المخصص لعملية الإعدام، ومن النصف المتبقي استطاع سينسينات أن يلتقط ما سبق أن نقلته له مارفينكا أن المايسترو مريض وأنه تمَّ تأجيل الإعدام ربما، لمدة طويلة.

إني أحمل ضيافة لك قال روديون ولكن ليس لسينسينات وإنما للعنكبوت.

كان يحمل في كلتا يديه وبعناية كبيرة ولكن مع نوع من القرف (كان الاهتمام يفرض عليه أن يضغط ما يحمله إلى صدره، والخوف أن يبعده عنه) منشفة ملفوفة تحتوي شيئًا ما كبيرًا يتململ ويخشخش:

أمسكت به في نافذة البرج. إنه وحش فظيع! انظر كيف أنه لا يكفّ عن الحركة، بحيث إنه من الصعب ضبطه...

كان ينوي تقريب الكرسي، كما درجت العادة أن يفعل دائمًا، لكي يقف عليه ويضع الضحية في الشبكة العنكبوتية المتينة لتكون طعامًا للعنكبوت الشره الذي كان قد نفخ حاله بعد أن شعر بوجود الفريسة لكن معضلة نشأت: أفلت روديون من دون قصد الثنية الرئيسية للمنشفة من بين أصابعه المعقوفة والحذرة، ومن ثم صرخ على الفور وانكمش بأكمله كما يصرخ وينكمش أولئك الذين يشعرون بالقرف وبالرعب لا من الخفاش وحسب بل وحتى من رؤية فأر منزلي عادي. برز من المنشفة شيء ما كبير وداكن اللون وله شوارب وعندئذ راح روديون يصرخ بأعلى صوته وهو يراوح في مكانه ويخشى أن يفلته دون أن يجرؤ على الإمساك به. سقطت المنشفة؛ أما الحيوان الأسير فقد ظلّ معلّقًا على طرف كمِّ روديون متشبثًا بجميع مخالبه الستة الدبقة.

كانت تلك مجرد فراشة ليلية بمنتهى البساطة ولكن أي فراشة! بحجم قبضة رجل، مع أجنحة صلبة على بطانة بيضاء اللون، بينما الأجنحة رمادية تميل إلى

اللون البني الغامق، وفي بعض الأماكن تبدو كما لو أنَّ الغبار رُشّ عليها، وبحيث إنَّ كل جناح كان ملونًا في وسطه ببقعة دائرية فولاذية اللون ولها شكل عين. كانت الفراشة تارة تتشبث وتارة تحرِّر قوائمها ذات المفاصل، بالبنطلون المشعث لِروديون، وهي ترفرف ببطء بشفرات أجنحتها المرتفعة، والتي كانت تُرى من خلالها من الأسفل نفس تلك البقع الفولاذية ونفس تلك الزخرفة المتموجة على النهايات الرمادية المعقوفة، ما جعل الفراشة تزحف بشكل عشوائي على كمِّ روديون الذي فقَدَ صوابه تمامًا في هذه الأثناء وراح يحاول بأي طريقة رمي الفراشة عنه ناكرًا ذراعه هو بالذات، وهو يردد: «انزعها عني! انزعها!» جاحظًا عينيه. وإذ وصلت الفراشة إلى المرفق راحت تصفق بأجنحتها بلا صوت، كما لو أن الأجنحة الثقيلة أثقلت الجسم ما جعلها تنقلب عند ثنية المرفق لتصبح الأجنحة في الجانب السفلي منها، مستمرة في تشبثها بالكم بقوّة وبات بالإمكان مشاهدة بطنها المدمج بنّي اللون مع بقع حمراء عليه، وبوزها الأبيض وعينيها اللتين تشبهان حبتي خردق سوداوين وقرني استشعار أشبه بأُذنين مدببتين.

آه، انزعها عني! راح روديون يتوسل وهو فاقد للصواب تمامًا، وبسبب حركته المسعورة انفصلت الحشرة الرائعة والجميلة، ارتطمت بالطاولة ثم وقفت عليها وهي ترتجف بقوة، ثم اندفعت عن حافتها فجأة. أما بالنسبة لي فقد كان يومك قاتمًا، لأنك خرّبت عليَّ قيلولتي عبثًا. كان تحليق الفراشة سريعًا وثقيلاً ولم يدم لفترة طويلة. التقط روديون المنشفة ومن ثم لوّح بها بطريقة متوحشة وراح يسعى لإسقاط الفراشة العمياء، لكنها اختفت بشكل مفاجئ؛ حدث ذلك كما لو أنَّ الهواء بالذات قام بامتصاصها.

بحث روديون لكنه لم يعثر عليها فوقف في منتصف الزنزانة واستدار نحو سينسينات وهو يضع يديه في خاصرتيه.

آ؟ يا للوغد! صاح بعد لحظة من الصمت المعبِّر. بصق؛ هزّ رأسه ثم تناول علبة أعواد ثقاب مع كمية كبيرة من الذباب للحالات الطارئة والتي اضطر الحيوان الخائب أن يكتفي بها. أما سينسينات فقد رأى بوضوح أين اختبأت الفراشة.

عندما غادر روديون في نهاية المطاف، وهو يشدّ في طريقه غاضبًا لحيته وشعر رأسه الأشعث، انتقل سينسينات من السرير إلى الطاولة. شعر بالندم لأنه استعجل في تسليم كافة الكتب ولذلك جلس وبدأ بالكتابة لأنه لم يكن ثمة شيء آخر ليفعله.

«اتفق أن حدث كل شيء بالشكل المطلوب ومعًا كتب أي أن الكل مارس الخداع كل ذلك العمل المسرحي والتافه وعود شقائق النعمان، والنظرة الرطبة للأمِّ، ذلك الطرْق خلف الحائط وحسن النوايا عند الجار، وأخيرًا تلك التلال التي تغطّت بطفح قاتل... كل شيء كان مخاتلاً ومخادعًا، وكل شيء اتفق أن حدث في وقت واحد. كل شيء. ها هو الطريق المسدود للحياة هنا ولم يكن يجب البحث عن النجاة ضمن حدودها الضيقة. إنه لأمر غريب أنني كنت أبحث عن النجاة. تمامًا مثل إنسان راح يندب حظه ويشكو كما لو أنه أضاع قبل بعض الوقت أثناء نومه شيئًا لم يكن موجودًا لديه في واقع الأمر في أي يوم من الأيام، أو أنه كان يأمل بأنه سوف يحلم بالعثور عليه في يوم غد. بهذه الطريقة يتم
إنشاء الرياضيات: لديها عيبها الخاص القاتل. وقد اكتشفته. لقد اكتشفت الثقب في الحياة. هناك، حيث انكسرت وتحطمت، حيث جرى لحامها ذات يوم مع شيء ما آخر، حيٍّ وهامٍّ وهائل بصورة حقيقية وما حاجتي إلى الألقاب كبيرة الحجم لكي أقوم بملئها بمعنى من الكريستال... من الأفضل ألاّ أفصح عنها بشكل كامل، وإلاّ فإنني سوف أتشوّش وسوف يختلط الأمر عليَّ من جديد. لقد بدأ العفن في ذلك الثقب غير القابل للتصحيح أواه، يبدو لي أنني سوف أفصح عن كلِّ شيء عن الأحلام وعن الاتصال والانفصال كلا، سقط سهوًا مرة أخرى لدي الجزء الأفضل من الكلمات بشأن الفرار وعدم الاستجابة للبوق، بينما الآخرون معاقون، مصابون بالشلل. آه، لو كنتُ أعرف أنني سأبقى هنا لمثل هذه المدة الطويلة، كنت بدأت من أبسط المعلومات البدائية، وكنت سأصل بالتدريج بواسطة الطريق المباشر لمفاهيم الاتصال، كما كنت سأصل إلى النتيجة الختامية، ولكانت روحي عندئذ تعززت واغتنت بالكلمات... كل ما كتبته أنا حتى هذه اللحظة ليس سوى زبد لاضطرابي، مجرّد حماس فارغ لأنني كنت مستعجلاً جدًّا على وجه التحديد. أما الآن، وبعد أن اكتسبت تجربة وأصبحتُ صلبًا، حيث لم يعد يخيفني تقريبًا...»

انتهت هنا الصفحة، فانتبه سينسينات إلى أن الورقة امتلأت. ولكنه عثر، بالمناسبة، على ورقة أخرى.

«... الموت» كتب عليها مواصلاً العبارة لكنه حذف هذه الكلمة على الفور؛ وحلّت محلها كلمة أخرى، أكثر دقة: الإعدام، غالبًا، والألم والفراق مثل ذلك بطريقة ما: استغرق في التفكير وهو يلعب بقلم الرصاص الذي أصبح صغيرًا مثل قزم، وإذ بزغب بنّي اللون يلتصق إلى حافة الطاولة، هناك حيث كانت الفراشة ترفرف قبل لحظات، فما كان من سينسينات الذي تذكّرها إلاّ أن ابتعد عن الطاولة تاركًا عليها الورقة البيضاء مع كلمة وحيدة بل ومحذوفة ثم جلس (متظاهرًا بأنه يقوم بتسوية كعب الخف) بالقرب من السرير الذي

كانت تجلس على قائمته المعدنية، في أسفلها تمامًا، وكانت نائمة فاردةً أجنحتها المبصرة في حالة من الذهول المظفر والمنيع، لكن ظهرها الوبري كان مثيرًا للشفقة لأن الزغب كان قد انمحى في مكان ما منه، ما أدى إلى ظهور بقعة قرعاء صغيرة ولامعة، بلون الجوز الأخضر لكن الأجنحة الكبيرة والداكنة مع الزغب رمادي اللون عليها والأعين المفتوحة دائمًا كانت كاملة وغير منتهكة البتة كانت الأجنحة العلوية التي انخفضت قليلاً، تستند على السفلية، وفي هذا الانحناء كان يكمن نوع من العجز الناعس، لو لم تكن هناك تلك الاستقامة الصلبة للحواف الأمامية وذلك التناسق الكامل في كافة الملامح المتنافرة والتي كانت آسرة وجذابة جدًّا، إلى درجة أنَّ سينسينات لم يطق صبرًا وقام بتمرير طرف إصبعه على الضلع الرمادي للجناح الأيمن عند الجذر منه، ومن ثم على ضلع الجناح الأيسر (يا للصلابة اللطيفة! ويا للنعومة غير المرنة قط!) لكن الفراشة لم تستيقظ، فاستقام وبعد أن زفر زفرة خفيفة، ابتعد كان يريد أن يجلس إلى الطاولة من جديد، وإذ بالمفتاح يقرقع ويفتح الباب مع أصوات مدوية وهادرة وفق جميع قواعد فن الأصوات في السجن. مدَّ رأسه في البداية ثم دخل بكامل قامته السيد بيير ذو الوجه الموَّرد، في بدلته الخاصة بالصيد بلون البازلاء، وكان يتبعه شخصان لم يكن ممكنًا على الفور تحديد شخصية كل منهما على أنهما المدير والمحامي: كانا شاحبَين ومنهكَين بلون الموتى، وكان كلاهما يرتدي قميصًا رمادي اللون ويلف كلٌّ منهما قدميه بقطعتي قماش بدلاً من الحذاء من دون أي مساحيق وبلا حشوة ولا شعر مستار، بأعين دامعة، ومع جسد نحيل ضامر يبرز من خلال الثوب الممزق بشكل صريح وقد بدا كل منهما شبيهًا بالآخر تمامًا، فكانا يديران في نفس الوقت رأسيهما الصغيرين المحمولين على عنقين نحيلين، رأسين أصلعين وشاحبين، مع نتوءات عليها شعر أزرق قليلاً ومحدد بشكل نقطي من الجانبين ومع أذنين متدلّيتَين.

انحنى السيد بيير الذي كانت وجنتاه متوردتَين بشكل جميل وضمَّ قدميه في حذاء لامع ثم قال بصوت ناعم ومثير للضحك:

تفضلوا، العربة جاهزة.

إلى أين؟ سأل سينسينات الذي لم يفهم بالفعل على الفور والذي كان واثقًا أن الأمر سوف يتمّ عند الفجر.

إلى أين، إلى أين... راح السيد بيير يقلّده بقصد الإزعاج إنه معروف إلى أين. لكي نقوم بعلمية الإعدام.

ولكن ليس في هذه اللحظة بالتحديد قال سينسينات وقد شعر بالدهشة لكلامه هو بالذات فأنا لم أجهِّز نفسي بالشكل الكافي... (هل هذا أنت، يا سينسينات؟)

كلا، بل في هذه اللحظة بالتحديد. عذرًا يا صديقي، كان لديك ثلاثة أسابيع لكي تستعد للأمر. وأنا أعتقد أنَّ المدة كافية. ها هما مساعداي، رودا وروما((73))، وأرجو منك أن تعاملهما بمودّة وباحترام. قد يبدو مظهرهما رثًّا، لكنهما مخلصان في عملهما.

يسعدنا أن نعمل بجد وباجتهاد صاح الرجلان.

كدت أنسى واصل السيد بيير كلامه يحق لك حسب القانون أعطني اللائحة، يا روما، يا عزيزي.

سارع رومان بشكل مبالغ فيه وأخرج قطعة مطوية من الورق المقوى مع علامة الحِداد على حافتها من تحت بطانة قبعته؛ وبينما كان يُخرج الورقة، راح رودريغ يجس جانبيه
بطريقة ميكانيكية، كما أنه دس يده في عبّه دون أن يشيح نظرته عديمة المعنى عن رفيقه.

قال السيد بيير:

يوجد هنا وبشكل مبسّط قائمة جاهزة بالرغبات الأخيرة. يمكنك أن تختار رغبة واحدة فقط لا غير. سوف أقرأها بصوت عال: وهكذا: كأس من النبيذ؛ أو قضاء بعض الوقت في التواليت؛ أو مشاهدة سريعة لمجموعة البطاقات البريدية الخاصة بالسجن؛ أو... ما هذا هنا... كتابة رسالة موجهة إلى المديرية مع التعبير فيها عن... التعبير عن الشكر على العناية والاهتمام... أما هذا، وأرجو المعذرة، فقد أضفته أنت، أيها اللعين رودريغ. أنا لا أفهم مَن ذا الذي طلب منك ذلك؟ هذه وثيقة رسمية! وهذا أمر شائن ويثير الاستياء والسخط بالنسبة لي عندما أكون دقيقًا جدًّا بخصوص القوانين، وانا أسعى جاهدًا...

خبط السيد بيير بقطعة الورق المقوى على الأرض بكامل عزمه، فسارع روديون والتقطها عن الأرض، ثم قام بمسحها وهو يتمتم مع شعور بالذنب:

لا داعي لأن تقلق... لم أكن أنا مَن فعل ذلك، بل هذا روما كان يريد أن يمزح... فأنا أعرف القوانين والأنظمة. وكل شيء هنا صحيح... مجرّد رغبات وفق الحاجة. بل ويمكن طلب ذلك خصيصًا...

هذا أمر مشين! لا يطاق! راح السيد بيير يصرخ وهو يمشي في الزنزانة أنا متوعك صحيًّا، ولكني أقوم بواجبي. إنهم يقدّمون لي سمكًا فاسدًا، ويدفعون إليّ بعاهرة لا على التعيين، كما أنهم يعاملونني بوقاحة بكل بساطة ومن ثم يطلبون مني أن أقوم بعملي على أكمل وجه. كلا! كفى! لقد تجرعت كأس الصبر حتى الثمالة! أنا ببساطة أرفض ذلك هيا افعلوا بأنفسكم، هيا قطّعوا وهشّموا وحلّوا مشاكلكم كما تريدون وحسب قدرتكم، وهيا اكسروا أداتي...

الجمهور يهذي بك قال روديون المتملق ونحن نرجوك أن تهدأ، أيها المايسترو. وفي حال أنَّ شيئًا ما لا يعجبك، فإنه نتيجة لنوع من عدم التقدير والحماقة، وتلك الغباوة المفرطة في أداء العمل والواجب ليس إلاَّ! سامحنا. لا يمكن لمحبوب النساء والمعشوق من قبل الجميع إلاّ أن يستبدل التعبير الغاضب على وجهه بتلك الابتسامة التي اعتاد أن يعرضها بالعقل...

كفى، كفى، أيها الثرثار تمتم السيد بيير وقد خفّت شدّة غضبه فأنا على أية حال أقوم بواجبي بطريقة أكثر إخلاصًا وصدقًا مما يفعل البعض الآخر. حسنًا، سوف أسامحكما. ومع ذلك يجب أن نجد حلاًّ لهذه الرغبة اللعينة. ماذا اخترت، في نهاية الأمر؟ سأل سينسينات (الذي كان يجلس صامتًا على السرير). هيا، بسرعة، بسرعة. أريد في نهاية المطاف أن أنتهي من هذه القضية، أما أصحاب الأعصاب الضعيفة فدعهم لا يشاهدون....

أن أكمل كتابة شيء ما قال سينسنيات بصوت خافت مع نبرة استفهام، لكنه انكمش وأجهد فكره وفجأة أدرك أنه في حقيقة الأمر كتب كل ما كان يريد أن يكتب.

لا أفهم ما الذي يقوله قال السيد بيير لعل هناك مَن يفهم، أما أنا فلا أفهم ما يقول.

رفع سينسينات رأسه:

إليك الأمر أعلن بصوت واضح أطلب منكم ثلاث دقائق اخرجوا جميعًا أثناء ذلك أو اصمتوا على الأقل أجل، ثلاث دقائق استراحة بعد ذلك سوف أقوم، كما ينبغي، بمتابعة هذه المسرحية السخيفة معكم.

سوف نتفق على دقيقتين ونصف قال السيد بيير وهو يُخرج ساعة سميكة ألا تتنازل لنا، أيها الأخ، عن نصف دقيقة؟ ألا تريد ذلك؟ هيا، اقتنص إذن أنا موافق.

ثم استند إلى الحائط في وضعية مريحة له؛ كما قام بتقليده كل من رومان ورودريغ، لكن ساق رودريغ انثنت تحته وكاد يسقط لذلك راح ينظر إلى المايسترو مع ذعر.

صه، أيها الهرّ اللعين صرخ بوجهه السيد بيير وعلى العموم، ما لكما أخذتما راحتكما هنا؟ هيا، اخرجا أيديكما من جيوبكما! وانتبها إليَّ... (راح يهدر وهو يجلس على الكرسي). هناك عمل لك يا رودكا يمكنك أن تبدأ على مهل بتنظيف الغرفة؛ ولكن من دون ضجيج زائد.

جلبوا المكنسة وأعطوها لرودريغ عند الباب، وشرع في العمل.

قبل كل شيء، قام بخلع الشبك من عمق النافذة بضربة من نهاية المكنسة؛ تردد صوت تهليل بعيد وضعيف كما لو أنه قادم من هاوية سحيقة واندفع إلى داخل الزنزانة هواء طازج ونقي ما جعل الأوراق تطير عن الطاولة، فقام رودريغ برميها في الزاوية. ومن ثم قام بنفس المكنسة بانتزاع الشبكة العنكبوتية الثخينة رمادية اللون ومعها العنكبوت ذاته، الذي كان يعتني به كثيرًا في السابق. انشغل رومان بذلك العنكبوت لعدم وجود ما يشغل نفسه به. كان العنكبوت مصمَّمًا بشكل فظ ولكن بطريقة مسلّية، بحيث إنه كان يتكوَّن من جسم مسطح ومستدير، مع أرجل مرتعشة تشبه النوابض، ومع شريط مطاطي طويل يمتد من وسط الظهر حيث كان رومان يمسك به معلّقًا من طرف ذلك الشريط وهو يحرّك يده نحو الأعلى والأسفل، بحيث إن الشريط المطاطي كان يتقلص تارة وتارة يتمدد، مما جعل العنكبوت يسافر في الهواء، تارة نحو الأعلى وتارة نحو الأسفل. ألقى السيد بيير خلسة نظرة خزفية على الدمية، فرفع رومان حاجبيه وقام بدس العنكبوت في جيبه

بسرعة. كان رودريغ في هذه الأثناء يريد فتح دُرج الطاولة فضغط عليه ودفعه بقوة ما
أدى إلى تحطّم الطاولة إلى نصفين. كما أصدر الكرسي الذي كان يجلس عليه السيد بيير صوتًا شاكيًا وتداعى شيء ما فيه ما جعل السيد بيير على وشك أن يفلت الساعة من يده. ثم سقطت نثرات من السقف. وامتد الصدع ليشمل الحائط. راحت الزنزانة التي لم تعد ضرورية تتداعى وتنهار بشكل واضح وصريح.

... ثمانية وخمسون، تسعة وخمسون، ستون راح السيد بيير يواصل العدّ انتهى. تفضل، انهض. الطقس في الخارج رائع وجميل جدًّا، ولذلك ستكون الرحلة ممتعة جدًّا. لو كان شخص آخر مكانك لكان استعجل الأمر هو بنفسه.

لحظة أخرى بعد. أنا نفسي أشعر بأنه من المضحك أن ترتجف يداي إلى هذه الدرجة المعيبة. لكني لا أستطيع السيطرة على ذلك أو إخفاءه بلى، إنهما ترتجفان ونقطة على السطر. لقد قمتم بتخريب أوراقي، وأزلتم الأوساخ، سوف تطير الفراشة الليلية عبر النافذة المتحطمة لذلك لن يبقى شيء من آثاري بين هذه الجدران الأربعة التي أصبحت على وشك أن تتداعى وتنهار نهائيًّا. لكن الغبار والنسيان هنا لم يعودا يشكلان شيئًا مهمًّا بالنسبة لي، ولم أعد أشعر إلاّ بشيء واحد فقط بالخوف، بالرعب المخزي والعبثي وعديم الجدوى...

في حقيقة الأمر لم يقل سينسينات شيئًا من كلِّ ذلك، بل راح يغيِّر حذاءه بصمت. كانت العروق منتفخة على جبينه، وكانت خصلات شعره الشقراء تسقط عليها، أما القميص فكان مع ياقة مفتوحة ومزخرفة بشكل واسع أضفت مسحة من الشباب والفتوّة غير العادية على عنقه، وعلى وجهه الذي تورّد مع شاربين شقراوين مرتجفين.

هيا بنا، حان الوقت لكي نذهب! صاح السيد بيير.

مشى سينسينات وهو يحاول ألاّ يلمس شيئًا أو أحدًا، كما لو على جليد مكشوف ومنحدر بشكل متدرج، وخرج أخيرًا من الزنزانة التي لم تعد موجودة على أرض الواقع.

XX

قادوا سينسينات عبر ممرات حجرية. كان الصدى المسعور يقفز تارة في الأمام وتارة في الخلف كانت مخابئه تتداعى وتنهار. كثيرًا ما كانوا يصادفون في طريقهم أماكن مظلمة وذلك بسبب احتراق المصابيح. راح السيد بيير يطالب بأن يسيروا جنبًا إلى جنب.

ها هي مجموعة من الجنود تنضم إليهم وهم يضعون أقنعة كلبية الشكل كما كانت الأنظمة تطالب بذلك. وعندئذ تقدّم كل من رودريغ ورومان إلى المقدمة بعد أن أعطى السيد بيير موافقته على ذلك حيث راحا يسيران بخطوات كبيرة وعريضة وهما يلوّحان بأياديهما بطريقة عملية ويسابق واحدهما الآخر، ثم اختفيا خلف المنعطف وهما يصيحان.

كان يسند سينسينات الذي فقَدَ، للأسف، عادة المشي فجأة كل من السيد بيير وأحد الجنود الذي كان له بوز كلب سلوقي. صعدوا لفترة طويلة أدراجًا كان هذا يعني أنَّ القلعة تعرضت لهزة خفيفة، لأن السلالم النازلة كانت، على نحو خاص، تتجه صعودًا وبالعكس. ومن جديد بدأت ممرات طويلة ولكنها هذه المرة كانت مع علامات حياة واضحة أكثر فيها، أي أنها كانت تكشف بشكل جلي إمّا عن طريق المشمع المخصص لفرش الأرضية، وإما عن طريق ورق الجدران أو من خلال صندوق خاص بالسفر مركون قرب الحائط أنها تجاور غرفًا ومباني آهلة بالناس. حتى أنَّ أحد المنعطفات كان يفوح برائحة الملفوف. بعد ذلك عبروا بالقرب من باب زجاجي كان مكتوبًا عليه: «السكرتاريا»، ثم وجدوا أنفسهم بعد مرحلة جديدة من العتمة فجأة في فناء مليء بالضوضاء بسبب شمس الظهيرة.

لم يكن سينسينات يشغل نفسه طوال هذه الرحلة سوى بالسعي من أجل السيطرة والتغلب على خوفه الخانق والمندفع والذي لم يشأ أن ينصاع لأي شيء. كان يدرك أنَّ خوفه هذا يدفع به بشكل خاص إلى دوامة المنطق الخاطئ للأشياء، المنطق الذي نشأ وتبلور من حوله بالتدريج والذي كان قد خُيّل إليه أن نجح في الخروج منه منذ ذلك الصباح. كان مجرد التفكير أن ذلك الصياد المستدير والمورّد سوف يقوم بتقطيعه، يشكل نقطة ضعف لا تغتفَر عنده، دفعت سينسينات بطريقة مثيرة للاشمئزاز إلى نظام كارثي بالنسبة له. كان يدرك مجمل ذلك بصورة كاملة وجيدة، ولكنه كإنسان غير قادر أن يكبح نفسه وأن يمتنع عن الاعتراض على هلوساته، مع أنه يدرك بشكل رائع

أنَّ الحفلة التنكرية برمّتها إنما تحصل في دماغه هو بالذات وقد سعى سينسينات من دون جدوى لمجادلة خوفه على الرغم من أنه كان يعرف من حيث الجوهر، أنه ينبغي عليه أن يفرح وحسب لتلك الصحوة التي راح يشعر باقترابها من خلال بعض الظواهر الصغيرة والخفية، وفي بصمة خاصة ومميزة على ما يخص الحياة، وفي عيب ما لكلِّ ما هو ملموس وموجود بيدَ أنَّ الشمس كانت ما تزال أقرب للحقيقة، والعالم كان ما يزال قائمًا، كما أن الأشياء كانت ما تزال تلتزم باللباقة الشكلية.

كانت العربة تنتظر قرب البوابة الثالثة. لم يمض الجنود أبعد من ذلك، بل جلسوا على جذوع الأخشاب المرمية قرب الحائط وراحوا ينزعون أقنعتهم المصنوعة من القماش. وقف العاملون في البوابة ومعهم عائلات الحراس مرعوبين والتصقوا بالحائط ركض الأطفال الحفاة إلى الخارج وراحوا ينظرون عبر الجهاز ومن ثم عادوا على الفور كانت أمهاتهم في مناديلهن يصرخن عليهم، وكانت أشعة الشمس الحارقة تلقي بنورها الذهبي على التبن المتناثر؛ فاحت رائحة نبات القراص المسخّنة، بينما كانت مجموعة من الإوز تحتشد في جانب وهي تصيح بصوت مكتوم.

هيا بنا، دعنا ننطلق قال السيد بيير بنبرة نشطة ثم وضع على رأسه القبعة بلون البازلاء ومع ريشة طائر الدراج فيها.

كان يجر العربة القديمة المتهالكة التي مالت إلى جانب مع صرير عندما وضع السيد بيير الرياضي قدمه على درجة الصعود، حصان كستنائي اللون مع ذيل أسود مع تكشيرة، ومع سحجات لامعة وسوداء بسبب الذباب الكثير على النتوءات الحادة من الأرداف، وكان الحصان نحيلاً جدًّا ومع أضلاع بارزة بحيث إن الجسم منه بدا وكأنه محاط بالعرض بصف من الأطواق. كان ثمة شريط أحمر اللون مربوط إلى بدّة الحصان. أفسح السيد بيير مكانًا لسينسينات وسأله ما إذا كانت تزعجه العلبة الضخمة التي تم وضعها بين الأقدام.

اعمل جهدك، يا صديقي، لكي لا تدوس عليها. أردف السيد بيير. جلس كل من رودريغ ورومان في مكان الحوذي. راح رودريغ الذي كان يقوم بدور الحوذي بضرب الحصان بسوط طويل، فارتجف الحصان ولكنه لم يتمكن من الانطلاق على الفور بل انخفض من الخلف. دوى هتاف «أورا» في لحظة غير مناسبة من قبل الموظفين. نهض رودريغ قليلاً وانحنى نحو الأمام ثم ساط الحصان على بوزه وعندما انطلقت العربة أخيرًا وهي تهتز وتتأرجح، سقط رودريغ من جراء الدفعة على ظهره في المقعد وهو يشد اللجام ويكرر «هيا تقدّم!».

على مهل، على مهل قال السيد بيير وهو يبتسم ويمدّ جسمه ويلامس ظهر رودريغ بلطف بيده في قفاز أنيق ومهندم.

كان الدرب الباهت يلتفّ عدة مرات من حول قاعدة القلعة مع منظر طبيعي بائس وفقير. كان المنحدر حادًّا في بعض الأماكن، وعندئذ كان رودريغ يدير بسرعة ذراع المكابح الذي يصدر صريرًا قويًّا. أما السيد بيير فكان يتكئ بيديه على مقبض عكازه، وقد راح
يتأمل بمرح السفوح الصخرية والمروج الخضراء فيما بينها، ونبات البرسيم وكروم العنب، ودوامات الغبار الأبيض، وفي الوقت نفسه كان يداعب بنظراته المنظر الجانبي لسينسينات الذي كان ما زال يكافح. كانت الظهور النحيلة والرمادية المنحنية للجالسين على مقعد الحوذي متشابهة تمامًا. راحت الحوافر تخبط وتخبط. وكان ذباب الخيل يدور ويدور مثل أقمار صناعية. كانت العربة تتجاوز في بعض الأحيان موكب الحجاج المستعجلين (طباخ السجن، على سبيل المثال، مع زوجته) الذين توقفوا وراحوا يحمون وجوههم من أشعة الشمس والغبار، ومن ثم قاموا وانطلقوا بسرعة أكبر. ها هو منعطف آخر في الطريق وإذ بالعربة تصل إلى الجسر بصعوبة، متحررين بشكل كامل ونهائي من القلعة التي كانت تدور ببطء (والتي أصبحت في وضع سيّئ جدًّا، بحيث إنَّ مخططها العام بات مضطربًا وكان ثمة شيء ما يتأرجح فيها...).

يؤسفني أنني حنقتُ إلى ذلك الحد قال السيد بيير برقّة لا تغضب عليَّ، يا عزيزي. أنت نفسك تدرك، كم يثير الاستياء عدم اهتمام الآخرين عندما تقوم أنت ببذل كل طاقتك في سبيل إنجاح العمل.

عبرت العربة الجسر مع قرقعة. كان النبأ بخصوص عملية الإعدام بدأ بالانتشار في المدينة للتو فقط. راح أولاد في ثياب حمراء وزرقاء يجرون خلف العربة. قام المجنون المتوهم، وهو عجوز يهودي ما زال منذ سنوات طويلة يصطاد سمكًا غير موجود في نهر جاف لا ماء فيه، بجمع أشيائه وانضم على عجل إلى المجموعة الأولى من سكان المدينة الذين انطلقوا قاصدين الساحة المثيرة.

... لا يستحق الأمر أن نعود لنتذكره راح السيد بيير يقول فالأشخاص ممن لديهم نفس طباعي يمتازون بأنهم سريعو الغضب، ولكنهم ذوو بديهة سريعة. دعنا نركز اهتمامنا على سلوك الجنس اللطيف.

كان ثمة عدد من الفتيات من دون قبعات، مسرعات وصاخبات، قد اشترينَ جميع الزهور من بائعة الأزهار البدينة ذات الصدر الأسمر، وقد نجحت الفتاة الأكثر حذاقة من بينهن في إلقاء باقة الزهور على العربة، بحيث إنها كادت تُسقِط القبعة عن رأس رومان. فما كان من السيد بيير إلاّ أن هدّدها بإشارة من إصبعه.

استطاع الحصان الذي كان ينظر شزرًا بعينه العكرة إلى مجموعة من الكلاب المسطحة والمرقطة التي كانت تزحف قرب حوافره، أن يصعد بمشقة الطريق الدائري الصاعد، ولحق الحشد بالموكب هنا وإذ بباقة أخرى من الزهور تصطدم بصندوق العربة من الخلف. ولكن ها هم ينعطفون إلى اليمين عبر شارع ماتيوخينسكايا، بمحاذاة الأنقاض الضخمة لمصنع قديم، ومن ثم عبر شارع تلغرافنايا الذي كان مليئًا بأصوات الآلات الموسيقية التي يقومون بضبطها وبعد ذلك عبر زقاق غير مرصوف ومخشخش، ثم بمحاذاة الحديقة حيث نهض عن المقعد رجلان في زي مدني وملتحيان بعد أن شاهدا العربة، ثم راحا يقومان بحركات قوية وذات مغزى وهما يشيران بعضهما لبعض إلى العربة كانا مُثارَين إلى درجة كبيرة ولهما أكتاف مربوعة لينطلقا في الركض وهما يرفعان رجليهما عاليًا جدًّا وبطريقة منحرفة متجهَين إلى نفس المكان الذي كان الجميع يقصده. كان ثمة تمثال أبيض اللون موجود خارج الحديقة وقد تمَّ شطره إلى نصفين كانت الصحف قد كتبت أن ذلك حدث من جراء صاعقة.

سوف نمر الآن بمحاذاة بيتك. قال السيد بيير بصوت خافت جدًّا.

تململ رومان في مقعد الحوذي، ثم استدار إلى الوراء، نحو سينسينات وصرخ:

سوف نعبر حالاً بمحاذاة بيتكم ومن ثم أدار وجهه إلى الأمام على الفور وهو يقفز مثل صبي من فرط سروره.

لم يشأ سينسينات أن ينظر، لكنه مع ذلك تطلع نحو البيت. كانت مارفينكا جالسة على غصن شجرة تفاح عقيمة، فلوّحت لهم بمنديلها، وأما في الحديقة المجاورة وسط عباد الشمس والخبيزة، فقد لوَّحتْ بكمِّها فزاعة مع قبعة أسطوانية الشكل ومهشمة. كان حائط البيت، لا سيما هناك حيث كانت ظلال

الأغصان تتلاعب فيما مضى، متقشِّرًا، كما كان جزء من السقف... اجتازوا البيت.

ومع ذلك أنت شخص ذو قلب قاس قال السيد بيير وزفر ثم غزَّ مع نوع من الضيق رأس عكازه في ظهر الحوذي الذي نهض قليلاً ونجح في تحقيق معجزة عن طريق الضربات القوية بالسوط: انطلق الحصان يعدو سريعًا.

كانوا الآن يعبرون المنتزه. راح الاضطراب يتصاعد في المدينة. بدأت واجهات البيوت المختلفة من حيث الألوان، تتمايل وتخفق بعد أن قاموا بتزيينها على عجل بلافتات الترحيب. كان ثمة بيت صغير مزخرفًا بطريقة خاصة وعلى نحو مميز: فتح الباب فيه بسرعة وطلّ منه فتى خرجت الأسرة بأكملها في وداعه لأنه كان قد بلغ في ذلك اليوم بالتحديد سن البلوغ الذي يسمح له بالحضور، كانت أمُّه تضحك وقد طفحت عيناها بالدموع، أما جدّته فكانت تدس له رزمة ما في حقيبته، بينما كان أخوه الصغير يناوله العكاز. احتشد المصورون على جسور حجرية صغيرة كانت تقوم فوق الشوارع (كانت تقوم يومًا ما بدور حبل نجاة بالنسبة للمشاة، وأما الآن فقد تحولت إلى مجرّد مكان يتسكع فيه العاطلون عن العمل والمسؤولون عن الشوارع). رفع السيد بيير قبعته مرحّبًا بهم. راح شبان متأنقون يركبون عربات جر سريعة براقة يتجاوزون العربة ويلقون النظر إلى داخلها.
خرج راكضًا من المقهى شخص ما في سروال عريض أحمر وهو يحمل سطلاً من قصاصات الورق الملون، ولكنه أخطأ الهدف فصدم بالمكنسة الملونة رجلاً كان قادمًا على عجل من الجهة المقابلة من الرصيف وقد قُصَّ شعره على شكل هلال ويحمل طبقًا مع الخبز والملح.

لم يبقَ شيء من تمثال الكابتن الناعس [سونّي] سوى قائمتين حتى مستوى الفخذ وكانتا محاطتين بالورود من الواضح أن التمثال أيضًا تعرّض لضربة الصاعقة. وفي مكان ما في المقدمة كانت فرقة نحاسية تعزف موسيقى «العزيز». كانت السماء مليئة بسحب بيضاء تتحرك على شكل دفقات في جميع الاتجاهات أعتقد أنها كانت تكرر نفسها، وأعتقد أنه يوجد منها ثلاثة أنواع فقط، وأعتقد أنَّ كلّ ذلك كان بطريقة شبكية ومع اخضرار مثير للريبة...

لا، لا تقم بأي حماقة، من فضلك قال السيد بيير إياك أن تدخل في حالة غيبوبة. هذا لا يليق بالرجل.

وأخيرًا وصلوا. لم يكن الجمهور كثير العدد نسبيًّا بعد، لكن الناس راحوا يتدفقون بلا توقف. كانت منصة الإعدام ترتفع في وسط الساحة بل كلا، إنما في مركزها تمامًا وهذا بالتحديد ما كان يثير الاشمئزاز. وعلى مسافة بعيدة نوعًا ما كانت تقف بتواضع عربة حكومية مكشوفة ذات محرك كهربائي. كان يقوم بالإشراف على الانضباط في الساحة فصيل مختلط من موظفي التلغراف ورجال الإطفاء. أما الفرقة النحاسية فكانت تعزف كما يبدو بكامل طاقتها وقد راح قائد الأوركسترا وهو رجل معوّق بساق واحدة، يلوِّح بحماس، إلاّ أنه لم يكن مسموعًا أي صوت في تلك الأثناء.

خرج السيد بيير العريض المنكبين من العربة وعلى الفور استدار نحو سينسينات يريد مساعدته في الخروج، لكن سينسينات خرج من الجهة الأخرى. انطلقت همهمة بين الجمهور.

قفز كل من رودريغ ورومان من مقعد الحوذي؛ ثم أحاط الثلاثة بسينسينات من كافة الجهات.

قال سينسينات:

أنا بنفسي.

كانت المسافة حتى منصة الإعدام حوالي عشرين خطوة، ولكيلا يقوم أحد بلمسه على الإطلاق كان سينسينات مضطرًا لأن يقطع تلك المسافة جريًا. راح كلب ينبح بين الجمهور. وإذ بلغ سينسينات الدرجات ذات اللون الأحمر الفاقع توقف عندها. أمسك به السيد بيير من مرفقه.

فقال سينسينات:

أنا من تلقاء نفسي.

صعد إلى المنصة حيث كانت توجد المقصلة عمليًّا، أي تلك الجزلة الثقيلة من خشب السنديان المنحدرة والملساء، وبحجم كبير يكفي لأن يتمدد المرء عليها بمنتهى الراحة وأن يمدَّ ذراعيه على طولهما. صعد السيد بيير أيضًا إلى المنصة. راح الجمهور يهدر.

بينما كان العمال مشغولين بنقل السطول وينثرون نشارة الخشب، استند سينسينات الذي لم يجد ما ينبغي عليه أن يفعله، إلى الدرابزين الخشبي ولكنه وقد أحسَّ بأنه يتحرك مع ارتجاف صغير، وأنَّ ثمة أشخاصًا في الأسفل يلمسون كاحليه مع نوع من الفضول، فقد ابتعد ومن ثم راح يلهث قليلاً ويتلمظ وهو يشبك يديه على صدره بطريقة خرقاء، كما لو أنه يشبكهما على هذا النحو لأول مرة، وبدأ ينظر إلى ما حوله. حدث أمر طارئ مع الإنارة لم يكن وضع الشمس ملائمًا، كما كان جزء من السماء يهتز ويرتجف. كانت الساحة محاطة بأشجار الحور التي لم تكن مرنة وكانت متأرجحة كانت إحدى تلك الشجرات تتأرجح ببطء شديد...

ولكن ها هو هدير ينطلق بين الجمهور من جديد: كان رودريغ ورومان وهما يتعثران ويدفع واحدهما الآخر، يلهثان ويتأوهان، راحا يصعدان بشكل أخرق الدرجات ثم ألقيا بالعلبة الثقيلة على ألواح الخشب. نزع السيد بيير سترته وظهر في قميص داخلي بلا أكمام. كان ثمة نقش يصوّر امرأة فيروزية على العضلة البيضاء ذات الرأسين عنده، وفي الصف الأول المزدحم جدًّا على الرغم من تنبيهات وتحذيرات رجال الإطفاء، وبالقرب من منصة الإعدام تمامًا، كانت تلك المرأة بلحمها وشحمها واقفة، مع اثنتين من شقيقاتها ومعها أيضًا عجوز مع صنارة صيد وبائعة الأزهار التي سفعتها الشمس، وفتى يحمل عكازًا، وأحد أشقاء زوجة سينسينات، وأمين المكتبة وقد راح يقرأ جريدة، وذلك المهندس البدين نيكيتا لوكيتش كما شاهد سينسينات الشخص الذي كان يصادفه كل يوم صباحًا وهو في طريقه إلى الحديقة المدرسية، لكنه لم يكن يعرف اسمه. ثم أعقبت تلك الصفوف الأمامية صفوف أخرى أكثر سوءًا بمعنى وضوح العيون والأفواه، ثم جاءت بعدها طبقات من وجوه غامضة الملامح ومتشابهة من حيث عدم وضوحها، وبعد ذلك الصفوف الأكثر بُعدًا والتي كانت مرسومة بشكل سيّئ جدًّا في خلفية الساحة. وها هي شجرة حور أخرى تسقط.

سكتت الفرقة النحاسية فجأة أو الأدق: نشأ إحساس الآن، بعد أن سكتت الفرقة، بأنها كانت تعزف طوال الوقت. قام أحد العازفين وكان بدينًا وهادئًا، بفكّ آلته الموسيقية ثم راح يهز اللعاب من مفاصلها. كان يلوح خلف الفرقة النحاسية مدى مجازي كسول وأخضر
اللون: رواق صغير ذو أعمدة، وسفوح صخرية وشلال صابوني الشكل.

قفز نائب حاكم المدينة إلى المنصة بطريقة ماهرة ونشطة (بحيث إن سينسينات تراجع إلى الوراء لاشعوريًّا)، ثم وضع إحدى قدميه التي رفعها عاليًا على النطع بطريقة لامبالية (كان سيد البلاغة السهلة) وأعلن بصوت مرتفع:

يا سكان المدينة! إليكم ملاحظة صغيرة. لوحظ في شوارعنا في الآونة الأخيرة أنّ ثمة سعيًا من قبل عدد من الأفراد من جيل الشباب لأن يسيروا بخطوات سريعة جدًّا، إلى درجة أننا، نحن الشيوخ، كنا مضطرين للتنحي جانبًا من أجل إفساح الطريق ما جعلنا نقع في برك الماء. كما أريد أن أعلن لكم أنه سوف يُفتتح بعد يوم غد معرض للمفروشات وذلك عند تقاطع المنتزه الأول مع شارع بريغاديرنايا، ولدي أملٌ كبير بأنني سوف ألتقيكم جميعًا هناك. كما أذكِّركم بأنه سوف يتم مساء اليوم عرض الأوبرا الهزلية «هيا، تقلّص، يا سقراط» التي يجري عرضها مع نجاح منقطع النظير. ويطلبون مني أيضًا أن أعلن لكم أنه تم جلب كمية كبيرة ومتنوعة من الأوشحة الخاصة بالسيدات إلى مستودع كيفيرسكي، وأن عرض مثل هذه البضاعة قد لا يتكرر. والآن أفسح المجال لأشخاص آخرين من السلطة التنفيذية وآمل، أيها المواطنون، أنكم سوف تكونون جميعًا بصحة ممتازة وأنه لا ينقصكم أي شيء.

وبنفس البراعة انزلق بين قضبان الدرابزين ثم قفز بخفّة عن المنصة على وقع همهمة قوية من الترحيب من قبل الجمهور. راح السيد بيير وقد ارتدى مئزرًا أبيض اللون (كان يبرز من تحته الجزء العلوي من حذائه بشكل غريب) يمسح ويجفف يديه بالمنشفة بعناية كبيرة، وهو ينظر فيما حوله بهدوء مع حسن نيّة وبطريقة ودّية. وبمجرّد أن أنهى نائب حاكم المدينة كلامه، ألقى السيد بيير بالمنشفة إلى مساعديه وتقدّم نحو سينسينات.

(تحرّكت الكمامات السوداء المربعة للمصورين ثم جمدت في مكانها).

لا داعي، من فضلك، لأي نوع من الاضطراب ولا لأي نوع من النزوات قال السيد بيير نحن بحاجة قبل كل شيء لأن نخلع قميصك.

سأفعل ذلك بنفسي قال سينسينات.

هكذا، إذن. هيا، خذوا القميص. والآن سوف أوضِّح لك كيف يجب عليك أن تستلقي.

استلقى السيد بيير على النطع. سرَت همهمة قوية بين الجمهور.

هل هذا واضح؟ سأل السيد بيير وهو يقفز واقفًا ويصلح من حال الرداء عنده (فُك المريول من الخلف، وقام رودريغ بالمساعدة في ربطه). حسنًا. دعنا نبدأ، إذًا. الضوء ساطع جدًّا بعض الشيء... لو أنه كان ممكنًا... نعم، على هذا النحو، شكرًا. لعلّه يمكنكم أكثر، ولو قليلاً جدًّا... رائع! والآن أرجوك أن تستلقي.

بنفسي، أنا بنفسي قال سينسينات ثم استلقى ووجهه نحو الأسفل كما أوضحوا له، لكنه غطّى قفا رقبته بيديه.

يا لك من أحمق قال له السيد بيير مخاطبًا إياه من فوق كيف سأتمكن في هذه الحال... (نعم، هاتوا، ومن ثم أعطوني سطلاً على الفور). وعلى العموم ما فائدة مثل هذا التوتر للعضلات، لا داعي لأي توتر. يجب أن تكون مسترخيًا تمامًا. أَبعِد يديك، من فضلك... (هيا). استرخِ تمامًا وقم بالعد بصوت مسموع.

حتى العشرة قال سينسينات.

أنا لا أفهم، يا صديقي؟ كما لو أن السيد بيير أعاد طرح السؤال وأضاف بصوت هادئ وقد بدأ يئن ويشتكي ارجعوا إلى الخلف قليلاً، أيها السادة.

حتى العشرة كرر سينسينات وهو يبسط ذراعيه.

لم أبدأ بفعل أي شيء بعد قال السيد بيير وهو يبذل جهدًا أجشَّ وغريبًا عليه، ومن ثم ركض ظلٌّ على الألواح الخشبية حين بدأ سينسينات بالعدِّ بصوت عالٍ وبحزم: راح سينسينات واحد من بين اثنين يعدُّ بينما كان سينسينات الثاني قد كفَّ عن سماع الرنين المبتعد للعدّ غير الضروري ومن ثم أدرك بوضوح لم يختبره من قبل حتى الآن، حتى أنَّ ذلك الوضوح كان مؤلمًا بادئ الأمر بسبب تدفقه المباغت، ولكنه أصبح فيما بعد مفعمًا بمرح ملأ كيانه بالكامل: لماذا أنا موجود هنا؟ ولماذا أنا مستلقٍ على هذا النحو؟ وإذ طرح على نفسه هذا السؤال البسيط جدًّا، أجاب على نفسه بأن نهض وراح يحدّق فيما حوله.

كان ثمة ارتباك واضطراب يلفّان المكان بأكمله. كان الدرابزين ما زال يشفّ من خلال أسفل ظهر السفاح الذي واصل دورانه. أما أمين المكتبة فقد كان جاثمًا على الدرجة شاحبًا وهو يتقيأ. كان المشاهدون شفافين تمامًا، تمامًا، ولم يعودوا صالحين لأي شيء، بل كانوا جميعًا ينشدون الذهاب إلى مكان ما بعيدًا من هنا وحدها الصفوف الأخيرة المرسومة بقيت ماكثة في أماكنها. نزل سينسينات عن المنصة ببطء ومضى عبر القمامة المتقلقلة. لحق به رومان الذي كان قد نقص حجمه أضعافًا كثيرة من المرات وهو في الوقت نفسه رودريغ:

ما هذا الذي تفعله! قال بصوت أجش وهو يقفز إلى جانبه لا يجوز ذلك، لا يجوز! هذا تصرف غير شريف تجاهه، وتجاه الجميع... هيا عدْ، واستلقِ فقد كنت مستلقيًا وكان كلُّ شيء جاهزًا، وكان كلُّ شيء على أتمِّ الاستعداد ومنتهيًا!

نحّاه سينسينات من طريقه فصرخ ذاك بطريقة يائسة وركض مبتعدًا، وهو يفكِّر في خلاصه هو نفسه وحسب.

لم يبقَ سوى الشيء القليل من الساحة. كانت المنصة قد انهارت منذ زمن طويل وسط
سحابة من الغبار الأحمر. وكانت المرأة التي ترتدي شالاً أسود اللون آخر من فرَّ من هناك وهي تحمل بين يديها سفاحًا صغيرًا مثل يرقة. أما الأشجار التي سقطت فكانت مطروحة بشكل مسطح، من دون أي تحدّب على السطح، وأما تلك الأشجار التي كانت ما زالت واقفة فقد كانت هي الأخرى مسطحة مع ظلٍّ جانبي للجذع بهدف خلق توهّم الاستدارة، ولم تكن قادرة أن تصمد وهي تتشبث بأغصانها بالشبكة الممزقة للسماء. راح كلُّ شيء يزحف مبتعدًا. كانت الزوبعة الهوجاء الحلزونية تحمل الغبار وتفتله، ومعه الخرق والرقائق الملونة من جذوع الخشب، والقطع الصغيرة من الجبس المطلي بماء الذهب، بالإضافة إلى كتل الكرتون واللافتات؛ كان ثمة ضباب جاف يطير؛ ومضى سينسينات وسط الغبار والأشياء المتساقطة واللوحات المتأرجحة، واتجه إلى تلك الجهة التي كانت تقف فيها، حسب الأصوات القادمة من هناك، مخلوقات شبيهة به.

انتهى

---

(1)غير كاملة بل كما وردت في النص الروسي المترجم

(2) **المقصود جورج ميريديث روائي وشاعر إنجليزي عاش في الحقبة(1909 1828) Goerge Meredith الفيكتورية وكشف عن مهارة لفظية في كتاباته الشعرية حيث أدت هذه المهارة في بعض الأحيان إلى حجب محتوى رواياته إذا ما استخدمت فيها. يصعب فهمه أحيانًا، وتُعدّ رواية «Diana Of The Crossways» من أشهر رواياته، كما يُعدّ أسلوبه في معامله النساء أسلوبًا عالميًّا من الإقناع إذ يعتقد أنَ على المرأة أن تبذل قصارى جهدها الفردي ضد وحشيه الرجل. المترجم**

(3) **لا يشير نابوكوف لا من قريب ولا من بعيد إلى اسم هذا الكاتب المفضل لديه. لكن الباحثين والنقاد المتخصصين في أدب نابوكوف استطاعوا أن يكتشفوا من خلال دراسة وتحليل أعمال نابوكوف المختلفة، لا سيما دراسته النقدية لمقدمة الكاتب الفرنسي شاتوبريان لترجمة رائعة بوشكين «يفغيني أونيغين» إلى الفرنسية بشكل أكيد أن المقصود هو الكاتب الفرنسي فرانسو رينيه الفيكونت دوشاتوبريان الذي ذكر نابوكوف تاريخ وفاته في تعليقاته على ترجمته لمسرحية بوشكين «يفغيني أونيغين» بشكل صحيح. المترجم**

(4) **«كلُّ شخص يعثر فيها عن شيء ما يهمّه هو بالذات. وهو يرغم الطفل على الضحك والمرأة على الارتعاش. وأما الشخص من الوسط العلماني فسوف يشعر بدوار صحّي ومفيد، كما أنها تحوِّل أولئك الذين لم يحلموا في حياتهم قط إلى حالمين». (بالفرنسية في النص الأصلي).**

(5) **تشارلز ديفيس (22 يناير 1798 17 سبتمبر 1876) أستاذ الرياضيات في الأكاديمية العسكرية الأمريكية، اشتهر بكتابة سلسلة من الكتب المدرسية الرياضية. المترجم**

(6) **كما أنَّ الأحمق يعتقد أنه إله، نحن أيضًا نعتقد أننا محكومون بالموت. المؤلف**

(7) **ديلالاند اسم لكاتب غير موجود في الحقيقة بل قام نابوكوف باختلاقه ونسب إليه القول أعلاه. كما ونسب إليه عنوان كتابه «مناقشة حول الظلال Discours sur les ombres». المترجم**

(8) **القبقاب هو حذاء يصنع من الخشب في جزء منه أو كله المترجم**

(9) **حلوى تصنع من الدقيق واللبن والفاكهة والبيض. المترجم**

(10) سابايوني او سابيون او الزابليونية حلوى إيطالية تصنع من صفار البيض والسكر والنبيذ الحلو. المترجم

(11) من أجل الهضم (بالفرنسية) المؤلف.

(12) تسمية مختلقة من قبل الكاتب لا وجود لها في الحقيقة. المترجم

(13) الساجِن وحدة روسية لقياس الطول تبلغ ستة أقدام. المترجم

(14) في النص الأصلي ورد مصطلح на ижицу وتعني حرفًا في اللغة السلافية القديمة كان يشبه حرف y ولكنه انقرض. المترجم

(15) من الكلمة الهنغارية bekes التي تعني المعطف الطويل التقليدي المصنوعة بطانته من الفرو قابل للفصل في الوسط، وله طيات وشق من الخلف من أجل سهولة الركوب على الخيل. المترجم

(16) صيغة التدليل لاسم سينسينات. المترجم

(17) الاسم العلمي (Rhododendron) مشتق من كلمتين إغريقيتين معناهما «وردة» و«شجرة» جنس من النباتات تتبع الفصيلة الخلنجية من رتبة الخلنجيات وتتميز معظم أنواع هذا النبات بأزهار رائعة المنظر. المترجم

(18) idyllical متعلق بالأنشودة الرعوية والمقصود الحياة الرغيدة المسالمة. المترجم

(19) يريد الكاتب هنا أن يشير إلى مشهد في مسرحية تم عرضها في موسكو في عقد الثلاثينيات إبان حملة الاضطهاد ضد الكنيسة الأرثوذكسية حيث قام المخرج بتصميم قبو للنبيذ على المسرح وكان يفترض أن يجتمع الكهنة هناك في ذلك القبو. المترجم

(20) صيغة التحبب من اسم العلم إمَّا Emma ، Эмма . المترجم

(21) ها هي (بالفرنسية). المؤلف

(22) اليامب أو العمبق مصطلح أدبي يعني تفعيلة شعرية. المترجم

(23) وردت في النص الأصلي كلمة ترجمتها الحرفية هي: كش! وتقال عادة للحيوانات المنزلية. المترجم

(24) غدًا صباحًا (بالفرنسية). المؤلف

(25) المفردات الثلاث هنا: دمية وحوذي وحقير كلها تبدأ في اللغة الروسية بحرف واحد هو الكاف. يريد الكاتب أن يقول إن سينسينات وبسبب ارتباكه خلط بين الكلمات. المترجم

(26) آلة نفخ موسيقية. المترجم

(27) في النص الأصلي وردت هذه الجملة مكتوبة بشكل خاطئ: я тозе хоцу (يا توزي ختسو) بدل я тоже хочу (يا توجي ختشو) للإشارة إلى أن المدير كان يلثغ بالأحرف أو أنه كان يحاول التهريج. المترجم

(28) حركة من ضمن سلسلة من حركات متتالية في الكاراتيه وفنون الدفاع عن النفس يقوم بها المرء ضد خصم مفترض. المترجم

(29) المـطرَد سلاح أبيض يتركب من رمح وفأس الحرب وهو سلاح قديم. استخدم في الصين ونـقله الألمان إلى أوروبا حوالي القرن الرابع عشر. المترجم

(30) باختصار (بالفرنسية). المؤلف

(31) أداء مسرحي يتم على شرف أحد الممثلين (كتعبير عن الاعتراف بمهارته وتكريمًا له) أو العاملين في المسرح. يكون الدخل من هذه العروض لمصلحة هذا الشخص بالكامل مطروحًا منه تكاليف الأداء. المترجم

(32) بُلَيْعَة أو الوِسْتارية أو الغِليسين أو الحُلْوة Wisteria جنس من النباتات يتبع الفصيلة البقولية من رتبة الفوليات. المترجم

(33) البَرْبارِيس أو الزِّرِّشْكُ جنس من النباتات يتبع الفصيلة البرباريسية وهو اسم لعدد من الشجيرات الشوكية الواطئة. وهذه الشجيرات لها أوراق حمراء وثمار زاهية في الخريف. والبرباريس العادي ينمو بشكل طبيعي في شمال أوروبا، وكذلك ينمو بريًّا في شرق الولايات المتحدة. يستعملها الناس لتزيين منظر الحدائق. المترجم

(34) المأرضة (A terrarium) هي «أرض مغطاة بالتراب توضع فيها الأحياء البريّة بقصد الدراسة والمشاهدة». عادة ما تكون المأرضة في حاوية زجاجية مغلقة يُمكن فتحها للوصول للنباتات بداخلها. ولكن هناك أنواع من المآرض مفتوحة. غالبًا ما تُستخدم المآرض في الدراسة أو الديكور. المترجم

(35) السمسمية هي آلة وترية مصرية يعود أصلها إلى المصريين القدماء. ظهرت الآلة في الزخارف المنقوشة داخل المقابر المصرية القديمة، وهي تشبه القيثارة، ويتم صنعها محليًّا من خشب الزان، والأوتار المعدنية. أوتارها عبارة عن أسلاك من الصلب الرفيع تشد بشكل قوي على صندوق خشبى، ويتم العزف بالضرب على هذه الأسلاك. المترجم

(36) حسنًا (بالفرنسية). المؤلف

(37) لا تُلقِ بالاً (بالفرنسية). المؤلف

(38) هنا لعب بالكلمات: نفس المفردة في الروسية تعني مائدة من الطعام وطاولة ببساطة... فاقتضى التنويه. المترجم

(39) بعبع (Bogeyman) هو نوع من مخلوق أسطوري يستخدمه الكبار لكي يخيفوا به الأطفال بهدف تحسين سلوكهم. لا يوجد لدى البعبع مظهر محدد، وتختلف المفاهيم اختلافًا جذريًّا حسب الأسرة والثقافة، ولكن يتم تصويرها في الغالب على أنها وحوش ذكورية أو مخنثة تعاقب الأطفال على سوء السلوك. يستخدم مصطلح «بعبع» أحيانًا كتجسيد غير محدد أو كناية عن الخوف، وفي بعض الحالات، للإشارة إلى الشيطان. المترجم

(40) لقد جعل الكاتب من البوفيه كائنًا حيًّا هنا وهذه الظاهرة تكررت لدى أكثر من أديب أو شاعر روسي بما في ذلك في إحدى قصائد يوسف برودسكي. المترجم

(41) بلغة فرنسية مكسّرة يقلّد نابوكوف لغة الأوبرا الإيطالية... وهنا بداية أنشودة يفغيني أونيغين ل بوشكين «إنه مرغم أن يحترم نفسه». المترجم

(42) الكلمة بالروسية معناها همهمة أو احتجاج هادئ وإذا ما قُرئت بالمقلوب تصبح топор ومعناها فأس بما في ذلك بمعنى الفأس التي كانت تستخدم في عملية الإعدام عادة. المترجم

(43) الجِنَاس أو التَجْنِيس بتعريفه اللغوي هو: تشابه لفظين مع اختلافهما في المعنى. يكثر استخدام الجناس في الأدب العربي وعلى وجه الخصوص في الشعر، وهو يُعتبر من الحلى اللفظية التي يستهجن الإكثار منها. المترجم

(44) قول مأثور روسي يقال عن الشخص الكسول والصامت. المترجم

(45) قول مأثور شعبي يستخدم للتعبير عن حالة الإحباط والشعور بالتعاسة وبالقلق... ولكني تركت العبارة الأصلية لكي أبرر الجملة التالية: وأرجو المعذرة على هذا التعبير المترجم

(46) الكيباه أو الكِبة وجمعها كيبوت وتعرف أيضًا باليارمولكه غطاء رأس صغير ومستدير الشكل، يرتديه رجال الدين اليهود الأرثوذكس طوال الوقت توقيرًا للّه (لا يجوز ذكر اسم الرب على فم من كان رأسه مكشوفًا)، كما تأمر أحكام شريعة الهالاخاه، كما يرتديه الرجال (وقد ترتديه النساء أيضًا) في المجتمعات اليهودية المحافظة والإصلاحية أثناء الصلاة. المترجم

(47) سنديان ضخم وقوي (بالفرنسية). المؤلف

(48) نسبة إلى ملكة إسبانيا إليزابيت. المترجم

(49) وردت في النص الأصلي كلمة من اللغة الألمانية وتعني حرفيًّا قطعة خبز تؤكل صباحًا. المترجم

(50) يبدو أنها والدتك (بالفرنسية). المؤلف

(51) خرج (بالفرنسية). المؤلف

(52) لصوص الغابات لقب تحقيري أطلقه النبلاء في مملكة السويد على المشاركين في انتفاضة عام 1542 1543 في عهد الملك غوستاف الأول. المترجم

(53) وردت المفردة في النص الأصلي بأحرف روسية وهي كلمة فرنسية arrière تعني: عدّ إلى الوراء، وتستخدم عادة لمخاطبة الكلاب. المترجم

(54) بولسينيلا هي شخصية كلاسيكية نشأت في الكوميديا في القرن السابع عشر وأصبحت شخصية وضعية في دمى نابولي. أسرت براعة بولسينيلا في المكانة والموقف الجماهير في جميع أنحاء العالم وأبقت الشخصية شعبية بأشكال لا حصر لها منذ مقدمته لكوميديا ديلارت بواسطة سيلفيو فيوريلو عام 1620 م. المترجم

(55) الغُرَيْر حيوان اجتماعي يعتمد على التنقيب والحفر، ويعيش على مجموعة كبيرة من الأطعمة النباتية والحيوانية. وهو يهتم بشدة بنظافة جحره، ويتبرز في المراحيض. وهناك حالات معروفة قام فيها حيوان

الغرير بدفن افراد عائلته بعد موتهم. المترجم

(56) **بريابس أحد الآلهة الرومانية القديمة، ويعتبر من الآلهة الصغيرة (عكس الآلهة الأساسية التي تملك القوة، وتحكم الكون). يعتقد في علم الأساطير الرومانية، أن «بريابس» هو حارس قطعان الماشية، وله تمثال عارٍ يتميز عن غيره بكبر عضوه الذكري، ومنه اشتق اسم مرض قساح (أو الانتصاب المرضي المؤلم الذي يتم مرضيًّا بدون رغبة جنسية ويستمر لوقت طويل). المترجم**

(57) **لعبة الكرة والخيط. المترجم**

(58) **meerschaum معدن من معادن السيليكات. المترجم**

(59) **مخلوقات على شاكلة فتيات فاتنات في الأساطير الفارسية. المترجم**

(60) **وردت في النص الأصلي باللغة الفرنسية فاقتضى التنويه. المترجم**

(61) **هنا (بالفرنسية). المؤلف**

(62) **إيروس Eros إله الحب والرغبة والجنس يعادل آمور (كوبيدو) في الميثولوجيا الرومانية. المترجم**

(63) **بشأن الشوربة (بالفرنسية). المؤلف**

(64) **وحدة طول روسية تساوي 0.71 م. المترجم**

(65) **مثل شعبي روسي يقال للضيف لكي يشعر بالراحة ولكي يتصرف بلا حرج. المترجم**

(66) **واقي الماكاسر هو قطعة صغيرة من القماش تُوضع على ظهر المقاعد أو ذراعيها، أو على مسند الرأس في الأرائك أو على الوسائد عليها، والغرض منها هو حماية القماش الدائم الوجود من البقع. كما يشير الاسم أيضًا إلى ياقة ملابس البحارة والتي كانت تُحاك بملابسهم لحمايتها من بقع زيت الماكاسر. المترجم**

(67) **هذا مسلٍّ أو ممتع (بالفرنسية). المؤلف**

(68) **باختصار (بالفرنسية). المؤلف**

(69) **هذا، حقًّا، غير ضروري (بالفرنسية). المؤلف**

(70) **قول مأثور يقصد به حتى اللحظة الأخيرة من طقوس القِران السرّي الكنسي. المترجم**

(71) **كلمة تقال كتقليد في الأعراس ويقصد بها مطالبة العريسين بتقبيل بعضهما علنًا أمام جميع الحاضرين. وهذا طقس شعبي روسي في الأعراس. المترجم**

(72) **ورد اسم الساحة في النص الأصلي بكلمة تترجم «المثيرة» أو «المسلّية» وقد وجدت أن أنقل ترجمة الاسم إلى العربية لكي يفهم القارئ العربي مقصد الكاتب. المترجم**

(73) **نطق اسميهما بصيغة التصغير أو التحبب من دون أية صفة رسمية بينهم. المترجم**



